جماعة الأزهر للنشر والتأليف

سيف الله

خالد بن الوليد رضي الله عنه

أبو زيد شلبي
أستاذ بكلية أصول الدين

القاهرة
مطبعة دار الكتاب العربي
١٩٥٢

obeikandl.com

obeikandl.com

« نعم عبد الله خالد بن الوليد سيف من سيوف الله »

« حديث شريف »

« أعجزت النساء أن يلدن مثل خالد »

« أبو بكر رضي الله عنه »

الطبعـــة الثالثة

١٣٧١ هـ — ١٩٥٢ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

obeikandl.com

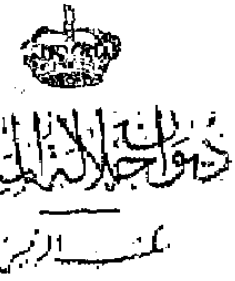

ديوان جلالة الملك

مكتب الرئيس

حضرة الاستاذ المحترم الشيخ ابى زيد شلبى

سلام الله وتحيته عليكم وبعد فقد رفعت الى السدة العلية الملكية كتابكم "خالد بن الوليد" وسرنى أن أبلغكم أن مولاى حفظه الله تقبله بالقبول الطيب والشكر الجميل .

وتقبلوا فائق تحياتى ؛

مصر فى ١٦ مارس سنة ١٩٣٨

obeikandi.com

تقـــديم

بقلم الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

أستاذ الشريعة الإسلامية بجامعة فؤاد ، ورئيس جماعة الأزهر للنشر والتأليف

ليس فى نيتى تقديم الكاتب والكتاب بهذه الكلمة . فالمؤلف الفاضل صديقنا الأستاذ الشيخ أبو زيد شلبى غَنِىٌّ عن التقديم ؛ بعلمه وعمله ، وولوعه بالبحث وحبه لتجويد ما يأخذ فيه ، وتواضعه المطبوع الذى يجعله يحب العمل فى صمت ، دون إعلان عن نفسه بحال .

وكذلك هذا الأثر الخالد ؛ غَنِىٌّ عن تقديم مثلى ؛ بما قام عليه من وثيق المصادر وأصيلها ، ومنهج علمى سليم ، وجهد مشكور فى رد الأمور لأسبابها ، واستنتاج النتائج من مقدماتها .

وإن ظهور الطبعة الثالثة من هذا الكتاب اليوم ، لدليل واضح على قيمته ومبلغ أثره فى قرائه من قبل ، وحرصِ آخرين على طلبه للانتفاع بما فيه من دراسة مستوفاة عن خالد بطل الإسلام .

ولكن ، رغبت فى كتابة هذه الكلمة ، لأنى رأيت كتاباً كله حق ، ولم يقصد به صاحبه إلا أن يكون دعوة لله ولسبيله ، وحافزاً لنا على الأسوة الحسنة فى هذه الأيام الصعاب التى نعيش فيها ، الأيام الفقيرة بالقُدَى الطيبة و بالأبطال يضربون للناس أحسن الأمثال .

نفوس الشباب فى الأمة الإسلامية متفتحة هذه الأيام ، ومستعدة للسير بالأمة إلى الأمام حتى تقعد مقاعد الحرية والكرامة . إلا أن هذه النفوس بحاجة للقدوة الطيبة تلتمسها من حاضرها وماضيها ، وللبطولة التى لا تعرف العقبات الكَأداء حتى تصل لغايتها ، وللزعماء والقادة الذين يوجهونها طريق الخير والصراط المستقيم .

وليس لمن ينسى تاريخه ، وما يزخر به من أمجاد ، حاضر يعتز به ، أو مستقبل طيب كريم يرجوه . ومن أجل ذلك ، رأينا المستعمر — حين كان له توجيه سياسة البلد التعليمية — يحول بكل جهده بين الناشئة و بين معرفة تاريخهم والاعتزاز به ، حذراً من أن تدفعهم معرفة هذا التاريخ المجيد للعمل الصادق على أن يكون لهم فى المستقبل ما كان لهم فى الماضى من المجادة والعزة والسيادة .

والشاب فى حاجة دائمة إلى مثل أعلى يحاول أن يصل إليه أو يقارب ، فإن لم يجد هذا المثل فى ماضيه أو حاضره عمل على أن يقيمه من نسج خياله ، وهنا قد يضل الخيال قليلا أو كثيراً .

من أجل ذلك كله ، نرى فرضاً على القادرين منا أن يقدموا لأبناء الأمة هذه المثل العليا ، فى شتى نواحى الحياة ، وأن يستعينوا فى ذلك بالتاريخ يعرضونه عرضاً صحيحاً طيباً ؛ فنقبل عليه قارئين فى استيعاب وتحقيق ، و يفيد كل منا مما يقرأ ، و يتخذ له ما شاء من القُدَى والمثل التى بلغت الذروة فى نواحيها .

و إنه لا شىء أغنى من تاريخ الإسلام بهذه القُدَى والمثل العليا : فى الإيمان ، والشجاعة ، والجهر بالحق ، وقوة الفكر وحسن الرأى ، والعدل فى سياسة الأمة ، وفى غير هذا كله من نواح وشئون . و إنه لا شىء أحوج من « مسلمى اليوم » لاستلهام هذا التاريخ والإفادة منه ، بعد تدبره وتصوره وتمثله ، و بعد أن نتصور كيف أمكن للمسلمين — وهم قلة فى الزمن الأول — أن يسودوا ما كان معروفاً من العالم فى ذلك الوقت ، بما فى ذلك دولة الأكاسرة ودولة القياصرة فى فترة من الزمن قليلة لا تزال مضرب الأمثال .

إنه لا أحوج من « مسلمى اليوم » لأن يتبينوا أسباب سيادة مسلمى تلك الأزمنة على عالمهم ، وأن يأخذوا أنفسهم بها متى هُدُوا إليها ، وأن يعودوا مسلمين حقاً ؛ فلا يكون بعضهم أرباب بعض ، ولا يكون بعضهم عدواً لبعض ؛ بل لا يكون لهم إلا غاية واحدة ، هى بناء الإسلام من جديد و إعادة مجده ، و إلا طريق

واحد ، هو إنكار الذات ، والصالح الخاص فى سبيل الغاية الواحدة المشتركة والصالح العام .

لما جاء المغيرة بن شعبة للقاء رستم قائد الفرس ، والحرب قائمة بين الأمتين ، مشى حتى جلس على سرير القائد المعتز بنفسه ، فوثب عليه من كان حوله وترتروه وأنزلوه ، فقال : « إنا معشر العرب سواء ، لا يستعبد بعضنا بعضاً إلا أن يكون محاربا لصاحبه ، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى ! وكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض ، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه ، ولم آتكم ولكنكم دعوتمونى . اليوم علمت أن أمركم مضمحل ، وأنكم مغلوبون . و إن ملكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول » .

نعم ، إن مُلْكا لايقوم على هذه السيرة ، كما قال القائد العربى الحكيم ، وسيرتنا فى أنفسنا اليوم لاتبعد كثيراً عن سيرة الفرس حين ذاك ، فليس من المنطق ولا من العدل أن ننتظر النصر من السماء على الأعداء الذين يحيطون بنا وأمرنا هذا الأمر ! .

وعبر أخرى نأخذها من تاريخ خالد بن الوليد نفسه ، وما أكثر مافى تاريخه من عبر وعظات لقوم يعقلون ! وكلها ترجع إلى ما كان لسيف الله من قوة الشخصية ، و إلى إيمانه القوى بالغاية التى عيّنها لنفسه ، ورآها تستحق الجهاد والتضحية والفداء .

لقد كان « سيف الله » من صناديد قريش ، وهو ابن من كان يسميه قومه «الوحيد» لتفرده بمزايا لم تجتمع لغيره من أشراف قريش ، ومن كان يعتقد و يعتقد له قومه أنه لو كان هناك وحى من السماء لكان هو صاحبه ، حتى أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله : « وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » !

ومن أجل ذلك ، نجد « خالدا » يشتد وهو مشرك فى حرب رسول الله وعداء الإسلام ، ولكنه حين عرف أن محمداً رسول الله حقا ، وأنه كان على خطأ وضلال يرغب فى الإسلام و يسلم فعلا ، ولم يمنعه من ذلك ما كان عليه من رأى تعصب له

كثيراً فترة طويلة من حياته . فأين هذا مما نحن عليه اليوم ، من تعصب للرأى حتى لو ظهر لصاحبه بطلانه ، وحتى لو كان لهذا التعصب آثار خطيرة منكرة على الوطن والإسلام عامة ؟! .

وشىء آخر ، حين جاء خالد من العراق لنجدة جيش الشام ، بعد أن فعل بالعراق الأفاعيل ، وفتح الله عليه معاقل دولة كسرى ، رأى قواد المسلمين يقاتلون الروم غير مجتمعين تحت قيادة واحدة ، فبين لهم خطأ خطتهم ، وأن من الواجب توحيد القيادة ، فكان له ماأراد ، ولم يجد سائر القواد رضوان الله عليهم مايمنع من ذلك من أثرة أو أنانية ، بل واجهوا العدو متحدين على قلب رجل واحد ، فكان لهم النصر المبين .

بينما نحن اليوم شيع وأحزاب ، ولكل حزب آراؤه وغاياته الخاصة ، وكل حزب يتربص بالآخر الدوائر ، والعدو يرصد لنا جميعاً !

ثم حين عزل عمر رضى الله عنه خالداً وولى مكانه أباعبيدة ، بعد ما أبلى من جهاد فى فتح بلاد الفرس ، و بعد أن تم للمسلمين النصر فى كثير من المواقع بفضل خالد وحسن تدبيره ، لم يجد فى نفسه على خلفه ولا على أميره ، بل تقبّل العزل كما يتقبل الجندى أمر قائده الأعلى ، ولم يمنعه العزل من أن يستمر فى قتال الأعداء ، وطلب الاستشهاد مرضاة لله تعالى تحت لواء خلفه .

أما مسلمو اليوم ، من ذوى الزعامات والرياسات ، فينفس بعضهم على بعض ، ومن ثم يكون الكيد والخذلان ، لأن هدف جمهرة المتزعمين ليس دائما صالح الوطن والأمة ! .

لقد كان خالد بن الوليد سيف الله حقا ، وقضاءه الغالب ، وقدره الذى لايُرد ، لأنه لم يعرف لنفسه إلا غاية واحدة ، هى مجد الإسلام وسيادته ، وأعطاها كل عقله وقلبه وجهده ، فوصل إلى ماأراد وأعز الله به الإسلام .

ليس بمسلم حقا من اكتفى بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ثم لم يعمل بما يقول ، بل اتخذ من دون الله أرباباً له ، ولم ير لشريعة رسوله حقا ولا حرمة ،

بل لم يرها صالحة للحياة فآثر عليها شرائع أقوام لا تجمعنا بهم رابطة من دين أو جنس أو تقاليد .

ليس بمسلم حقا من كان قصارى جهده التغنى بما كان للإسلام من أمجاد ، ثم لم يعمل حقا على إعادة بناء الإسلام ليعود سيرته الأولى ، ويجعل ذلك غايته فى هذه الحياة .

ليس بمسلم حقا ، من لم يَشْر نفسه فى سبيل الله ، نصراً لدينه الذى ارتضاه لخلقه ؛ بل اكتفى بما يؤدى من شعائر ورسوم لم تعد تدل على الإيمان الحق لدى كثير من « مسلمى اليوم » ، وترك الأمة تعانى ماتعانى من الفوضى والانحلال والبعد عن الدين الصحيح وتعاليمه الطيبة فى كثير من أحوالها ومرافقها .

و بعد ! فإن إعادة نشر هذا الكتاب الخالد بموضوعه ، فى هذه الأيام يقدِّم عوناً كبيراً للناشئة المسلمة ، ولطلاب المثل العليا والقدى الطيبة ، ويساعد إلى حد كبير على فهم تاريخ الإسلام ، ونشر دعوته فى فترة من أهم الفترات فى تاريخ الإسلام الخالد المجيد دائماً ، والله ولى التوفيق ومنه العون لكل خير ؟

محمد يوسف موسى

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله على نعمائه ، والصلاة والسلام على خير رسله وأنبيائه .

و بعد فإنى أقدم لكل من يعنيه النهوض بالمسلمين ، و يود التضحية فى سبيل الذود عن الوطن والدين الطبعة الثانية من تاريخ سيف الله خالد بن الوليد ، ذلك القائد الذى لم يهزم قط ، ولم ينثن سيفه عن ضريبته . و إنى لأرجو أن يجد فيه المخلص لعقيدته ومبدئه مثله الأعلى فى التضحية وقوة العزيمة .

ولم نأل جهداً فى أن تكون هذه الطبعة مزيدة منقحة ، ولا نريد أن ندل بعمل ، فإن الله له المن وهو ولى الجزاء ؟

المؤلف

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

و بعد ، فهذه رسالة فى تاريخ عظيم من عظماء الإسلام ، وقائد هو بلا مراء أكبر قواد المسلمين ، ذلك هو سيف الله خالد بن الوليد .

وقد حبب إلى الكتابة فى سيرة هذا البطل العظيم ، وفتوحه ، أنى رأيت الأمم الناهضة لا تفتأ تشيد بذكرى أبطالها وعظمائها ، وتفخر بهم ، ولا تدخر وسعاً فى تمجيدهم وتقديسهم . تذكر هؤلاء الأبطال فى المنازل والمعاهد ، فى النوادى والمجتمعات ، فينشأ ناشئهم وفى نفسه كل معانى الإجلال والإكبار لهؤلاء الأبطال .

وأرانا معاشر أهل الإسلام قد انصرفت نفوسنا عن تعرف حياة عظمائنا وسيرهم ، ومقدار ما بذلوه من جهد وطاقة فى نصرة دين الله ، و إعلاء كلمته ، وما كان لهم من فضل فى رفعة أممهم وأوطانهم ، مما كان له أكبر الأثر فيما نحن فيه من نعمة ، وما ندعيه من مجد . و إنه لمن الظلم أن نهنأ بمجهودهم ، ونرفل فى نعيمهم ، ولا نعرفهم ولا نحتفظ بمخلفاتهم ، وما كان لهم من مآثر صالحات ، بل كثيراً ما نعقهم ونغمطهم حقهم حتى فيما يعترف لهم به أعداؤهم ، ولا سيما تلك الفئة منا الذين يدعون لأنفسهم — ظلماً — أنهم أهل الثقافة والعرفان ؛ فترى الواحد منهم إذا احتاج إلى ضرب مثل ، أو الاستشهاد على حادثة فسرعان ما يعمد لنابليون أو بسمارك ليقتبس من سيرته وأعماله كأن أمته ليست من الأمم التى تتصل بماض تفخر به ، أو كأن قومه ليس فيهم من الرجال من يسامى بسمارك أو يقارع نابليون ، بيد أنه لو رجع إلى تاريخ قومه لوجد ما تقر به عينه ، ولعثر على جم الشواهد والمثل .

لنقف قليلا ثم نتصور أن خالد بن الوليد كان فى أمة حية كالأمة الإنجليزية مثلا ، ثم لننظر كم من الحفلات تقام للاشادة بذكره ، وكم من المعاهد والمدارس تعرف باسمه ! (١) .

على أن من دواعى سرورى واغتباطى أننى فى أثناء دراستى بقسم التخصص كنت مجدوداً بأولئك الأساتذة الأجلاء ، والسادة الفضلاء ، فقد كان لغيرتهم على الإسلام وأبناء الإسلام ، ودأبهم على العمل لإعادة مجدهم أثر عظيم فى نفسى حفزنى على أن أسير قدماً فيما عليه عزمت ، فإن كنت قد أحسنت الاختيار فى موضوع رسالتى هذه ، أو كان فيها بحث مفيد ، أو رأى سديد ، فمرده إلى إرشاد أساتذتى ونصائحهم .

وقد شجعنى على أن أتقدم برسالتى هذه لهيئة الامتحان النهائى لقسم التخصص بالأزهر أنى رأيت الروح السائدة لمن كان لى شرف الاستفادة من آرائه ومباحثه إظهار تلك الشخصيات البارزة من أبناء الاسلام ، والاستفادة من أعمالهم وسيرهم .

على أنى لم أر من المؤرخين من كتب كتابة مستقلة مستوفاة لهذا القائد الكبير . ولعلى برسالتى هذه أتوصل إلى نشر شىء يعتد به من سيرة ذلك القائد المظفر الذى أبلى فى جهاد دولتى الروم والفرس البلاء الحسن ، فانتشر الإسلام وساد فى تلك الأرجاء الواسعة .

وسأبذل جهدى فى تذليل ما يعترضنى من صعوبات وبخاصة البحث فى مراجع التاريخ العربية القديمة التى عليها المعول فى مثل موضوعنا هذا ، فأستعين الله وأستمد منه التيسير أن يوفقنى لإظهار شىء أستطيع تقديمه لمن يهمهم الاطلاع على تاريخ ذلك القائد العظيم الذى لا يجود الدهر بمثله

أبو زيد شلبى

---

(١) يسرنى أن كثيراً من المنظمات والمؤسسات عرفت الآن نواحى العظمة الحربية لهذا القائد المظفر فأطلقت اسم « خالد » على بعض نواحى نشاطها .

تصدير

الأمة برجالها ، والرجال بأعمالهم ، فالأمة تعلو بأبنائها المخلصين ، وعلمائها الباحثين ، وصناعها المجيدين ، وساستها المبرزين ، وأبطالها المجاهدين ، وخليق بمثل تلك الأمة أن تسود ، وأن تملى إرادتها على من سواها .

ولقد كان العرب قبل الإسلام أمة متبدية متنافرة لا تجمعهم رابطة ، ولا يؤلف بين قلوبهم غرض أو غاية ، يأنفون من الخضوع لرئيس ، فلا يذعنون إلا لسيوفهم ورماحهم ، يهيجهم تافه الأمر ، ويضرم نار الحرب بينهم وشل[1] . قل أن يعرفوا لغيرهم واجباً ، أو يقيموا للمساواة وزناً . شعاوهم « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً[2] » كانوا :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهاناً

كانت هذه الأمة تعبد الأصنام والأوثان رجاء أن تقربهم إلى الله زلفى ، متجافين عن العلم والتعلم ، بعيدين عن التدبر والتفكر ، إلا ما كان من معرفة ما هو ضرورى لحياتهم ، كالسلاح والطب فى أبسط حالاته ، ومعرفة النجوم والأنواء لحاجتهم إليها فى حلهم وترحالهم . فلما تأذن الله للإسلام بالظهور وأراد لهذه الأمة من الخير ما أراد ، مهد لهذا الدين بوجود أفراد ذوى نظر وعقل وروية وثاقب فكر ، لهم أثر غير منزور فى تنبيه العقول ، وتهيئتها للدين الجديد مثل : أكثم بن صيفى ، وقس بن ساعدة ، وورقة بن نوفل[3] ومن إليهم ، ففاهوا بالحكم والمواعظ ، وحثوا على خلال الخير ، وخير الخلال ، وأخذوا ينعون على قومهم ما هم فيه من ضلال وباطل

---

(١) قال فى القاموس : (الوشل) محركة الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة ولا يتصل قطره

(٢) من غير أن يعدلوه بما عدله به الإسلام ، فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً قيل كيف أنصره ظالماً قال تحجزه عن الظلم فإن ذلك نصره » — رواه البخارى والترمذى وأحمد — السراج المنير للعزيزى ج ٢ ص ٦٧ .

(٣) السيرة الحلبية ج ١ ص ١٧٢ .

وأخذ فريق منهم يتلمس دين إبراهيم عليه السلام بينما كان فريق آخر يجد ويبحث عله يصل إلى دين أهدى مما عليه قومه .

وما أشبه هذا الفريق من الحكماء والمفكرين بالبريق الذى يضىء قبيل الفجر ثم يخبو مؤذناً بالفجر الصادق ، الذى يسطع وتطلع شمسه فيعم ضياؤه كل الأرجاء ، ويطبق الآفاق .

انبثق فجر الإسلام وسط ظلام حالك من استبداد الأكاسرة ، وتجبر القياصرة ، والعكوف على عبادة الأحجار والكواكب وغيرها ؛ فكان من فضل الله ورحمته بعباده أن جاء الإسلام مبينا للناس أن الذى يجب أن يعبد إنما هو الله وحده لا إله غيره ، آمراً بمكارم الأخلاق ، وجميل الصفات مسوياً بين الناس ، وأنهم إنما يتفاضلون بالتقوى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فـ « ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى » .

ولقد كانت الأمة الإسلامية فى عهدها الأول المثل الأعلى فى كل مناحى الحياة فسادت العالم ، وأرته كيف تكون التضحية للوطن ، والدفاع عن العقيدة ، وعلمته مدى أثر الاتحاد فى النصر ، وقيمة المساواة بين الرعية .

كانت الأمة الإسلامية فى بدئها تعرف العدل على أنه عدل فلا محاباة لابن الأمير وإن جل ، ولا غبن على ابن الفقير وإن أقل .

اجتمعت كلمة المسلمين ووحدوا صفوفهم تحت رمز واحد هو : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » فعند هذه الكلمة تهتز القلوب ، وتطرب النفوس وتذوب الضغائن وتمحى الأحقاد . عند هذه الكلمة يجتمعون ، وإليها يرجعون ، ولأجلها يجاهدون .

تلك الكلمة هى التى أوحت لعكرمة بن أبى جهل أن يقول فى إحدى مواقعه : « من يبايع على الموت[1] » . وهذا المعنى السامى هو الذى جعل العربى القح يقول :

---

(١) هذه الكلمة الملتهبة قالها عكرمة بن أبى جهل يدعو بها المسلمين فى موقعة اليرموك فكان لها أثرها فى نفوس المسلمين وانتصارهم على أعدائهم .

ركضا إلى الله بغير زاد إلا التقى وعمل المعاد
والصبر فى الله على الجهاد إن التقى من أعظم السداد
وخير ماقاد إلى الرشاد وكل حى فإلى نفاد[1]

من ذا الذى يصدق أن تلك الأمة المتبدية التى درجت على حب العصبية وتهالكت على التقاتل لأوهى الأسباب وأحقر الأمور ، وتجافت عن السياسة والنظم ، وباعدت بينها وبين مظاهر الحضارة والمدنية تبسط سلطانها فى أقل من قرن من الزمان على ملك فارس والروم لو لم تحمل راية القرآن وتهتدى بهديه !

حقاً إن الإنسان ليدهش لتلك الأمة ويحار لفتوحها الخالدة وهى قريبة عهد بالبداوة والانقسام ؛ فأى شىء طرأ على تلك الأمة أمة الشيح والقيصوم فهذبها ، وألف بين كلمتها وأحكم وحدتها ، بعد أن كان بيت من الشعر يقوله صعلوك كافياً للقطيعة بين بنى الأب الواحد ، ووقوفهم متصالخين بالسيوف ؟ .

ماذا حدث لتلك الأمة وماذا طرأ ؟ أتراه الدين الجديد الذى إعتنقوه ، أم العدل الذى بسطوه ، أم التسوية بين السيد والمسود ، أم حسن التزجية للجيوش ؟!

لا جدال فى أن الدين الجديد هو الأساس الذى جمع شملهم ، ووحد كلمتهم ، وحذرهم مما كانوا عليه فى جاهليتهم ، ووجه همتهم لتكوين دولتهم ، بعد أن كانت قواهم ضائعة فى منازعاتهم .

هو الذى أذاقهم طعم المساواة والعدل . هو الذى حضهم على الإتحاد وحذرهم مغبة التنازع والإختلاف بقوله : « وأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا » . هو الذى عرفهم بالقيمة المعنوية فى الجيش وأن عليها يكون النصر إذ قال لهم : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[2] » .

---

(١) قالها عمير بن الحمام أخو بنى سلمة فى يوم بدر حينما حرض النبى صلى الله عليه وسلم المسلمين للقتال فألقى بتمرات كانت بيده وقاتل حتى قتل — الطبرى ج ٢ ص ٢٨١ ، أسد الغابة ج ٤ ص ١٤٣ .

(٢) قال فى العقد الفريد : جمع الله تبارك وتعالى تدبير الحرب فى آيتين من كتابه فقال تعالى : « يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا » ج ١ ص ٥٢ طبعة محمود شاكر .

هو الذى صقل عقولهم وجعلها تفكر فيما حولها ، بما استحثهم به من آى الذكر الحكيم كقوله تعالى : « أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء » .

تفتحت أعينهم على ما جاورهم فرأوا الدنيا ونعيمها ، وفيئها وظليلها ، ورأوا وراء هذا النعيم سادات يتلذذون ، وعبيدا يتحسرون ، وظلما جارفا ، وتحكما فى عباد الله لاترضاه الإنسانية ، ولا تقره الأديان الحقة . رأوا هذا ورأوا دينهم الذى ارتضوه ، قد ألقى عليهم مهمة المرشد المخرج للناس من الظلمات إلى النور ، فكان حقاً عليهم أن يمتثلوا قول الله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » .

فعند ما استقرت الأمور ، وهدأت الأحوال التى أعقبت وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم تهيأ المسلمون لطاعة الله ، واستعدوا لنشر دينه ، وهداية عبيده ، وقد ساعدهم على ذلك ، وسهل عليهم مهمتهم أن هيأ الله لهم رجالا باعوا أنفسهم فى طاعة الله ، ونسوا كل شىء إلا إعلاء كلمته ، وهداية خليقته ، أمثال أبى بكر وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وعمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد . بيد أن خالداً كان فارس الحلبة ؛ فهو فاتىء عين الردة ، وفاتح السواد ، وصاحب يوم اليرموك .

تلك الفتوح العظيمة التى صيرته بحق القائد الأول وجعلت اسمه يهزم الجيوش ، ويقوض العروش .

الباب الأول

خالد بن الوليد قبل الإسلام

« نسبه . ولادته . بيئته التى عاش فيها : البيئة الطبيعية البيئة الاجتماعية . مركز مكة الدينى . مركزها التجارى . مركزها الأدبى والأخلاق ، مركزها السياسى ، قبيلته ، عمومته ، أخوته ، والدته ، والده ، شرفه ومكانته فى قريش ، صناعته . السر فى أنه كان حربياً مظفراً . موقفه إزاء الإسلام موقفه فى أحد ، موقفه فى الخندق ، موقفه فى الحديبية . موقفه فى عمرة القضاء »

نسبه :

هو أمير الجيوش الإسلامية ، وصاحب المواقف المشهودة ، والأيام المحمودة ، ذو الرأى السديد ، والبأس الشديد ، والطريق الحميد ، أبو سليمان[1] خالد بن الوليد ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة[2] بن مرة بن كعب بن لؤى ، فهو يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك مع أبى بكر رضى الله تعالى عنه فى الأب السابع للنبى صلى الله عليه وسلم وهو مرة .

(انظر شكل رقم ١)

---

(١) وقيل أبو الوليد وما فى الأصل أشهر.

(٢) بفتح التحتانية والقاف والمثناة — فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ٧ ص ٧٩ ط أميرية

شكل رقم «١»

وهو يبين نسب (خالد) واتصاله بالجد النبوى وبأبى بكر رضى الله عنه

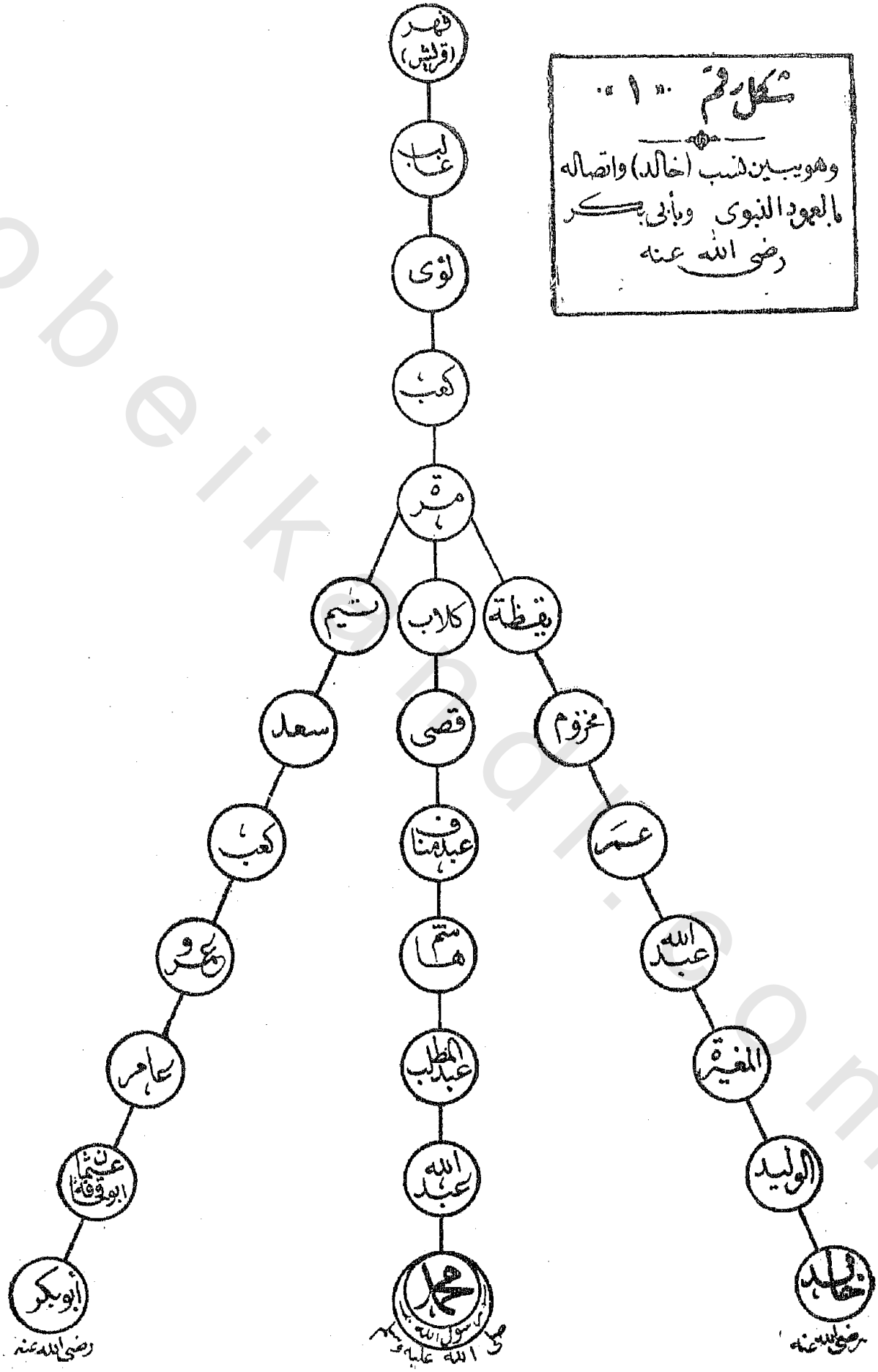

obeikandl.com

وأمه لبابة الصغرى عصماء [١] بنت الحارث بن حزن الهلالية أخت أم الفضل امرأة العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم وتجتمع مع أبيه الوليد فى مضر [٢]

(انظر الشكل رقم ٢)

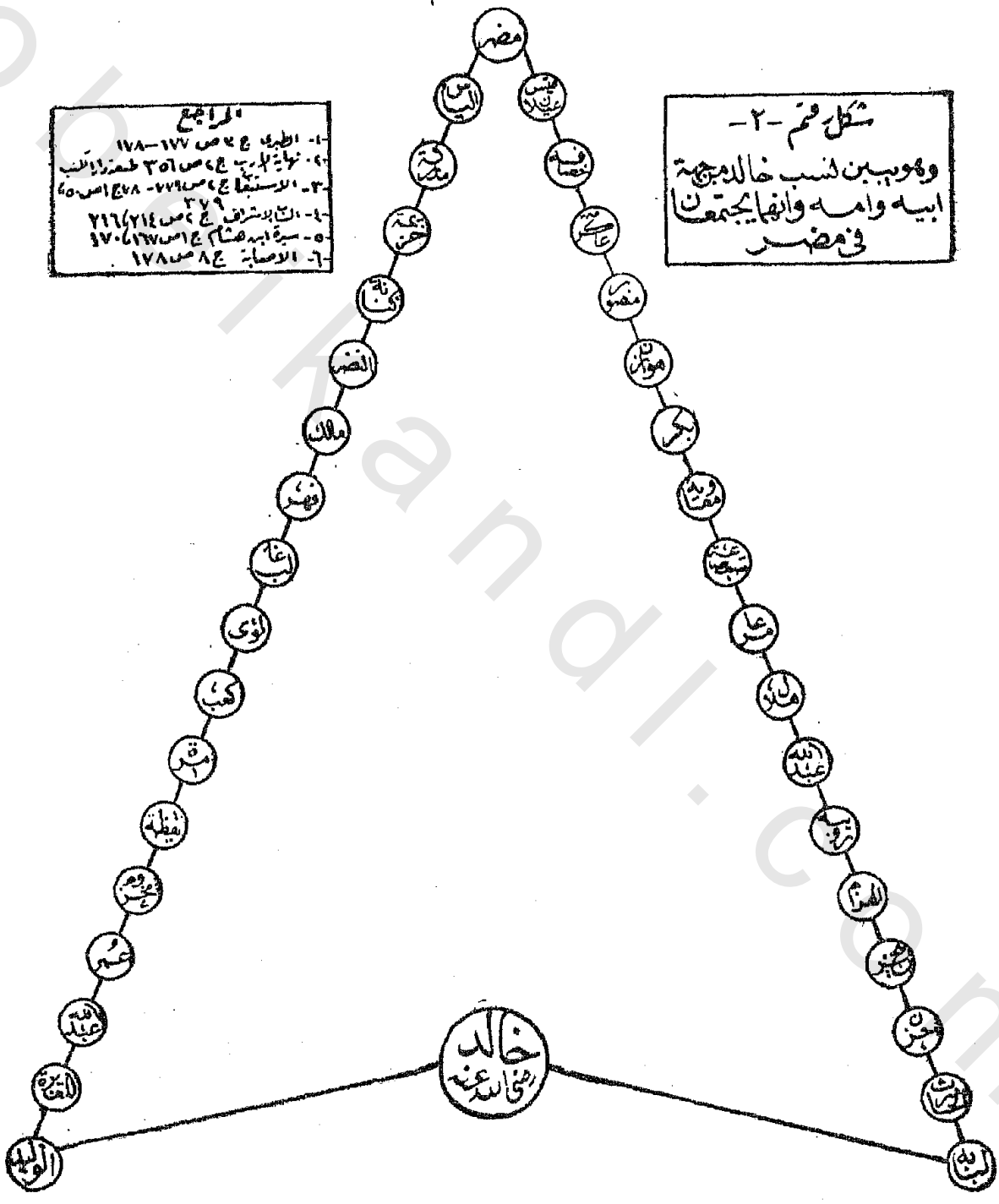

(١) صفة الصفوة لابن الجوزى ج ١ ص ٦٢٧ .

(٢) سنفرد بحثاً خاصاً لكل من أبيه وأمه .

ولادته :

لم نجد فى كتب التاريخ التى اطلعنا عليها نصاً صريحاً يبين لنا تاريخ ولادته غير أن ابن عساكر فى تاريخه ، وابن برهان الدين فى سيرته[١] ذكرا أنه قد « اصطرع عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وهما غلامان ، وكان خالد ابن خال عمر[٢] فكسر خالد ساق عمر فعولجت وجبرت » . وهذه الحادثة تعطينا أن سنيهما كانتا متقاربتين جد التقارب ، إذ العادة جرت بمصارعة الغلمان إذا كانوا أتراباً ، وعليه فتكون سنه حين جاء الإسلام سبعاً وعشرين سنة تقريباً ، وهى سن عمر بن الخطاب رضى الله عنه . ويؤيد هذا الرأى ما ذكره ابن العماد الحنبلى إذ قال فى شذرات الذهب : « وتوفى سيف الله خالد بن الوليد المخزومى عن ستين سنة على فراشه » وإذا كان الراجح أن وفاته كانت سنة ٢١ هـ فإنه يكون قد ولد قبل الهجرة بتسع وثلاثين سنة ، وبعبارة أخرى ولد قبل البعثة بنحو سبع وعشرين سنة تقريباً .

وإذ كان من قصدنا أن ندرس حياة خالد دراسة تحليلية ، فإنه يجب أن نبنى دراستنا على أسس ثابتة ؛ وذلك بأن نتعرف مواهبه واستعداداته المختلفة ؛ بأن نبحث فى منشئه ومرباه ، فى القبيلة التى درج بين أبنائها ، وفى أبويه وصفاتهما وما كان لهما من مكانة فى قومهما ؛ فليس من شك فى أن البيئة والوراثة يحددان صفات كل كائن حى ، وبهما يمكن أن نحكم حكماً لا يبعد عن الحقيقة ؛ فللبيئة كما للوراثة الأثر الكبير فى إظهار الصفات الكامنة فى الإنسان ؛ فالمكان الذى يعيش فيه المرء ، وما فيه من سهول ووديان ، وماء وهواء ، ورفقة وأصدقاء ، وأسرة نشأ بين أبنائها ، هو الذى يكشف عن مزاجه ويظهر لنا كامل مزاياه . بل إن أثرها لا يقف عند هذا الحد ولكن يتصل بحياة الإنسان قبل وجوده ، فهذا توماس لوب الحكيم الإنجليزى (عاش فى القرن السابع عشر) ينسب خلق الجبن الذى فيه إلى

---

(١) ابن عساكر فى تاريخه المجلد الثالث ص ٧١٠ ، ابن برهان الدين ج ٣ ص ٢٧٦ .

(٢) فى هذه العبارة تسامح لأن حنتمة أم عمر بن الخطاب بنت عم خالد ، فيكون خالد إذن فى منزلة الخال لا فى منزلة ابن الخال — راجع أسد الغابة ج ١ ص ٣٥٢ .

ما أصاب أمه من الخوف والفزع وهى حامل به عام أن كانت العمارة الأسبانية « أرمادا » تهدد انجلترا .

بيئة خالد التى عاصر فيها

خالد بن الوليد قرشى نشأ وترعرع بمكة ، ولأجل أن نفهم أثر هذه البيئة فى نابغتها ، نرى أن نتناول الكلام عليها من الناحيتين : الطبيعية ، والاجتماعية .

(ا) بيئته الطبيعية :

مكة واد غير ذى زرع ، سماؤه صافية ، وجوه فى جملته جاف ، جيد الهواء يميل إلى الحرارة ، وأرضه واسعة الفضاء ، طيبة الماء ، جنبت المستنقعات والعفونات ، لم تتوغل فى بيداء الصحراء العربية ، فهى تهامية لا تبعد كثيراً عن ساحل البحر .

وطبيعة هذا البلد لا تساعد على انتشار الزراعة ولا الصناعة ، لعدم صلاحية التربة ، وتعذر الحصول على المواد الغفل التى تقوم عليها الصناعة ؛ ولذا فإنا نجد أهلها فى حاجة ماسة إلى جلب أقواتهم وحاجهم من خارج بلدهم ؛ فهم مضطرون لأن يكونوا فى حركة دائمة وأسفار مستمرة ، كى يتمكنوا من الاستيطان فى بلدهم ، والإقامة فيه ، وإلى ذلك يشير الله تعالى بقوله : « لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ » .

أثر هذه البيئة فى أهلها :

من شأن هذه البيئة أن تؤثر فى أهليها تأثيراً ظاهراً ، فتجعلهم أهل جد وسعى وبصر بالأمور وعواقبها وحسن تصريفها بحكم دأبهم على الحركة والأسفار والاختلاط بمختلف الأمم والطبقات ، أصحاء الأبدان ، راجحى العقول ، شديدى الملاحظة بحكم الجو والسماء الصافية ، والبعد عن العفونات ، والقرب من الساحل .

(ب) بيئته الاجتماعية :

لما كانت البيئة الاجتماعية متشعبة النواحى تشمل البلد الذى عاش فيه ، والقبيلة التى ينتمى إليها ، والبيت الذى تربى فيه ، وما إلى ذلك ، كان من الحسن أن نلم بأهم هذه النواحى حتى نعرف الملابسات والأحوال التى أحاطت بخالد وأثرت فيه .

وإذ كانت مكة — وهى البلد الذى نشأ فيه — هى منبت الدين الذى أتاح له تلك الفتوح العظيمة ، وهيأ له تلك الشهرة الفائقة ، وفيها أيضاً تربى المصطفى لهذا الدين صلوات الله عليه ، وخلفاؤه ، وهم الألى كانوا يسيرون خالداً ويرسمون له بما يريدون ، ويزودونه بنصائحهم ، رأينا أن نبسط القول فيها بعض البسط فنقول :

مركز مكة الدينى :

كانت مكة صاحبة المكانة الدينية العليا فى جزيرة العرب لمكان الكعبة المكرمة ، وهى بيت الله الحرام الذى جعل مثابة للناس ، وأمناً ، تجله كل العرب وتعظمه ، وتحج إليه من أطراف الجزيرة ، وأهلها صريح ولد إسماعيل ، وهم سدنة البيت ، والذادة عنه والقوام عليه ، وهم الحمس فى الدين والمتشددون فيه[1] .

الأثر الدينى لمكة :

من شأن هذه البيئة أن تجعل لأهلها فى نفوس العرب من الحرمة والإجلال ، والقداسة والإكبار ما يكونون به فى مركز ممتاز ليس لغيرهم ، ولا يماريهم فيه أحد[2] .

مركزها التجارى :

كانت مكة محطا للقوافل الآتية من حواضر بلاد العرب وبخاصة من اليمن

(١) الحمس — جمع أحمس ، وأصل التحمس التشدد ، راجع سيرة ابن هشام فى حديث الحمس ج ١ ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٢) وقد ذكرهم الله بهذه النعمة العظمى ، وحثهم على شكرها بقوله : « فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » .

حيث تحمل بضائع الهند واليمن إلى الشام ومصر. بها ينزل التجار ليأخذوا حاجتهم من الماء، ويتزودوا لأسفارهم، وقريب منها أسواق رائجة للتجارة والأدب والمفاخرة؛ فهى فى حركة دائمة ونشاط مستمر، على اتصال دائم مع روادها من سائر أنحاء الجزيرة وغيرهم ممن يجتازونها.

أضف إلى ذلك أن أهلها أنفسهم كانوا تجاراً، ولهم أسفار إلى كثير من البلدان وبخاصة إلى الشام واليمن: «رحلة الشتاء والصيف».

أثر البيئة التجارية:

من شأن هذه البيئة التى يمارس أهلها التجارة ويكثرون من الأسفار، ويختلطون بأقوام مختلفين، أن تكسب أهلها فوائد ذات بال؛ فقد غدوا فى سعة من العيش، وبسطة فى المال ورفاهة الحال، وأصحاب أموال وضياع، وأصبحوا يحسنون وسائل الاختلاط بغيرهم؛ فعرفوا كثيراً من أحوالهم الاجتماعية والأدبية، وهذه المعرفة مكنتهم من الانتفاع بمعلومات مَن اختلطوا بهم، والاطلاع على حضاراتهم وأفكارهم، مما كان له أثر كبير فى تثقيف عقولهم، وارتقاء مداركهم.

مركزها الأدبى والأخلاقى:

لقد تولت مكة زعامة العرب الأدبية والأخلاقية كما تولت زعامتهم الدينية، وعهدها بهذه الزعامة متقادم يرجع إلى الوقت الذى نبغ فيه قصى بن كلاب[1] (الجد الرابع للنبى صلى الله عليه وسلم)، وغلب خزاعة على مكة والبيت الحرام، وأصبح له ولبنيه من بعده ثم لأهل مكة على وجه العموم منزلة أدبية وأخلاقية هى المثل الأعلى، والنهج الذى يحتذى لأهل الجزيرة، ولقد كانت أسواق العرب القريبة من مكة من أكبر العوامل لهذه الزعامة، فقد كانت تقام هذه الأسواق كل عام، ويحضرها الشعراء والخطباء، والمفكرون والحكماء، وينشدون ويتناظرون،

(١) يرجح بعض المؤرخين المحدثين أنه عاش فى القرن الخامس الميلادى ومات حوالى سنة ٤٧٠ م

ويعددون مآثرهم ويتفاخرون ، وكان لأهل مكة فى هذه الأسواق القدح المعلى والمركز السامى ، فإذا تفاخر الشعراء ، وتناظر الرؤساء ، استثنوا قريشاً ، وقالوا بعد ذلك ما شاء لهم الفخر والخيال :

رأيت الناس ما حاشا قريشاً فإنا نحن أفضلهم فعالا[1]

كان يغلب على أهلها خلق الشجاعة والإقدام ، والصبر على المكاره ، وحب الفوز والقهر للأعداء ، والفوق فى الحروب :

فإنا أناس لا تطل دماؤنا ولا يتعاطى صاعداً مَن نحاربه

كذلك كان يغلب عليهم حب الثناء والمحمدة ، وطلب المعالى والوفاء بالعهد ، والمحاماة عن الجار والمستجير ، حتى ليستهين الرجل منهم بدم أخيه وفاء لجاره ، ودفاعاً عمن يستجير به .

أثر البيئة الأدبية :

من شأن هذه البيئة أن تبث فى نفوس نابتتها طيب الخلال ، وتنشئهم على خير ما ينشأ عليه الفتيان : إقدام فى حزم ، ونجدة فى عزم ، وحب للرفعة والمجد ، وعزة نفس ، ووفاء بالعهد .

مركزها السياسى :

لقد كانت مكة فى مركزها السياسى على درجة من النضوج تحمد عليها ؛ فقد كان لها نظام سياسى شبيه فى جملته بنظام الحكومات الشورية : قسموا شارات الشرف[2] والمجد ، ومناصب الحكم ، والمصالح بينهم ، لتأخذ كل قبيلة بنصيبها ، وليكون ذلك أدعى إلى رضاهم جميعاً ، وأبقى لألفتهم وإخائهم .

كانت لهم دار الندوة تجتمع فيها مشيختهم ورؤساؤهم ليفصلوا فى مهام أمورهم ، وما يجد عليهم من حوادث بعد أن يوازنوا بينها ، ويتخيروا أحسنها وأوفاها

---

(١) قائله الأخطل : المغنى لابن هشام النحوى ج ١ ص ١٠٩ .

(٢) سيأتى تحت عنوان : « شرف خالد ومكانته بين قومه » بيان هذه الشارات .

بأغراضهم ومصالحهم ؛ فهى إلى حد كبير تشبه مايسمى الآن فى عرف الدول المتحضرة « برلماناً » .

كانت كلمة السادة منهم شرعاً نافذاً ودِيناً ، يجب اتباعه . كان على الشيوخ والسادة أن يبحثوا ويعالجوا الأمور ، وعلى من سواهم السمع والطاعة ؛ فكانت هذه الدار لهم مطلع خير ومجمع يمن وسعادة ، ومن ثم نراهم مستمسكين بوحدتهم متجنبين كل ما يوهنها ويضعفها .

أثر البيئة السياسية :

من شأن هذه البيئة أن تجعل نابتتها يحرصون على واجبهم ويسمعون لرؤسائهم ، وينتصحون بآرائهم ، يعرفون مبدأ الشورى ويخضعون لرأى الجماعة ، كما أنها باعدت بينهم وبين الأثرة والاستبداد والحكم الفردى ، فكانوا يكلون الأمور لذويها ، والمصالح لمن يضطلع بها ويمكنه صيانتها ، والقيام عليها .

شحذت هذه البيئات الاجتماعية أذهان أهل مكة وسهلت أخلاقهم ، ونشّأتهم على حب الواجب ، والنصفة لأنفسهم ولغيرهم ، وظهر أثر ذلك فى كثير من أحوالهم . فإذا قارنا بين حالتهم قبل « قصى » وبين حالتهم قبيل الإسلام ظهر الفرق واضحاً جلياً ؛ فقد انتقلوا من جماعات متبدية متفرقة لا علم لهم بما وراء إبلهم إلى قوم متحضرين لهم كثير من الأمور التى تشبه أحوال الناس ؛ ولا أدل على ذلك من حِلف الفضول الذى تداعت فيه قبائل من قريش ، وتعاقدت على ألا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها أو من غير أهلها إلا نصروه ، وهو الحلف الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو دعى به فى الإسلام لأجبت[1] » ، وكذلك قيام أفراد منهم

---

(١) وفيه يقول الزبير بن عبد المطلب :

إن الفضول تحالفوا وتعاقدوا ... ألا يقيم ببطن مكة ظالم
أمر عليه تعاهدوا وتواثقوا ... فالجار والمعتر فيهم سالم

سيرة ابن هشام ج ١ ص ٩٠ ، السهيلى ج ١ ص ٩١ وذكر مثله ابن خلدون فى تاريخه ج ٢ ص ٣ .

ينكرون على قومهم تركهم لدين أبيهم إبراهيم ، ويرثون لحالتهم ، وما صاروا إليه من وثنية وشرك ، وتعظيم للأحجار والأصنام[١] .

ولعمرى إن ذلك لبمثابة إيذان من الله بظهور دينه وإعلام منه بأن الوقت قد آن لبعثة خاتم المرسلين ، ومصطفى رب العالمين بالهداية والنور « هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِينِ كُلِّهِ » .

وهكذا لم يعوز قريشاً لأن تظهر فى التاريخ ، وتسود العالم زمناً طويلا ، وتحمل راية العدل والعرفان أحقابا من الزمان إلا من يحكم ألفتها ، ويجمع قلوب العرب حولها ، ويجعلهم رهن إشارته ، وطوع أمره ؛ فكان إرسال النبى صلى الله عليه وسلم وظهوره فيهم جابرا لهذا النقص ، ومظهراً لما كمن فيهم من مواهب واستعدادات ظهر أثرها فى الإسلام بتلك الفتوحات العظيمة ، والأعمال الجليلة التى سنذكر طرفاً منها فيما سيأتى :

قبيلته :

بنو مخزوم بطن من بطون قريش كانت إليهم القبة والأعنة[٢] من مظاهر الشرف فى قومهم وقد كان لهم وحدهم ثلاثون فرسا فى غزوة بدر من مائة فرس خرجت بها قريش[٣] وكان فيهم العدد الكثير من ذوى العقول الراجحة الذين توازى أحلامهم الجبال أمثال المغيرة بن عبد الله بن عمر المعروف بالجود وأبى وهب ابن عمرو الذى أدرك أن الكعبة — وهى بيت الله ، وفيها يذكر اسمه — لا يليق أن يدخل فى بنائها ما ليس بالكسب الحلال ، فأشار على قومه — حين عزموا على بنائها — قائلا : « يامعشر قريش لا تدخلوا فى بنائها من كسبكم إلا طيباً ، لايدخل

---

(١) سيرة هشام ج ١ ص ١٤٠

(٢) سيأتى بيان ذلك تحت عنوان : « خالد ومظاهر الشرف فى قريش » .

(٣) مغازى الواقدى ص ٣٢ ، أنساب الأشراف ج ١ ص ١٣٦ .

فيه مهر بغى ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس »[١] وهو خال أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان شريفاً عظيما ، وله يقول الشاعر :

ولو بأبى وهب أنخت مطيتى غدت من نداه رحلها غير خائب
أبى لأخذ الضيم يرتاح للندى توسط جداه فروع الأطايب[٢]

ويتجلى شرف بنى مخزوم ومكانتهم فى قريش واضحا جليا حينما أرادت قريش بناء الكعبة فجزأتها بين قبائلها ؛ فكان ربعها الذى بين الركنين : الأسود واليمانى من نصيب بنى مخزوم . وهذا والله هو السؤدد ونهاية الشرف[٣] .

وقد بلغ من شرفهم ، ورفيع منزلتهم فى قريش أنهم كثيرا ما كانوا ينازعون بنى هاشم — وهم ماهم فى قريش — السيادة والشرف . والناظر إلى ما كان يلهج به كبراؤهم يتبين له ذلك بجلاء ووضوح . وحسبنا مقالة أبى جهل حسداً لبنى هاشم أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم منهم دون بنى مخزوم إذ يقول : « فلما أطعمنا الطعام وأطعمتم (يعنى بنى هاشم) وازدحمت الركب ، واستبقنا المجد فكنا كفرسى رهان قلتم منا نبى »[٤] .

أليس منهم « زهير » الذى لم تطب نفسه أن يحصر بنو هاشم والمطلب فى شعب أبى طالب وأن يتركوا ليموتوا جوعاً ؛ فدعاه داعى الإنسانية فلبى مسرعاً ، واستحثته أريحيته أن يكون أول من يبدأ قريشاً الكلام فى نقض الصحيفة الجائرة الظالمة[٥] .

---

(١) قال فى الروض الأنف : « وهذا يدل على أن الربا والظلم والبغاء كان محرماً عليهم يعلمون ذلك ببقية من بقايا شرع إبراهيم عليه السلام » ج ١ ص ١٣١ .

(٢) وهو أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم — سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٣١ ، الطبرى ٢ ص ٢٠٠ .

(٣) اليعقوبى ج ٢ ص ١٨ ، ابن هشام ج ١ ص ١٣١ ، الطبرى ج ٢ ص ٢٠٠ غير أن الطبرى وابن هشام لم يجعلا هذا الركن خالصاً لبنى مخزوم وحدهم بل شاركهم فيه غيرهم من القبائل .

(٤) المغازى للواقدى ص ٢٣ .

(٥) وذلك حين تحالفت عليهم بطون قريش وقاطعتهم وكتبت بذلك صحيفة علقتها على الكعبة توكيداً على أنفسهم ، فكان زهير بن أبى أمية بن المغيرة أول من بدأ قريشاً الكلام فى نقضها ، الطبرى ج ٢ ص ٢٢٨ ، ابن هشام ج ١ ص ٢٣٢ .

وأخو بنى مخزوم هو الذى ندبته قريش زميلاً لعمرو بن العاص للوفادة على النجاشى فى إرجاع من هاجر إلى الحبشة من المسلمين إلى قومهم . وإن ندب قريش له فى مثل موقفها من المسلمين لدليل على أن الفتى المخزومى يحسن الوفادة على الملوك ومفاوضتهم ، وهو كفء للاضطلاع بمثل هذا الأمر الخطير جداً فى نظرها[١] .

ومما يشعرنا بسمو مركزهم فى قريش أن أواصر المصاهرة كانت متبادلة بينهم وبين بنى هاشم — وهم سادة قريش وأشرافها — ، فمن ذلك أن عاتكة بنت عبد المطلب كانت تحت أبى أُميَّة بن المغيرة وأنجبت منه زهير بن أبى أمية الذى بدأ قريشا بنقض الصحيفة الظالمة كما ذكرنا ، كما أنهم آل فاطمة بنت عمرو بن عائذ المخزومية أم عبد الله بن عبد المطلب[٢] والد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فهم أخوال أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصهار عظيم قريش ، وسيدها عبد المطلب بن هاشم . ويكفيهم شرفاً وفخراً أن النبى صلى الله عليه وسلم أصهر إليهم ، فتزوَّج منهم أم سلمة هند بنت أبى أمية[٣] .

وكما كان بنو مخزوم على جانب كبير من الجاه والشرف فى قومهم كانوا كذلك من أهل الثراء والأموال فى قريش ، يدل لذلك ما حكاه الواقدى فى أثناء كلامه عن عير قريش وغزوة بدر بقوله : « ويقال كان لبنى مخزوم فيها مائتا بعير وخمسة أو أربعة آلاف مثقال ذهب » . وما ذكره البلاذرى وغيره إذ يقول : « وكان مع المشركين مائة فرس فى بنى مخزوم منها ثلاثون[٤] »

---

(١) سواء أكان الرسول مع عمرو بن العاص هو عمارة بن الوليد أخو خالد بن الوليد ، أم عبد الله ابن أبى ربيعة فهو على كلا الروايتين مخزومى . وسيأتى عند الكلام على أخوة خالد تفصيل لذلك .

(٢) وهى أيضاً أم عبد الله وأبى طالب والزبير وجميع بنات عبد المطلب سوى صفية — ابن هشام ج ١ ص ٧٨ ، الطبرى ج ٢ ص ١٧٣ ، ابن الأثير ج ٢ ص ٢ .

(٣) أنساب الأشراف ج ٢ ص ٢٠٧ ، الطبرى ج ٣ ص ١٧٧ .

(٤) ج ١ ص ١٣٦ . المغازى للواقدى ص ٣٢ ، وأنساب الأشراف ج ٢ ص ١٣٦

ولقد كان منهم الكثير من السابقين للإسلام الفارّين بدينهم ابتغاء مرضاة الله فهاجر منهم إلى الحبشة ثمانية نفر[١] ، وحسبهم أن يكون منهم أبوسلمة بن عبد الأسد والأرقم[٢] بن أبى الأرقم ؛ فقد كان أبو سلمة من السابقين للإسلام ، وفى طليعة المهاجرين للحبشة ، كما كان أول المسلمين هجرة للمدينة ، وكانت دار الأرقم المسجد الأول لجماعة المسلمين يعبدون الله فيها خفية ، وفيها يجتمعون ، وإليها يلجأون .

أليس منهم ثلاثة عذبوا فى الله ودعا لهم النبى صلى الله عليه وسلم فى قنوته[٣] .

والناظر إلى الشكلين رقم ٣ ، ٤ يتبين له مقدار حظهم من الرجال العظماء وأن نصيبهم من علية القوم كان موفوراً غير منقوص . « وما زال منهم جماعة بصعيد مصر بالأشمونين وفيهم بأس وشدة »[٤]

---

(١) وهم أبو سلمة وامرأته ، وشماس بن عبد ، وهبار بن سفيان ، وأخوه عبد الله ، وهشام ابن أبى حذيفة ، وسلمة بن هشام ، وعياش بن أبى ربيعة — ابن هشام ج ١ ص ٢٠٦ .

(٢) كان أبو سلمة عاشر تسعة سبقوا للاسلام كما كان الأرقم الثانى عشر إسلاما على ما رواه ابن هشام ج ١ ص ١٦٥ وابن الأثير فى أسد الغابة ج ١ ص ٦٠ وسابع سبعة على ما رواه ابن سعد ج ٣ س ١٧٣ والطبرى ج ٢ ص ٢٢٢ ، ٢٤٢ ، أنساب القرشيين ج ١ ص ٧

ودار الأرقم خلف الصفافى سفح أبى قبيس فى زقاق غير متسع وهى موجودة للآن وكانت فى أيام الأتراك مكتباً لتعليم الأطفال واليوم يسكنها أحد النجديين كما أخبرنا بذلك أستاذنا المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار وهى أثر له خطره وقيمته فحبذا لو عرف ذلك المسلمون فنحوها من التعظيم والقداسة ما تستحقه .

(٣) أسد الغابة ج ٢ ص ٣٤١ ، ج ٤ ص ١٦١ .

(٤) صبح الأعشى ج ١ ص ٣٥٥ .

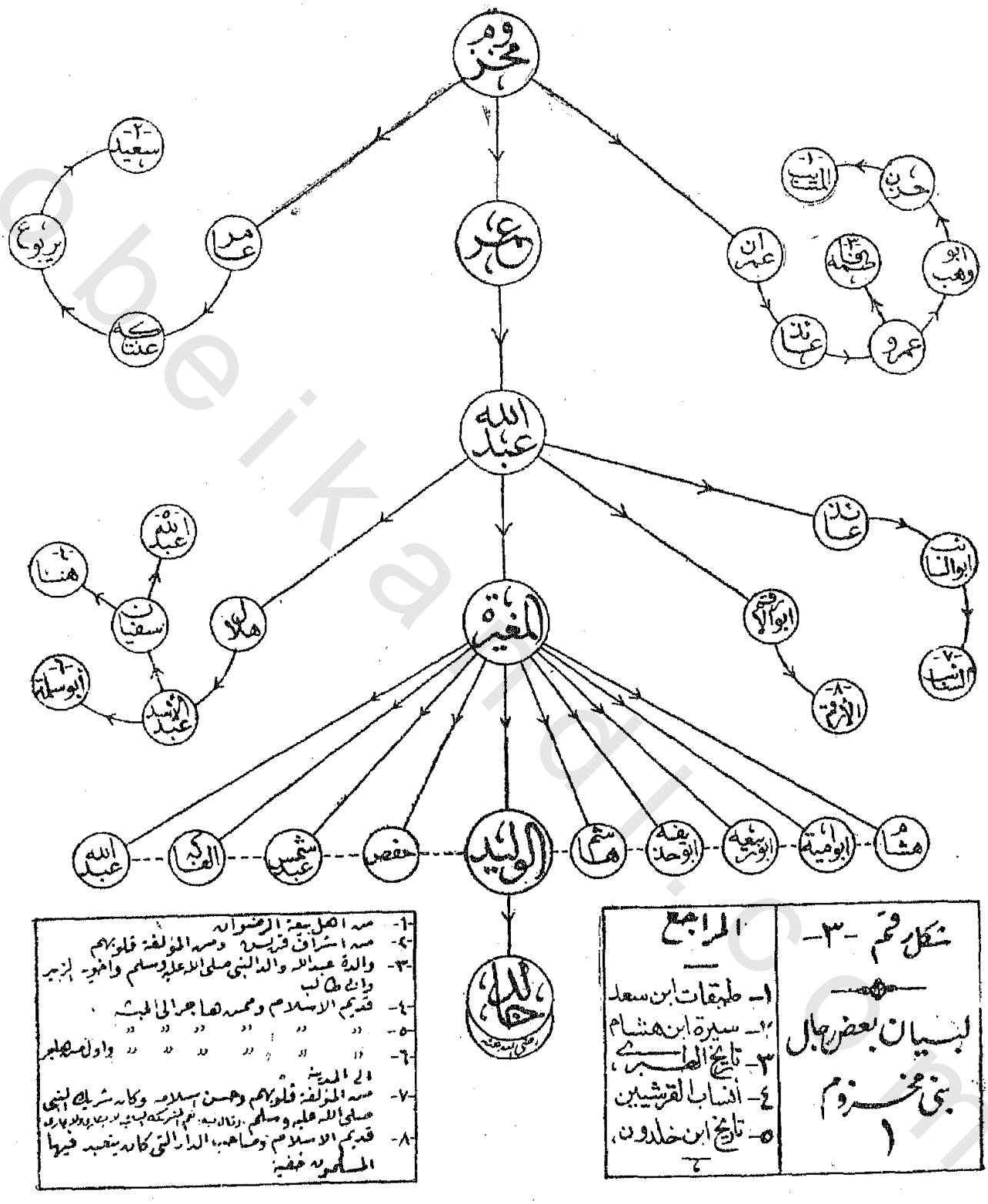

-١- من أهل بيعة الرضوان
-٢- من أشراف قريش ومن المؤلفة قلوبهم
-٣- والدة عبد الله والد النبي صلى الله عليه وسلم وأخوي الزبير وأبي طالب
-٤- قديم الإسلام وممن هاجر إلى الحبشة
-٥- " " " " " "
-٦- " " " " " " وأول من هاجر إلى المدينة
-٧- من المؤلفة قلوبهم وحسن إسلامه وكان شريك النبي صلى الله عليه وسلم وقال فيه: نعم الشريك لا يداري ولا يماري
-٨- قديم الإسلام وصاحب الدار التي كان يختبئ فيها المسلمون خفية

شكل رقم -٣-

لبيان بعض رجال بني مخزوم

١

المراجع

١- طبقات ابن سعد
٢- سيرة ابن هشام
٣- تاريخ الطبري
٤- أنساب القرشيين
٥- تاريخ ابن خلدون

وقد يكون من الحسن بعد أن ذكرنا كلمة مجملة عن قبيلته وما كان لها من شرف ورفعة في قريش أن نخص عمومته بكلمة تبين ما كان لهم من سيادة ومنزلة في قومهم .

عمومة خالد :

كان لعمومته فى قريش منزلة أى منزلة . كانوا فى طليعة قومهم مجداً وشرفا ، وكرما وثراء .

فكان أبو أمية بن المغيرة صاحب الفضل فى حسم الخلاف الذى نشأ بين قبائل قريش حينما اختلفت على وضع الحجر الأسود وهى تبنى الكعبة ، وأرادت كل قبيلة أن تكون صاحبة الفضل والشرف وحدها فى وضعه ، وغدت الحرب بينهم قاب قوسين أو أدنى ، فأشار عليهم — وكان أسنهم — بأن يرتضوا حكما بينهم أول داخل من باب المسجد[١] ، كما كان معروفا بزاد الراكب ، لايتزود من رافقه في سفره ، ولا تعرف قريش زاد الركب إلا إياه لفرط جوده وكرمه[٢] . ومات قبل أن يدرك الإسلام ، وقد رثاه أبو طالب بأبيات منها : —

ألا إن زاد الركب غير مدافع بسرو سحيم غيبته المقابر[٣]

ورثاه أبو أحيحة بقوله : —

ألا هلك الماجد الرافد وكل قريش له حامد

ومن هو عصمة أيتامنا وغيث إذا فقد الراعد[٤]

ولقد بلغ من كرمهم وجودهم أن الفاكه بن المغيرة كان له بيت للضيافة يغشاه الناس من غير إذنه[٥] .

---

(١) كان لحسن حظ قريش أن كان أول داخل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ابن هشام جزء ١ ص ١٣٢ ، الطبرى جزء ٢ ص ٢٨١ ، ابن الأثير جزء ٢ ص ٢٩ ، ابن خلدون جزء ٢ ص ٥ .

(٢) أسد الغابة ج ٣ ص ١١٨ ، المنتخب من ذيل المذيل للطبرى ص ٤١ ، القاموس المحيط مادة زود ، وبلوغ الأرب للآلوسى جزء ٣ ص ٤١٥ ، وذكر فى صبح الأعشى أن زاد الراكب هو أبوه المغيرة بن عبد الله — ج ١ ص ٤٥١ .

(٣) سرو سحيم — هى البلدة التى مات فيها أبو أمية حين خرج بتجارة إلى الشام — بلوغ الأرب الآلوسى ج ٣ ص ٢١٥ .

(٤) السيرة الحلبية ج ١ ص ١٦١ .

(٥) وللفاكه هذا حادثة طريفة مع زوجته وقد وجدها نائمة فى بيت الضيافة ذكرها صبح الأعشى ج ١ ص ٣٩٨ ، الأغانى ج ٩ ص ٥٣ .

وكان أبو حذيفة بن المغيرة المخزومى — حين ارتضت قريش التحكيم فى وضع الحجر الأسود — أحد الأربعة[١] الذين أخذوا بطرف من الرداء الذى جعل فيه النبى صلى الله عليه وسلم الحجر الأسود فوضعه فى مكانه .

كما كان هشام بن المغيرة من سادات قريش وأشرافها وهو قائد بنى مخزوم فى حرب الفجار ، وكان يقال له فارس البطحاء ، وكان مهيبا عظيما حزنت عليه كل بطون قريش حين مات ، وعدوا موته خطبا ذا بال ؛ فقد ذكر المقدسى : « أن هشاما لما مات لم يقم سوق بمكة ثلاثا ، وأن قريشا إنما كانت تؤرخ بعد موت هشام من موته[٢] وهو الذى يعنيه الشاعر بقوله :

وأصبح بطن مكة مقشعراً كأن الأرض ليس بها هشام[٣]

وهذا وأبيك نهاية الشرف وغاية المجد (انظر الشكل رقم ٤)

---

(١) الأربعة هم : عتبة بن ربيعة بن عبد شمس . والأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى وأبو حذيفة بن المغيرة بن عمر بن مخزوم ، وقيس بن عدى السهمى — اليعقوبى جزء ٢ ص ١٩ ، ابن خلدون ص ٤ من بقيه الجزء الثانى ، مروج الذهب للمسعودى جزء ٢ ص ٣٩٧

(٢) أنساب القرشيين للمقدسى جزء ٢ ص ٣٤٨ :

(٣) بلوغ الأرب للآلوسى جزء ٣ ص ٢١٥ .

شكل رقم -٤-
لبيان أعمام خالد وبعض من أبناء عمومته

المراجع
١- مغازي الواقدي
٢- طبقات ابن سعد
٣- سيرة ابن هشام
٤- تاريخ الطبري
٥- تاريخ ابن خلدون
٦- فتوح البلدان للبلاذري

انظر الصفحة التالية

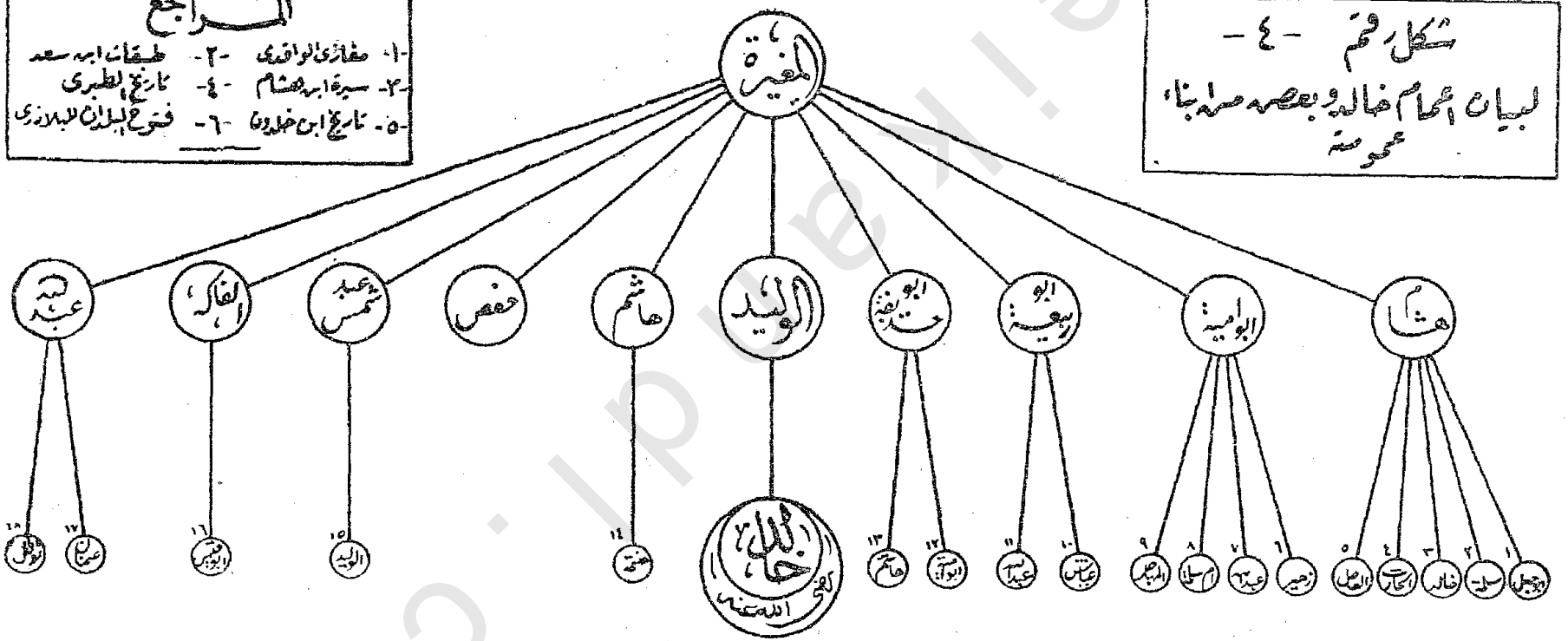

إخوة خالد :

اختلف المؤرخون فى عدد إخوته ؛ فمنهم من قال عشرة[1] ومنهم من قال ثلاثة عشر ، ومنهم من قال ستة من الذكور . ومهما يكن أمر هذا الاختلاف فصريح القرآن (وبنين شهودا) أن له إخوة عدة ، وأنهم كانوا مترفين ، وفى سعة من

تعريف بالأسماء الواردة بالشكل رقم (٤)

(١) من أشراف قريش ، وكبار المعاندين للنبى صلى الله عليه وسلم ، ووالد عكرمة الصحابى الجليل والقائد المعروف .

(٢) قديم الإسلام وهاجر إلى الحبشة ، وممن دعا لهم النبى صلى الله عليه وسلم فى قنوته واستشهد بمرج الصفر .

(٣) من المؤلفة ، قلوبهم ، وأعطاه النبى صلى الله عليه وسلم من غنائم هوزان .

(٤) أسلم وحسن إسلامه ، وفيه يقول الشاعر :

أولى قريش بالمكارم والندى فى الجاهلية كان والإسلام

(٥) من أشراف قريش ، وقتله عمر بن الخطاب يوم بدر كافراً .

(٦) أول من بدأ قريشاً الكلام فى نقض الصحيفة .

(٧) صهر النبى صلى الله عليه وسلم .

(٨) أم سلمة أم المؤمنين زوج النبى صلى الله عليه وسلم .

(٩) أرسله النبى صلى الله عليه وسلم أميراً على صنعاء ، وعقد له أبو بكر لواء فى حروب الردة لمحاربة الأسود العنسى .

(١٠) قديم الإسلام أسلم قبل أن يجتمع المسلمون فى دار الأرقم ، وهاجر إلى الحبشة فى الهجرة الثانية وممن دعا لهم النبى صلى الله عليه وسلم فى قنوته .

(١١) صحابى جليل واستشهد يوم الطائف .

(١٢) من أشراف قريش ، وقتل يوم بدر كافراً .

(١٣) قديم الإسلام ، وهاجر إلى الحبشة فى الهجرة الثانية .

(١٤) والدة عمر بن الخطاب .

(١٥) استشهد باليمامة .

(١٦) من أشراف قريش ، وقتله سيدنا حمزة ببدر كافراً ، وقد كان أسلم ثم فتن عن دينه .

(١٧) كان فى عير ابن الحضرمى وأسره المسلمون .

(١٨) اقتحم الخندق فرماه المسلمون بالحجارة ، ونزل إليه على بن أبى طالب فقتله .

ملاحظة : قد ذكرنا نبذة عن أعمامه فى الترجمة الخاصة بهم تغنينا عن التعريف بهم هنا .

(١) ممن قال بذلك فخر الدين الرازى فى تفسيره جزء ٨ ص ١٧٨ .

العيش ، ورفاهة الحال ، ينعم والدهم برؤيتهم . ويبدو لنا أن من قال بأنهم ستة ذكور أقرب إلى الواقع ؛ لأننا بعد البحث فى الغزوات وتتبع الحوادث التى تقدمت الإسلام والتى جاءت بعده لم نعثر على أكثر من هذا العدد . وهاك أسماءهم ونبذة عن كل واحد منهم :

(١) العاص . (٢) أبو قيس . (٣) عبد شمس .
(٤) عمارة . (٥) هشام . (٦) الوليد

وهم إخوة خالد الذكور ، وفاطمة وفاختة . وهما أختاه من الإناث .

ويظهر أن العاص مات صغيراً قبل أن ينبه ذكره وقبل أن يجىء الإسلام ، وأبو قيس كان قد أسلم ثم فتن عن دينه ، وقتل كافراً ببدر قتله حمزة وقيل على ، وفيه وفى مثله نزل قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ[١] » .

وعبد شمس هو الذى كان يكنى به والده الوليد بن المغيرة .

وعمارة هو الذى أرسلته قريش مع عمرو بن العاص لنجاشى الحبشة لرد من هاجر إليه من المسلمين ، وهو أنهد فتى فى قريش ؛ ولذا فأنها حينما أرادت الخلاص من رسول الله صلى الله عليه وسلم مشت به إلى أبى طالب وقالت له : « هذا أنهد فتى فى قريش وأشعره وأجمله فخذه فلك عقله . . . »[٢] .

وهو اعتراف صريح من قريش بأن ابن الوليد له مزايا انفرد بها ومن أجلها رأوه أهلاً لأن يكون عدلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن يكون رسولهم للنجاشى لرد من هاجر إليه من قومهم[٣] .

---

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ٧٥ ، ١٠٣ ، ابن خلدون ص ٢١ من بقية الجزء الثانى

(٢) الطبرى ج ٢ ص ٢٢٠ ، ابن هشام ج ١ ص ١٧١ .

(٣) لا يعارض هذا ما فى بعض كتب التاريخ والسير (مثل رواية الطبرى فى تاريخه ج ٢ ص ٢٢٥) من أن الرسول مع عمرو هو عبد الله بن أبى ربيعة ؛ لأن ذهاب عمرو إلى الحبشة تكرر وكان عمارة معه فى إحدى المرات كما يتضح من التحقيق الذى رآه صاحب السيرة الحلبية ج ١ ص ٣٢٢ ، ج ٢ ص ٢٦٦ وممن ذكر أن الرسول مع عمرو هو عمارة صاحب الأغانى ج ٣ ص ٣٤ واليعقوبى ج ٢ ص ٢٨ والروض الأنف ج ١ ص ١٧١ .

وقد أسلم أخواه الوليد وهشام ، وكان هشام فى بدئه من المؤلفة قلوبهم ، والوليد كان من المستضعفين، وفر بدينه إلى المدينة ، فدميت أصبعه من المشى فقال :

هل أنت إلا أصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت

وهو أقدم إسلاماً من أخويه خالد وهشام ، ومن الذين كان يدعو لهم النبى صلى الله عليه وسلم فى قنوته ، وكان محبباً إليه ، كما كانت له اليد الطولى فى إسلام أخيه خالد وهجرته .

وأخته فاطمة أسلمت يوم الفتح وبايعت النبى صلى الله عليه وسلم ، وهى زوج الحارث بن هشام المخزومى ، وأما فاختة فكانت تحت صفوان بن أمية ، وأسلمت قبله بشهر [١] (انظر الشكل رقم ٥) .

والدته :

هى لبابة الصغرى عصماء بنت الحارث بن حزن بن بجير بن الهزم بن رويبة ابن عبد الله بن هلال بن عامر بن صعصعة يتصل نسبها بقيس عيلان بن مضر (انظر الشكل رقم ٢) . وفى إسلامها وصحبتها نظر ، وصحح صاحب الإصابة إسلامها بناء على أنها عاشت إلى زمن عمر ، وندبت [٢] ابنها خالداً وأيده فى ذلك بعض المؤرخين كالطبرى فى المنتخب من ذيل المذيل [٣] . وكان لها أخوات ثمان وهن : —

١ — ميمونة بنت الحارث زوج النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فلخالد خالة هى إحدى أمهات المؤمنين .

٢ — أم الفضل لبابة الكبرى بنت الحارث زوج العباس بن عبد المطلب التى يقال إنها أول امرأة أسلمت بعد خديجة [٤] ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم فيما

---

(١) الاستيعاب ج ٢ ص ٧٧٥ ، ٧٧٦ ، الطبرى ح ٣ ص ١٠ ، ١٢٢ .
(٢) ندب الميت : بكى عليه وعدد محاسنه
(٣) الإصابة ج ٨ ص ١٧٨ ، المنتخب ص ١١٤
(٤) المنتخب من ذيل المذيل ص ١١٣ والإصابة ج ٨ ص ٢٦٦ . والاستيعاب ج ٢ ص ٧٨

شكل رقم -٥-
لبيان إخوة خالد

obeikandl.com

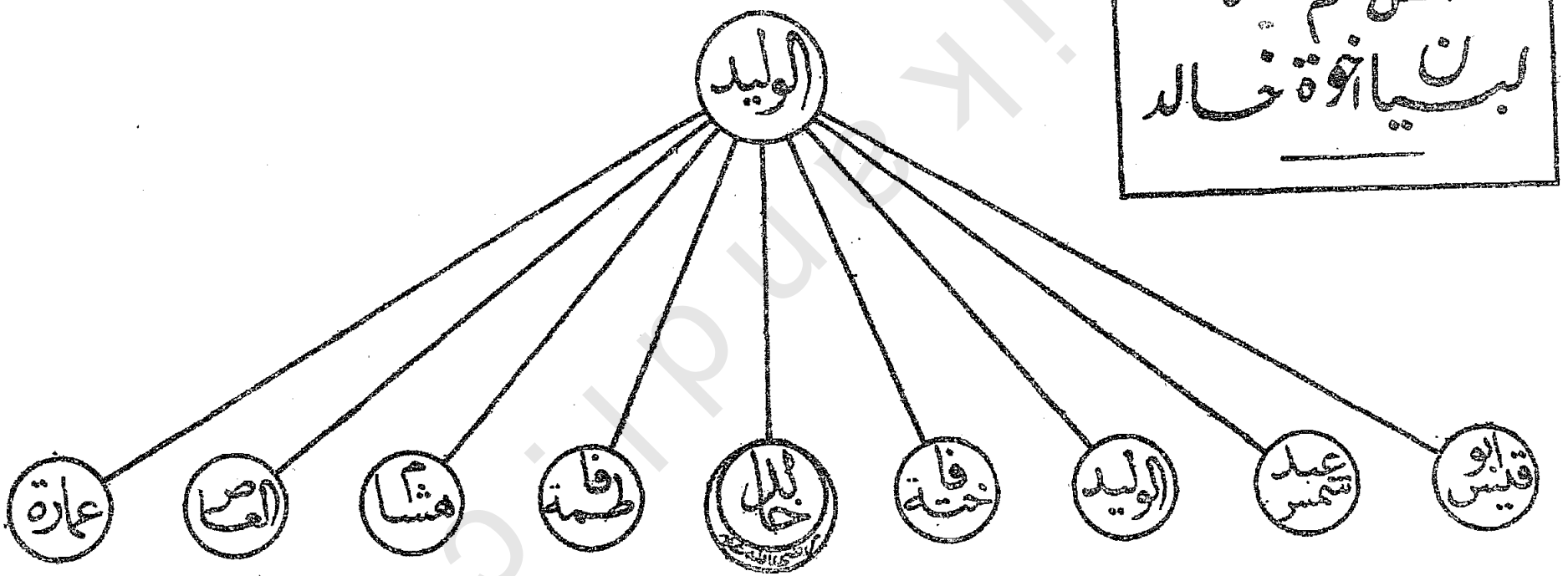

ذكر يزورها ويقيل فى بيتها ، وقد أنجبت فلم تلد امرأة مثلها . ومن ثم قال فيها الشاعر :

ماولدت نجيبة[1] من فحل بجبل نعلمه أو سهل
كستة من بطن أم الفضل أكرم بها من كهلة وكهل

فأولاد العباس من لبابة أبناء خالة خالد بن الوليد .

٣ — عصماء بنت الحارث زوج أبى بن خلف الجمحى وولدت له أبانا وغيره .

٤ — عزة بنت الحارث زوج زياد بن عبد الله بن مالك الهلالى . والظاهر أنها لم تدرك الإسلام . قال ابن عبد البر : « لم أر أحداً ذكرها فى الصحابة وأظنها لم تدرك الإسلام » .

٥ — هزيلة بنت الحارث تزوجت فى الأعراب ، وهى التى أهدت إلى أختها ميمونة الضِّباب والأقط والسمن .

٦ — أسماء بنت عميس كانت تحت جعفر بن أبى طالب ، ثم خلف عليها أبو بكر الصديق ، ثم خلف عليها على بن أبى طالب .

٧ — سلمى بنت عميس كانت تحت حمزة بن عبد المطلب ، ثم خلف عليها بعده شداد بن أسامة بن الهاد الليثى .

٨ — سلامة بنت عميس كانت تحت عبد الله بن كعب بن منبه الخثعمى .

فهن ست أخوات لأب وأم ، وتسع أخوات لأم ، وفيهن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الأخوات مؤمنات » وأخوهن لأمهن محمية بن جزء بن عبد يغوث الزبيدى حليف بنى سهم « وكان قديم الإسلام وهاجر إلى الحبشة وكان عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأخماس » واستوهب النبى صلى الله عليه وسلم من أبى قتادة جارية وضيئة ثم وهبها له وذكر الكلبى : أنه شهد بدراً ، وقال الواقدى : أول مشاهده المريسيع[2] .

---

(١) رواية المنتخب من ذيل المذيل هكذا : ماولدت بختية من فحل — ص ١١٣

(٢) الإصابة جـ ٦ ص ٦٧ ، الطبرى جـ ٣ ص ١٠٦ .

وأمهن كلهن هند بنت عوف بن زهير بن الحارث بن حماطة الحميرية أو الكنانية[١] التى قيل عنها : « إنها أكرم الناس أصهاراً » والناظر إلى الشكلين رقم ٢ ، ٦ يدرك بجلاء ما لأمه من شرف ونسب ؛ فهى تنتسب إلى قبيلة من أعرق القبائل المضرية وأكبرها ، وقوانين الوراثة تحكم بأن من له مثل هذا النسب والحسب لابد أن يكون له أثر فى بنيه ومظهر فى أخلاق ذريته (انظر شكل رقم ٦)

والده :

هو أبو عبد شمس الوليد بن المغيرة المخزومى صاحب العقل الراجح ، والمنطق الفصيح ، والشرف الرفيع ، والجاه العريض ، ريحانة قريش وسريها ؛ يدل لعقله وعظيم شرفه أنه كان أحد حكام قريش فى الجاهلية ، وثالث ثلاثة احتبى كل واحد منهم بفناء الكعبة وادعى الرياسة بعد موت عبد المطلب[٢] وممن حرم على نفسه الخمر قبل الإسلام ، وأول من قطع فى السرقة وجاء الإسلام بتقريره[٣]

هو عدل[٤] قريش كان يكسو الكعبة وحده عاماً وقريش بأسرها تكسوها عاماً . وهو الذى كان يطعم الناس فى منى ، وينهى أن توقد نار غير ناره للاطعام ، وهو الذى كان يوسع النفقة على الحجيج ويأتيه المدح والثناء من الأعراب هو صاحب المال الممدود الذى قدر بإثنى عشر ألف دينار فصاعداً[٥] . هو صاحب

---

(١) الاستيعاب جـ ٢ ص ٧٨ ، أنساب الأشراف جـ ١ ص ٢١٤ .

(٢) اليعقوبى جـ ١ ص ٣٠٠ ، جـ ٢ ص ١٣ .

(٣) السهيلى جـ ١ ص ٢٨٣ ، بل قال فى صبح الأعشى : أنه أول من حرم الخمر فى الجاهلية جـ ١ ص ٤٣٥ ، الاستيعاب جـ ٣ ص ١٠٣ فى أثناء كلامه عن العباس بن مرداس .

(٤) وقال صاحب أنساب الأشراف : » وإنما سمى العدل لأنه يقال أنه يعدل قريشاً كلها ، ويقال إن قريشاً كانت تكسو الكعبة فيكسوها مثل ما تكسوها كلها » جـ ١ ص ٦٠ ، السيرة الحلبية جـ ١ ص ٣٤٧ .

(٥) راجع تفسير قوله تعالى : «وجعلت له مالا ممدوداً » ، والسهيلى جـ١ ص ١٧٣ .

شكل رقم -١-

وهو يبين خال خالد وخالاته الأشقاء وخالاته لأم

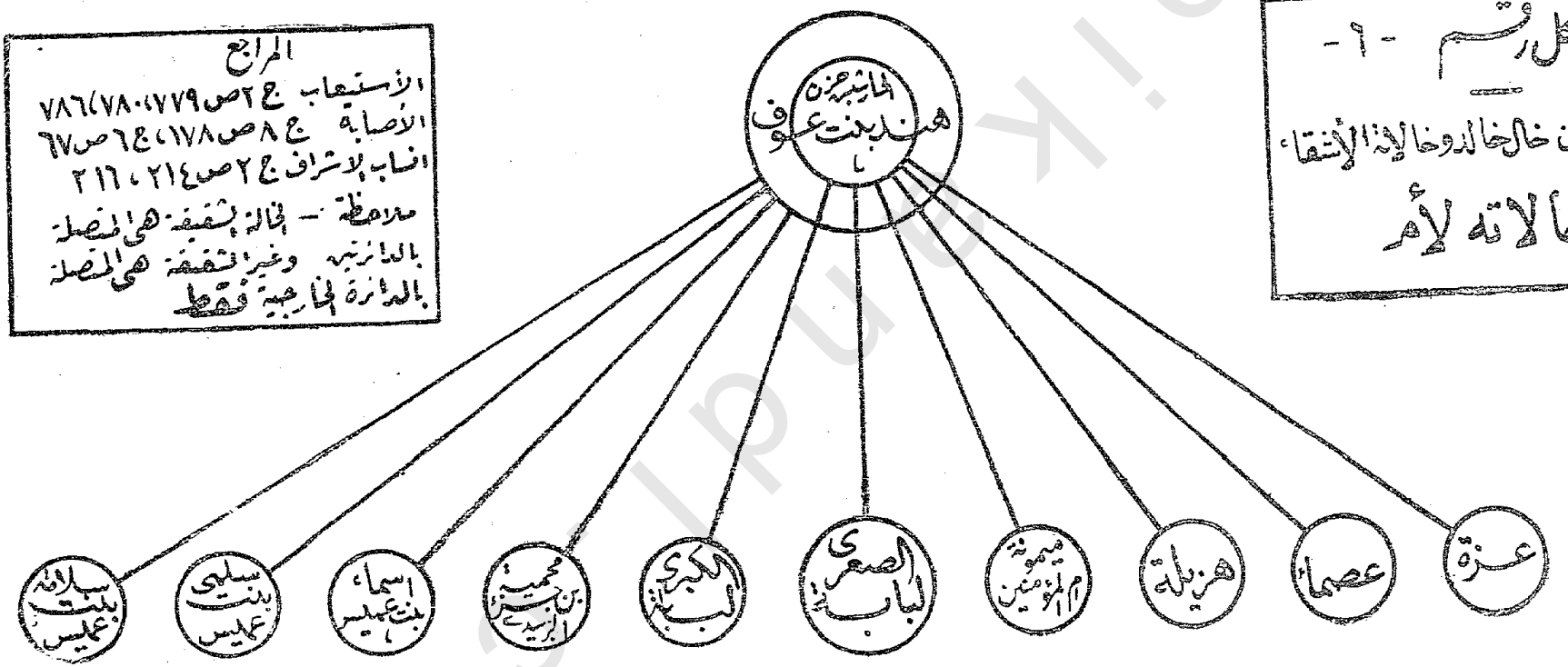

المراجع

الاستيعاب ج ٢ ص ٧٧٩، ٧٨٠، ٧٨٦

الإصابة ج ٨ ص ١٧٨، ج ٦ ص ٦٧

أنساب الأشراف ج ٢ ص ٢١٤، ٢١٦

ملاحظة — الخالة الشقيقة هي المتصلة بالدائرتين وغير الشقيقة هي المتصلة بالدائرة الخارجية فقط

البساتين التى كانت تمتد من مكة إلى الطائف والتى منها مالا ينقطع ثمره طول العام[١] هو الذى قوّمت شِكته بمائة دينار وكانت درعاً فضفاضة وسيفاً و بيضة[٢]

هو الذى بلغ من عزيمته أنه حينما أرادت قريش بناء الكعبة وتهيبت جميعها هدمها أخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول : « اللهم لم ترع اللهم لا نريد إلا الخير[٣] وكان شديد التمسك بمعتقده متفانياً فى تعظيم الكعبة . يدل لذلك أنه كان لا يدخلها منتعلا بل قيل إنه أول من خلع نعليه عند دخولها[٤] ، ولعل تحمسه لدينه ، وتشدده فيه كان من أهم الأسباب التى جعلته يقف فى وجه الإسلام ، ويناوئ صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم ؛ ولذا فإنا نراه فى طليعة أشراف قريش وعظمائها الذين مشوا إلى أبى طالب يطلبون منه أن يكف ابن أخيه صلى الله عليه وسلم عن تسفيه أحلامهم ، وعيب آلهتهم .

هو الشخص الذى كان الرسول صلى الله عليه وسلم حريصاً جد الحرص على إسلامه ، وكان يرى أن فى إسلامه عزاً للإسلام ؛ حتى لقد بلغ من حرصه على إسلامه أنه لم يلتفت إلى ابن أم مكتوم حين جاءه طالباً أن يعلمه الأمر الذى أدى إلى عتاب الله له بقوله : « عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى »

هو الذى نزل فى جواره عثمان بن مظعون الجمحي حين رجع من الحبشة إلى مكة فغدا فى مأمن من إيذاء قريش ؛ لأنه فى جوار الوليد العظيم فيها . وقال فيه حين رد عليه جواره رضى بجوار الله ، « قد وجدته وفياً كريم الجوار » .

---

(١) السيرة الحلبية جـ ١ ص ٣٤٧ ، ولكن أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار استبعد ذلك ونفاه بقوله : « أما بساتين من مكة إلى الطائف فلا توجد إلا فى منام ، والمسافة ليس فيها بساتين اللهم إلا فى جبل كراء وهو على أكثر من مرحلة من مكة ومرتفع جداً » وأستاذنا إنما يذكر ما شاهده فى حجته عام ١٣٤٩ هـ ولكن لا يبعد أن يكون الحال قد تغير بفعل الطبيعة كما أنه ليس بلازم من أن هذه البساتين ممتدة من مكة إلى الطائف أن تكون متصلة لا انقطاع فيها

(٢) أسد الغابة جـ ٥ ص ٩٢ والشكة بالكسر : السلاح .

(٣) الطبرى هم ٢ ص ٢٠١ ، ابن هشام جـ ١ ص ١٣١ .

(٤) صبح الأعشى جـ ٩ ص ٤٢٨ .

ويجلى لنا شرف الوليد وعزه فى قومه ، وأنه لو أسلم لتبعته قريش فى إسلامه أنه لما سمع القرآن مرة وقال فيه : « إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يعلى عليه »[1] اضطربت قريش وقالت : « صبأ والله الوليد لتصبأن قريش كلها » . فأنت ترى أن مجرد اعتراف الوليد بأن القرآن ليس كلاماً عادياً اضطربت له قريش ، وخافت أن يدخل الوليد فى الإسلام فتتبعه قريش وتسلم كلها بأسلامه . وإن رجلا له هذه المكانة ، وتلك المنزلة بين قومه لهو بحق قمين بالشرف والرفعة .

وفى الحق إن الذى يتصف بما ذكرنا ويصف القرآن بما وصفه به الوليد كان يجب أن يكون فى طليعة المصدقين بهذا القرآن الملبين لدعوته ، ولكن ثراءه وجاهه ، وكبرياء قريش وعزها هو الذى حال دون ذلك « فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ » : فقد كان الوليد من ذوى الأسنان والشرف فى قومه ، ومن الخمسة الألى كانوا كبار المعاندين للرسول صلى الله عليه وسلم المستهزئين به . وفيه وفى صحبه نزل قول الله تعالى : « إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ »[2] .

هو الذى كان يسميه قومه « الوحيد[3] » لتفرده فيهم بتلك المزايا التى أسلفنا ومات بعد الهجرة بثلاثة أشهر ، وله من العمر خمس وتسعون سنة ، ودفن بالحجون . وكان سبب موته أنه مر برجل من خزاعة يريش نبلا له فوطىء على سهم منها فخدشه فمات من خدشه هذا ، وأوصى بنيه أن يأخذوا ديته من خزاعة فأعطت خزاعة ديته[4] قال صاحب الهمزية :

وأصاب الوليد خدشة سهم قصرت عنها الحية الرقطاء

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٧٣ ، تفسير البغوى ، وابن كثير ، والطبرى وغيرهم مع اختلاف فى لفظ الرواية .

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٢٥ ، ٢٤٢ .

(٣) أنساب الأشراف ج ١ ص ٦٠ ، السيرة الحلبية ج ١ ص ٣٤٧ .

(٤) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٥٥ ، ابن الأثير ج ٢ ص ٤٨ ، السيرة الحلبية ج ١ ص ٣٤٨ أنساب الأشراف ج ١ ص ٦٠ .

٣ — وقوله جل شأنه : « ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا . . . إلى قوله إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (١) » شهادة من الله بأن الوليد أوتى بسطة فى المال والولد والجاه والحسب .

هكذا ولد خالد بن الوليد من أبوين شريفين بلغا الذروة فى المجد والمكانة السامية بين قومهما ، وشب وترعرع فى تلك البيئة التى تعتبر بحق أرقى وأقوم بيئة فى بلاد العرب فى ذلك الوقت . بيد أنه من بنى مخزوم أهل الشجاعة وقوة الشكيمة وأصحاب القبة والأعنة فى قريش ، فليس غريباً أن ينشأ نسل هذين الأبوين ، وغراس تلك البيئة على خير ما ينشأ عليه الفتيان خطيراً عظيما ، ذا شرف ورفعة ، وعقل وحزم ، وشجاعة و إقدام ، وخبرة بالحروب وأساليبها ، يدون له التاريخ أعظم صفحات المجد والفخار ، والبطولة والانتصار .

مظاهر الشرف فى قريش :

سبق أن قلنا إن قصى بن كلاب غلب خزاعة على مكة وأجلاهم عنها وأنزل قريشاً بها ، ومن ثم صارت له رياسة مكة والبيت الحرام . وكان مظهر هذه الرياسة أموراً ستة :

١ — رياسة دار الندوة (٢) : وهو الذى أنشأها و بناها فى مواجهة الكعبة ،

---

(١) أصح الأقوال فيها أنها نزلت فى الوليد بن المغيرة بل قيل كونها فيه متفق عليه ، أنساب الأشراف ج ١ ص ٦٠ ، أسباب التنزيل للواحدى ص ٣٣٠ ، الروض الأنف ج ١ ص ١٧٣ ، تفسير الفخر الرازى ، وابن كثير والبغوى ، والآلوسى وغيرهم سورة المدثر .

(٢) باعها عكرمة بن عامر بن هاشم بن مناف بن عبد الدار بن قصى من معاوية بن أبى سفيان بمائة ألف ، أسد الغابة ج ٥ ص ٧ لكنه فى الجزء الثانى ص ٤١ قال : إنها كانت فى يد حكيم ابن حزام بن خويلد فباعها من معاوية بمائة ألف درهم فقال له الزبير بعت مكرمة قريش فقال حكيم ذهبت المكارم إلا التقوى وتصدق بثمنها — اهـ وذكر قريباً من هذا فى مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار لابن فضل الله العمرى ج ١ ص ١١٣ طبعة دار الكتب ، فتوح البلدان ص ٥٩ .

وكانت تجتمع فيها مشيخة قريش لتفصل فى مهام أمورها ، وهى أول دار بنيت بمكة من دور قريش .

٢ — اللـواء : كانت قريش لا تعقد راية الحرب إلا بيده .

٣ — حجابة الـكعبة : كان هو الذى يفتح بابها وهو الذى يلى أمرها .

٤ — السقاية : وهى سقاية الحاج فى موسم الحج .

٥ — الرّفادة : وهى عبارة عن خرج كانت تخرجه قريش فى كل موسم من أموالها لِقُصَىّ فيصنع به طعاماً للحاج ؛ فيأكل منه من لم تـكن له سعة ولا زاد .

٦ — القيادة : وكان هو — أو من ينوب عنه — الذى يتولى قيادة الجند فى الحرب .

ولمـا توفى قصى أوصى لابنه عبد الدار بما كان يلى من مراسم قريش والـكعبة فلما توفى عبد الدار وقع الخلاف بين أبنائه ، وبين أبناء أخيه عبد مناف ، فافترقت قريش فرقتين : فرقة تنتصر لبنى عبد مناف وفرقته تنتصر لبنى عبد الدار ؛ فكان من ذلك حلف المطيبين وهو حلف بنى عبد مناف مع حلفائهم ، وحلف الأحلاف أو حلف لعقة الدم وهو حلف بنى عبد الدار مع حلفائهم ، ثم تراضوا وتداعوا على اقتسام هذه المراسم والمفاخر بعد أن كادت الحرب تقع بينهم[1] . ثم صار بعض هذه المفاخر إلى بطون قريش . وإنا نورد هنا ما قاله المؤرّخون[2] تفصيلا لمظاهر الشرف فى قريش ، ونصيب كل قبيلة منها ، وتبياناً لمـا كان يليه خالد من هذه المظاهر ، فقد ذكروا أن مَن انتهى إليه الشرف من قريش فى الجاهلية فوصله بالإسلام عشرة رهط من عشرة أبطن وهم :

« هاشم ، وأمية ، ونوفل ، وعبد الدار ، وأسد ، وتيم ، ومخزوم ، وعدى ،

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٨٧ — ٩٠ ، الطبرى ج ٢ ص ١٨٣ ، ١٨٥ .

(٢) تاريخ ابن عساكر ص ٧٠٤ من المجلد الثالث ، المقدسى ج ٢ ص ٣٣٧ العقد الفريد ج ٢ ص ٣١ أسد الغابة ج ٢ ص ١٠١ ، ابن كثير ج ٥ ص ٣٤٤ وتاريخ الخلفاء للسيوطى طبعة منير ص ٢٢ مع تفاوت فى بعض الألفاظ وقد أثبتنا رواية العقد الفريد فى الأصل لوضوحها وتقدم راويها .

وجمح ، وسهم ؛ فكان من هاشم العباس بن عبد المطلب يسقى الحجيج فى الجاهلية وبقى له ذلك فى الإسلام . ومن بنى أمية أبو سفيان بن حرب كانت عنده العقاب راية قريش ، وإذا كانت عند رجل أخرجها إذا حميت الحرب فإذا اجتمعت قريش على أحد أعطوه العقاب ، وإن لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدّموه . ومن بنى نوفل الحارث بن عامر وكانت إليه الرفادة ؛ وهى ما كانت تخرجه من أموالها وترفد به منقطع الحاج . ومن بنى عبد الدار عثمان بن طلحة كان إليه اللواء والسدانة مع الحجابة ، ويقال والندوة أيضاً فى بنى عبد الدار . ومن بنى أسد يزيد بن زمعة ابن الأسود وكانت إليه المشورة ؛ وذلك أن رؤساء قريش لم يكونوا مجتمعين على أمر حتى يعرضوه عليه فإن وافقه ولاّهم عليه ، وإلا تخير ، وكانوا له أعواناً ، واستشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطائف . ومن تيم أبو بكر الصّديق وكانت إليه الأشناق وهى الديات والمغارم ، فكان إذا احتمل شيئاً فسأل فيه قريشًا صدقوه ، وأمضوا حمالة من نهض معه ، وإن احتملها غيره خذلوه . ومن بنى مخزوم (خالد ابن الوليد) كانت إليه القبة والأعنة ؛ فأما القبة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش ، وأما الأعنة فإنه كان عَلَى خيل قريش فى الحرب . ومن بنى عدى عمر بن الخطاب وكانت إليه السفارة فى الجاهلية ؛ وذلك أنهم كانوا إذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب بعثوه سفيراً ، وإن نافرهم حى للمفاخرة جعلوه منافرا ورضوا به . ومن بنى جمح صفوان بن أمية وكانت إليه الأيسار وهى الأزلام ، فكان لا يسبق بأمر عام حتى يكون هو الذى تسييره على يديه . ومن بنى سهم الحارث بن قيس وكانت إليه الحكومة والأموال المحجرة التى سموها لآلهتهم » .

فهذه مكارم قريش التى كانت فى الجاهلية يتوارثونها كابراً ، عن كابر وهى كما ترى ليست على درجة واحدة من حيث الأهمية ، وظاهر أن أهمها ما كان يتصل بالناحية الروحية التى كانت لهاشم وعبد الدار والناحية العسكرية التى كانت لبنى مخزوم ، وكان كل شرف من شرف الجاهلية أدركه الإسلام وصله لهم .

صناعته :

لم نجد فى كتب التاريخ التى اطلعنا عليها من صرح بصناعة لخالد قبل إسلامه ، بد أنه يمكننا بعد أن أثبتنا لأبيه تلك الثروة العظيمة والمال الوفير أن نقول : إن أبناء ذلك الرجل الثرى صاحب الضياع والبساتين التى لا ينقطع ثمرها طول العام ليسوا فى حاجة إلى الاعتراف بصناعة أو تجارة ؛ إذ الاحتراف بأحدهما إنما يكون غالباً طلباً للرزق والمعاش ، أو سعيا وراء الثروة ، وكلا الأمرين موفور ميسر له لأن مال أبيه يفيض على غيره ، وعطاياه تغدق على من سواه .

ونستأنس لهذا بقول السهيلى تفسيراً لقول الله تعالى : « و بنين شهودا » أى مقيمين معه غير محتاجين إلى الأسفار والغيبة عنه لأن ماله ممدود[1] ويرشح قول السهيلى هذا ما ذكره المفسرون كالآلوسى وغيره فى تفسير الآية الكريمة :

بعد هذا يمكن أن نرجح أن خالداً لم يكن محترفاً فى جاهليته . و إذا نحن نظرنا لأبناء الأغنياء فى القرى والبلاد الريفية التى يغلب على أهلها طباع البداوة والتى هى قريبة الشبه بحال العرب فى جاهليتهم وجدنا أن همهم منصرف لأعمال الفروسية ، وركوب الخيل ، والمهارة فى الفوق على من عداهم فى تذليل صعبها وسياسة جامحها ، وكل من اختلط بالأعراب المنبثين فى الصحارى — وهم صورة لا تبعد كثيراً من عرب الجاهلية — وخبر ما عليه أبناء سادتهم وكبرائهم ، وعرف أن شغلهم الشاغل هو ركوب الخيل والعدو والسباق حتى إن أحدهم ليقوم بخدمة فرسه بنفسه ولا يكل ذلك إلى خادمه الذى يأمنه على مأكله ومشربه ليدرك بسهولة أن أبناء الأشراف همهم أن يكونوا فرساناً وكفى .

وقد يكون من السهل بعد هذا التمهيد أن نقول : إن خالدا كان فى جاهليته كأبناء الأشراف همه الخيل وركوبها وتذليلها وتصريف أعنتها . ولئن كان ذلك مستحسناً لأبناء السادة فهو لخالد أحسن وألزم لأن قبيلته — بنى مخزوم — كان

(١) الروض الأنف ج ١ ص ١٧٣ ، الألوسى ج ٢٩ ص ١٢١ .

حظها كما بينا من مظاهر الشرف فى قريش القبة والأعنة وهو الذى كان يلى ذلك قبل الإسلام ، ولا يمكن بحال أن يحسن رجل قيادة الأعنة من غير أن يجيد ركوب الخيل وتصريفها ، وبالممارسة والمران تكونت له خبرة وفوق فى أعنة الخيل وتذليلها مما نراه واضحاً فى مشاهده جاهلية و إسلاما .

على أن المهارة فى ركوب الخيل إلى الحد الذى وصفنا لا تتم لشخص إلا بعد أن يتصف بخفة الحركة والشجاعة ، والتهاون بالمخاطر ، والمعرفة بمواضع الكر والفر ، وحماية ظهره ونفسه . ولقد كانت هذه الصفات ظاهرة بارزة فى خالد .

وانصرافه إلى الخيل واهتمامه بها هذا الاهتمام الذى ألمنا به لا يمنع من أن يكون له مال يستغله فى التجارة و يعطيه لغيره مضاربة كما كان يفعل الكثير من أشراف قريش خصوصا وهو من بنى مخزوم أهل الثروة والمال ، وأبوه الوليد صاحب المال الممدود .

أوصافه الخلقية :

ليس بين أيدينا نصوص صريحة يعتمد عليها توضح فى جلاء أوصافه الخَلْقية لكن صاحب تهذيب التهذيب وغيره يقولون : «كان يشبه عمر فى خَلْقه وصفته» ويبدو أن الشبه بينهما كان واضحاً ظاهراً يدل لذلك حادثة علقمة بن علاثة ، وأنه لقى عمر بن الخطاب سحراً فقال له مرحبا بك يا أبا سليمان فنظر إليه عمر فعرفه ورد عليه السلام فقال له علقمة عزلك ابن الخطاب فقال له عمر نعم إلى آخر الحديث الذى ذكره صاحب الإصابة والأغانى وغيرهما .

وواضح من هذه القصة أن علقمة لم يستطع التفرقة بين عمر وخالد لا فى صورته ولا فى صوته مما يدلنا على أن خالداً كان بائن الطول بديناً كبير الهامة مهيباً مع بياض فى اللون ووضوح فى الصوت .

و إذا نحن تدبرنا كلام صاحب العقد الفريد وغيره — وهو ما ذكرناه آنفاً — وما كان عليه خالد من الشرف فى قومه وما أوتيه من قوة و بسطة فى الجسم وما انتهينا إليه من أن همه فى جاهليته كان منصرفاً للخيل وتذليلها وسياستها وأثر ذلك فى أخلاقه وميوله سهل علينا أن ندرك السر فى تفوقه الحربى .

السر فى أنه كان حربياً مظفراً :

غير منكور أن التبريز فى أمر من الأمور أساسه أن يكون الشخص محباً لذلك الشىء الذى يبرز فيه ، وله فيه استعداد جبلى خاص . وكثير من الناس إذا زاول غير العمل الذى يجد فى نفسه الاستعداد له فَقَدَ قوة التبريز ، وظهر دون المتوسط أو تبلد فى حين أنه لم يكن بليداً ؛ فإذا وجد الاستعداد النفسى ، وقارنه بعض الأمور المعينة على هذا العمل ، وكانت الرغبة فيه ، والميل إليه قوياً كان الشخص فيه غاية الغايات . وقد كان خالد ذا نفس حربية بطبيعتها ، ووجد فى بيئة تساعد على هذا التفوق فى هذا النوع ؛ لأن قريشا كانت تجعل إليه مخازن التموين ومهمات الجيش ، كما كانت تكل إليه أعنة خيلها ، ومن قبل كانت شارتا الشرف هاتين حقاً لبنى مخزوم ، فكان طبعياً لمن ينشأ فى تلك القبيلة ذات القوة والبأس ، وشدة الشكيمة ، والتى إليها جانب جد هام من عبء الحرب ، والدفاع عن البيضة أن ينشأ حربياً ماهراً ، وقائداً مستكملا لصفات العظماء من القواد .

ولئن كان خالد لم يتح له ، ولم يكن فى الإمكان أن يتربى فى مدرسة للحربية فقد أتيح له وواتته الظروف أن يتربى فى ميادين القتال ، ومدرسة العمل والاستعداد للحرب والطوارئ . وهذه التربية تستلزم فى صاحبها أن يكون شجاعا مقداما ، مستهينا بالمخاطر والمخاوف ، فى طباعه شىء من الشدة وقوة البأس وكذلك كان خالد .

ولا يبعد أن يكون قد عوّد نفسه الخشونة وشظف العيش وعدم الاكتراث بوثير الفراش وطيب الطعام . ويرشح هذا حادثة أكله من الضبّ التى سنذكرها فيما بعد ، وهذا الشظف له أثر بعيد فى حياة الجندى ، وفى احتماله للجوع والعطش ، وبخاصة فى ميدان القتال .

فالبيئة الخاصة له ولاسيما قبيلته المشهورة بالشجاعة وقوة البأس ، وما كان له من مظاهر الشرف فى قومه وما آتاه الله من استعداد ، وما أخذ به نفسه من شظف العيش ، وما صادفه وهو فى بدء حياته من حروب ، إلى مؤثرات أخرى ، كل هذه

عوامل تضامت وتضافرت على تكوين خالد تكويناً حربيا جعله فى مقدمة أشهر مشاهير قوّاد العالم . وخليق بمن يتربى تلك التربية أن يكون القائد الماهر ، وأن تكون له تلك الشهرة الخالدة التى لخالد .

فلا بدع إذن أن يكون عارفا بأصول الحرب ، حائزاً لصفات الجندية ، جامعا لمزايا العظماء من القوّاد : إقدام فى حزم ، ونجدة فى عزم ، وذكاء فى روية ، وخبرة بفنون الحرب وخدعها ، وبعد نظر فى كيد العدو ، وصدق رأى فى سياسة الجند .

وإن حروبه المظفرة ، وسيرته فى جنده ، لخير شاهد لأكبر قائد عرفه تاريخ الإسلام[1] .

والآن بعد أن ذكرنا نسبه ومكانته فى قومه نرى لزاماً علينا أن نقول كلمة عن موقفه إزاء الإسلام .

موقفه إزاء الإسلام :

كان خالد كغيره من صناديد قريش وعظمائها فى موقف المعاداة للإسلام والكراهة لصاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم ومن ناصره ، لذلك كان فى كل مواقفه ومشاهده التى شهدها مع كفار مكة ضد الإسلام ، حريصا جد الحرص على النكاية بالمسلمين ، والنيل منهم .

موقفه فى أحد :

حينما دارت رحى الحرب بين قريش والمسلمين فى أُحُد ، وكاد المسلمون أن ينتصروا ؛ فاشتغلوا بجميع الغنائم ، انتهز خالد هذه الفرصة فأخذهم بخيله من خلفهم ، وأعمل فيهم السيف حتى أذهلهم عن أنفسهم ودارت رحى الحرب ثانية ، وكان طبعيا أن تكون الدبرة على المسلمين — بعد أن كانت لهم — إذ جاءهم خالد[2]

---

(١) سيأتى لهذا البحث فصل بيان عند كلامنا على صفته وأخلاقه .

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٣٤ ، الطبرى ج ٣ ص ١٦ ، ابن الأثير ج ٢ ص ١٠٧ ، السيرة الحلبية ج ٢ ص ٢٩١

على أعنة الخيل من خلفهم ، ومن مأمنهم ، وعلى غِرَّةٍ منهم ، وفى وقت اعتقدوا فيه أن الحرب قد وضعت أوزارها ، وأنه قد آن لهم أن يجمعوا الغنائم ، ويجنوا ثمار انتصارهم . ولذلك كانت دهشتهم شديدة وارتباكهم أشد .

ولولا خالد ويقظته وانتهازه الفرصة ، والموقف الذى وقفه ضد المسلمين لكانت هزيمة قريش فى تلك الموقعة لا تقل عن هزيمتهم فى بدر ، ولما كان فى مكنة قريش أن تقف من المسلمين موقف المنتصر ، وتلوم نفسها ، وتألم لعدم القضاء على المسلمين ، وقد تمكنت منهم ، حتى لقد راودوا أنفسهم على الرجوع إليهم .

ولو انتصر المسلمون فى تلك الموقعة ، ولم يوقع بهم خالد لكان من المرجح ألا تقف قريش من المسلمين موقفها يوم الحديبية ، ولما تمكنت من صدهم عن زيارة الكعبة.

موقفه فى الخندق :

لما تحزب الأحزاب واجتمعوا لمناهضة المسلمين فى مدينتهم ، رأى المسلمون أن أنجع وسائل الدفاع هى حفر خندق حول المدينة لايتمكن الأعداء من اجتيازه واختراقه. ولكن الأحزاب حاولوا أن يخترقوه ؛ فكان خالد أحد أولئك الأفذاذ الذين كانوا يتناوبون الطواف[1] بالخندق علّهم يعثروا من المسلمين على ثغرة ، أو يظفروا منهم بغفلة ليأخذوهم وهم فى غفلتهم بسيوفهم وخيلهم فيقضوا عليهم ، وتكون قد هلكت تلك العصابة التى كانت منفردة بعبادة الله .

ولكن المسلمين لم يكونوا وهم فى مثل موقفهم يوم الخندق — الذى يصفه الله بقوله : « إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا »[2] — بالذين يسهون أو يغفلون

---

(١) « لما نظر المشركون إلى الخندق قالوا : والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها وصار المشركون يتناوبون فيغدو أبو سفيان فى أصحابه يوماً ، ويغدو خالد بن الوليد يوماً ، ويغدو عمرو بن العاص يوماً ... » ابن سعد ج ٢ ص ٤٨ ، السيرة الحلبية ج ٢ ص ٤٠٨

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ صحيفة ١٩٠ وفى ذلك يقول الله تعالى : « وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله إلا غروراً » .

عن عدوّهم ، فما أن شعروا بخالد فى خيل المشركين يطلب غرّة منهم ، ويريد اقتحام الخندق عليهم حتى رشقوه ومن معه بالنبل . ولو تمكن من اجتياز الخندق لكان من المحتمل أن يتغلب على المسلمين ، وأن يكون له النصر عليهم .

ولم يكن من المشركين حين فشلوا فى الخندق ، وكروا راجعين إلى ديارهم إلا أن لجأوا إلى الشهمين : عمرو بن العاص وخالد بن الوليد [1] ليحميا ظهورهم مخافة أن يكرّ المسلمون عليهم ويتبعوهم . وفى هذا دلالة على ثقة القوم به واعتمادهم عليه ، وأنه كفءٌ وجدير بمثل تلك الثقة التى ما كانت تعطى فى مثل ذلك الموقف جزافا ، وفضلا عن ذلك فإن قبوله لتلك المهمة واضطلاعه بها يجلى لنا ثقته بنفسه واستهانته بالمخاطر والمخاوف الأمر الذى كان له أثر كبير فى حياته المستقبلة .

موقفه بالحديبية :

كان موقفه يوم الحديبية موقف القائد المظفر الذى يُلتجأ إليه عند الشدائد ؛ فقد قدمته قريش على أعنة خيلها إلى كراع الغميم [2] فى مائتى فارس يتحرق تحرقا لمواقفة المسلمين . « ودنا بخيله حتى نظر إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عباد بن بشر فتقدم فى خيله فأقام بأزائه » [3] . وحين رأى المسلمين يصلون ندم على ألا يكون أعد عدته للهجوم عليهم وقت صلاتهم ، واستعد لأخذهم على غرة متى قاموا لصلاة أخرى ولكن الله أعلم رسوله صلى الله عليه وسلم بالأمر ؛ فصلى بأصحابه صلاة الخوف [4] ولم يخل جبهة جيشه من الحماة بل كان المسلمون يتناوبون

---

(١) « فأقام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد فى مائتى فارس ساقة للعسكر وردءا مخافة الطلب » ابن سعد ج ٢ ص ٥٠ ، السيرة الحلبية ج ٢ ص ٤٢٢

(٢) كراع الغميم — « موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة وهو واد أمام عسفان بثمانية أميال » ياقوت ج ٧ ص ٢٢٦

(٣) ابن سعد ج ٢ ص ٦٩ ، سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٢٦ ، الطبرى ج ٣ ص ٧٢ ، ابن الأثير ج ٢ ص ١٣٦ ، طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٦٩ .

(٤) السيرة الحلبية ج ٣ ص ١٤

الحراسة والصلاة . ولولا أن الأمر قد لج بينهم بتلك المعاهدة — التى كانت فاتحة خير للإسلام والمسلمين — لذكر لنا التاريخ فصلا عما كان من الحدث بينهم وبين المسلمين .

موقفه فى عمرة القضاء :

كان موقفه فى عمرة القضاء موقف الكراهة والبغض لصاحب الرسالة (ص) ولدينه الذى جاء به ، ولا أدل على كراهته وبغضه للإسلام ، وعدائه الشديد لأهله فى ذلك العهد من تغيبه وخروجه من مكة حين أراد المسلمون دخولها فى عمرة القضاء ؛ لأنه لم يطق أن يرى المسلمين يدخلونها حتى ولو كانوا زائرين البيت معظمين له ، ورغم ما كان بينهم وبين أهل مكة من التصالح على دخولهم فى عامهم هذا للزيارة ، ورغم أن الكثير ممن يرغبون زيارة البيت هم من قريش ومن قبيلته وأبناء عمومته . ولكنها الحمية للعقيدة التى لا تزال تحتل جوانب النفس ويعز استئصالها رغم تلك الضربات الشديدة التى لم تلبث أن حطمتها بل نسفتها بعد عهد قريب .

رحم الله خالداً لئن كان موقفه فى شركه شديداً على الإسلام والمسلمين فذلك الإخلاص المعتقد والتفانى فى الفكرة ، وقوة النفس هى التى جعلت نصرته للإسلام أشد ، ونكايته بأعدائه أبلغ .

الآن وقد طوينا عصراً من حياة خالد يفصله عما بعده ذلك الانقلاب الفكرى والاعتقادى الخطير ، فإنا نتقدم إلى عصر جديد يتميز عما قبله تميزاً واضحا ، وتظهر فيه شخصية خالد بقوتها فى صورة أخرى ، وينشر فيه ذلك التاريخ الخالد ، وتلك الصحيفة الذهبية صحيفة خالد المسلم .

الباب الثانى

خالد منذ إسلامه إلى وفاة رسول الله

صلى الله عليه وسلم

«إسلامه ، لماذا أبطأ فى إسلامه ، غزوة مؤتة ، فتح مكة ، هدم العزى ، خالد فى بنى جذيمة ، خالد فى غزوة هوازن ، خالد فى غزوة الطائف ، سرية خالد إلى دومة الجندل ، هدم ود ، إرسال خالد إلى نجران »

إسلامه :

اختلف المؤرخون فى بيان العام الذى أسلم فيه خالد ؛ ففريق منهم زعم أن إسلامه كان فى سنة خمس من الهجرة ، وزعم فريق آخر أنه أسلم سنة ست . كما أن منهم من قال إن إسلامه كان فى سنة سبع من الهجرة ، ومنهم من قال إنه أسلم سنة ثمان . وإذا نحن نظرنا إلى هذه الأقوال فإنا نرى أن من زعم أن إسلامه كان سنة ست قد أغرب ، وأبعد ولم يؤيده فى زعمه مؤرخ يوثق بقوله برواية تشعرنا بقبولها . وأما الزعم القائل بأنه أسلم سنة خمس فهو ساقط لا يقام له وزن ، ونحن فى غنية عن التدليل على بطلان هذين الزعمين لأنه فضلا عن بعدهما فكل نقض يتجه على قول من قال بأنه أسلم سنة سبع يتجه على هذين الزعمين بطريق الأولى [1] .

بقى أن يكون إسلامه سنة سبع أو ثمان .

وإذا نحن عرضنا كتب التاريخ والسير تبين لنا أن إسلامه كان فى صفر من

---

(١) كثير من المؤرخين قد تعرض لهذين الزعمين بالرد الصريح كابن الأثير فى أسد الغابة جزء ٢ ص ١٠١ وصاحب الإصابة جزء ٢ ص ٩٨ . فقال فى أسد الغابة ردا على من زعم إسلامه سنة ست : « وهذا القول مردود ، فإن الصحيح أن خالد بن الوليد كان على خيل المشركين يوم الحديبية » جزء ٢ ص ١٠١ ومثله فى الإصابة وفتح البارى بشرح صحيح البخارى .

سنة ثمان للهجرة قبل فتح مكة بستة أشهر ، وقبل غزوة مؤتة بشهرين . وهاك بعض النصوص الصريحة فى ذلك :

١ — قول ابن سعد : « فاصطحبنا حتى قدمنا المدينة على رسول الله صلى الله وسلم أول يوم من صفر سنة ثمان[١] » .

٢ — وقول البلاذرى : « وكان عمرو بن العاص قدم من عند النجاشى مسلما فلقى فى طريقه عثمان بن طلحة ، وخالد بن الوليد يريدان النبى صلى الله عليه وسلم فأسلموا فى صفر سنة ثمان[٢] » .

٣ — وقول ابن قتيبة : « وأسلم سنة ثمان هو وعمرو بن العاص وعثمان ابن طلحة[٣] » .

٤ — وما رواه الطبرى إذ يقول : « وفيها (يعنى سنة ثمان) قدم عمرو بن العاص مسلماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد أسلم عند النجاشى وقدم معه عثمان بن طلحة العبدرى ،وخالد بن الوليد بن المغيرة قدموا المدينة فى أول صفر[٤] » .

٥ — وما رواه ابن عساكر نقلا عن الواقدى ونصه : « الثبت عندنا أن خالداً لم يشهد خيبر وأسلم قبل الفتح هو وعمرو بن العاص ، وعثمان بن طلحة بن أبى طلحة أول يوم من صفر سنة ثمان . . .[٥] » .

٦ — وقول ابن الأثير : « فى هذه السنة (يعنى سنة ثمان) فى صفر قدم عمرو ابن العاص مسلماً على النبى صلى الله عليه وسلم ، وقدم معه خالد بن الوليد ، وعثمان بن طلحة العبدرى[٦] » .

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٤ ص ١ ، ٢ .
(٢) أنساب الأشراف ج ١ ص ١٨٤ وفتوح البلدان ص ٦٩ ، ٨٤
(٣) المعارف ص ٩٠
(٤) الطبرى ج ٣ ص ١٠٣
(٥) تاريخ مدينة دمشق ص ٦٨٧ المجلد الثالث
(٦) الكامل ج ٢ ص ١٥٥

٧ — وما ذكره أبو الفداء وهو : « وفى سنة ثمان قدم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص السهمى ، وعثمان بن طلحة بن عبد الدار فأسلموا[١] » .

٨ — وما ذكره ابن كثير على لسان خالد ونصه : « وكان قدومنا فى صفر سنة ثمان » . وفى رواية أخرى له : « أن عمراً وخالداً ، وعثمان بن طلحة قدموا لهلال صفر سنة ثمان[٢] » .

وغير هؤلاء كثير أضربنا عن ذكرهم اكتفاء بمن ذكرنا من الثقات ، وتحاشياً للتطويل والملل .

ونلاحظ على قول من يقول : بأن إسلامه كان فى سنة سبع الغموض وعدم التحديد فى حين أننا نرى من يقول بأن إسلامه كان فى سنة ثمان قد أوضح قوله وحدده ؛ فعين لنا السنة والشهر واليوم الذى أسلم فيه ، بل إن بعض الروايات قد عينت الساعة أيضاً[٣]

بعد هذه الأدلة النقلية الصريحة نجزم واثقين برأينا السابق من أن إسلامه كان فى صفر من سنة ثمان .

هذا وقد حملنا على الإكثار والإطالة فى تعيين الوقت الذى أسلم فيه كثرة الروايات والأقوال الواردة فى إسلامه ، وغموضها وإبهامها تارة ، وتضاربها واضطرابها تارة أخرى ، كما أننا رأينا كثيراً من الكتاب المحدثين الذين ندين لهم بالفضل يذكرون أن إسلامه كان فى سنة سبع ، فكنا مضطرين إزاء ذلك أن نأتى بكثير من الأدلة ليتبين وجه الصواب واضحاً ، ولنقنع أولئك الأساتذة الأجلاء بصحة ما ارتأيناه .

---

(١) أبو الفداء فى تاريخه ج ١ ص ١٤٢

(٢) ج ٣ ص ٢٤٠ ، ج ٤ ص ٢٣٨

(٣) كما فى رواية عن عمرو بن العاص ونصها : « ... فلبسنا من صالح ثيابنا ، ثم نودى بالعصر فانطلقنا على أظلعنا عليه ، وإن لوجهه تهللا ... » السيرة الحلبية ج ٣ ص ٨٧ ، وابن كثير ج ٤ ص ٢٣٨

وهاك طريق إسلامه يحكيه لنا خالد نفسه كما نقله كثير من ثقات المؤرخين[١]:

« لما أراد الله بى ما أراد من الخير قذف فى قلبى الإسلام ، وحضرنى رشدى فقلت : قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد صلى الله عليه وسلم فليس فى موطن أشهده إلا انصرف وأنا أرى فى نفسى أنى موضع فى غير شىء ، وأن محمدا سيظهر ، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى « الحديبية » خرجت فى خيل من المشركين فلقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصحابه « بعسفان »[٢] ، فقمت بأزائه وتعرضت له فصلى بأصحابه الظهر إماما فهممنا أن نغير عليهم ثم لم يُعزَم لنا ، وكانت فيه خيرة — فاطلع على ما فى أنفسنا من الهم به ؛ فصلى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف ، فوقع ذلك منا موقعاً وقلت : الرجل ممنوع . فاعتزلنا ، وعدل عن سير خيلنا ، وأخذ ذات اليمين ، فلما صالح قريشاً بالحديبية ، ودافعته قريش بالراح قلت فى نفسى أى شىء بقى ؟ أين أذهب ؟ إلى النجاشى ! فقد اتبع محمداً وأصحابه عنده آمنون فأخرج إلى هرقل ؟ فأخرج من دينى إلى نصرانية أو يهودية فأقيم فى عجم ، أو أقيم فى دارى بمن بقى . فأنا فى ذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فى عمرة القضية فتغيبت ولم أشهد دخوله ، وكان أخى الوليد بن الوليد قد دخل مع النبى صلى الله عليه وسلم فى عمرة القضية فطلبنى فلم يجدنى ، فكتب إلى كتابا فإذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ؛ فإنى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام ، وعقلك عقلك ! ومثل الإسلام جهله أحد ! وقد سألنى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنك وقال : « أين خالد ؟ » فقلت : يأتى الله به . فقال : « مثله جهل الإسلام ! ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين كان خيراً له ، ولقدمناه على

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٤ ص ١ ، ٢ — تاريخ ابن عساكر المجلد الثالث ص ٦٩٠ ، ٦٩١ ، ابن كثير ج ٤ ص ٢٣٨ وما بعدها ، السيرة الحلبية ج ٣ ص ٨٦ ، ٨٧ ، صفة الصفوة لابن الجوزى ج ١ ص ٢٦٨ وما بعدها مع تفاوت فى بعض التراكيب بين عبارات هذه الكتب .

(٢) عسفان كعثمان على مرحلتين من مكة — القاموس ، ومعجم البلدان .

غيره » . فاستدرك يا أخى ما قد فاتك من مواطن صالحة . قال : فلما جاءنى كتابه نشطت للخروج ، وزادنى رغبة فى الإسلام ، وسرّنى سؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم عنى ، وأرى فى النوم كأنى فى بلاد ضيقة مجدبة فخرجت فى بلاد خضراء واسعة فقلت : إن هذه لرؤيا ، فلما أن قدمت المدينة قلت : لأذكرنها لأبى بكر ، فقال : مخرجك الذى هداك الله للإسلام ، والضيق الذى كنت فيه من الشرك . قال : فلما أجمعت الخروج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلت : مَن أُصاحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فلقيت صفوان بن أمية ، فقلت : يا أبا وهب ، أما ترى ما نحن فيه ؟ إنما نحن أكلة رأس ، وقد ظهر محمد عَلَى العرب والعجم ، فلو قدمنا على محمد واتبعناه ، فإن شرف محمد لنا شرف . فأبَى أشد الإباء ، فقال : لو لم يبق غيرى ما اتبعته أبداً . فافترقنا ، وقلت : هذا رجل قتل أخوه وأبوه ببدر . فلقيت عِكْرمة بن أبى جهل ، فقلت له مثل ما قلت لصفوان بن أمية ، فقال لى مثل ما قال صفوان بن أمية ، قلت : فاكتم عَلَىَّ ، قال لا أذكره . فخرجت إلى منزلى ، فأمرت براحلتى فخرجت بها إلى أن لقيت عثمان بن طلحة فقلت : إن هذا لى صديق فلو ذكرت له ما أرجو ، ثم ذكرت مَن قتل مِن آبائه[1] فكرهت أن أذكره ، ثم قلت : وما عَلَىَّ وأنا راحل من ساعتى ، فذكرت له ما صار الأمر إليه ، فقلت : إنما نحن بمنزلة ثعلب فى جحر لوصب فيه ذنوب من ماء لخرج ، وقلت له نحواً مما قلت لصاحبى ، فأسرع الإجابة ، وقلت له : إنى غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو وهذه راحلتى « بفج » مناخة ، قال : فاتعدت أنا وهو « يأجج » إن سبقنى أقام ، وإن سبقته أقمت عليه ، قال : فأدلجنا سحراً ، فلم يطلع الفجر حتى التقينا « بيأجج » فغدونا حتى انتهينا إلى « الهدة »[2] فنجد عمرو بن العاص بها ، قال مرحباً بالقوم ، فقلنا

---

(١) أى قتل أبيه طلحة وعمه عثمان وقتل إخوته الأربعة : « مسافع ، والجلاس ، والحارث ، وكلاب » كلهم قتلوا يوم أحد — السيرة الحلبية ج ٢ ص ٨٦ ، سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٥٤

(٢) فج : موضع قريب من مكة ، ويأجج : مكان من مكة على ثمانية أميال . والهدة : موضع بين مكة والطائف — معجم البلدان .

و بك ، فقال : إلى أين مسيركم ؟ فقلنا : وما أخرجك ؟ فقال : وما أخرجكم ؟ قلنا : الدخول فى الإسلام ، واتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، قال : وذاك الذى أقدمنى ، (وفى رواية قال عمرو لخالد : ياأبا سليمان أين تريد ؟ قال : والله لقد استقام الميسم[1] ، و إن هذا الرجل لنبى ، أذهب فأسلم فحتى متى ، قال عمرو : وأنا ماجئت إلا لأسلم) فاصطحبنا جميعاً حتى دخلنا المدينة فأنخنا بظهر الحرة[2] ركابنا فأخبر بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر بنا ، (وفى رواية أنه قال : « رمتكم مكة بأفلاذ كبدها ») فلبست من صالح ثيابى ، ثم عمدت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقينى أخى فقال : أسرع فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخبر بك فسر بقدومك ، وهو ينتظركم ، فأسرعنا المشى ، فأطلعت عليه فما زال يتبسم إلىَّ حتى وقفت عليه ؛ فسلمت عليه بالنبوة فرد عَلَىَّ السلام بوجه طلق ، فقلت : إنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، فقال : تعال . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله الذى هداك قد كنت أرى لك عقلا رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير » . قلت يارسول الله إنى قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً للحق فادع الله أن يغفرها لى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الإسلام يجب ما كان قبله » . قلت يا رسول الله على ذلك ، قال : « اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيلك » . قال خالد : وتقدم عثمان وعمرو فبايعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : وكان قدومنا فى صفر سنة ثمان ، قال : والله ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعدل بى أحداً من أصحابه فيما حزبه[3] ثم أقطعه رسول الله

---

(١) رواية الطبرى ج ٣ ص ١٠٤ — « المنسم » قال السهيلى : من رواه الميسم بالياء فهى العلامة أى قد تبين الأمر ، واستقامت الدلالة ، ومن رواه المنسم بفتح الميم وبالنون فمعناه استقام الطريق ، ووجبت الهجرة . والمنسم مقدم خف البعير وكنى به عن الطريق للتوجه به فيه » الروض الأنف ج ٢ ص ٢١١ المطبوع بهامش سيرة ابن هشام .

(٢) اسم مكان بالمدينة .

(٣) رواية ابن سعد « فيما يحزبه » بدل فيما حزبه وفى رواية عن عمر بن العاص « فى أمر حربه »

صلى الله عليه وسلم موضع داره من الدور التى كان وهبها له الحارثة بن النعمان ، وجعله موضع ثقته ومن كُتَّابه[١] .

هذا ولا يسعنا أن نمر بإسلامه دون أن نتدبره لعلنا نجد فيه ميزة له ؛ فهو لم يدخل فى الإسلام تبعاً لغيره ، أو طمعاً فى نفع أو تفادياً من ضر ، وإنما أسلم بعد أن رأى أن الميسم قد استقام ، وبعد تدبر ومراجعة للنفس ، وعرض للمواطن التى شهدها ضد الإسلام ، واقتناع بحقية الدين الذى ارتضاه لنفسه ، وبفساد ما كان يعتقده ، وقد بين لنا خالد ذلك بقوله : « لكنى والله أسلمت حين تبين لى الحق[٢] » . فهنيئاً لك ياخالد ابتهاج الرسول صلى الله عليه وسلم بدخولك فى الإسلام ، وقوله لأخيك الوليد : « مامثله جهل الإسلام » . جدير أنت ياخالد بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيك وفى رفيقيك حين جئتموه مسلمين : « رمتكم مكة بأفلاذ كبدها[٣] »

مرحى مرحى ياخالد فقد أعطت مكة القيادة بإسلامك ورفيقيك ، وسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بكم وانتظركم فما أن طلعت عليه حتى ابتسم ، وما زال يبتسم إليك حتى سلمت عليه بالنبوة فرد عليك السلام بوجه طلق .

لا جرم فأنت جدير بكل ذلك ؛ ألست أنت الذى يقول فيك الرسول صلى الله عليه وسلم حين أسلمت : « الحمد لله الذى هداك قد كنت أرى لك عقلا رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير » ثم يمنحك موضع دارك ويميزك بذلك عن صاحبيك وهما ما هما فى قريش . على أن فى تقدمك على صاحبيك لمبايعة الرسول (ص) دلالة ظاهرة على مكانتك .

ألست أنت الذى بادرت فطلبت من الرسول صلى الله عليه وسلم عقيب إسلامك مباشرة أن يدعو لك الله ليغفر لك تلك المواطن التى شهدتها ضد الإسلام فأجاب طَلِبتك ودعا لك بقوله : « اللهم اغفر لخالد بن الوليد كلما أوضع فيه من صد عن

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٤ ص ١ ، صبح الأعشى ج ١ ص ٩٢ ، ابن كثير ج ٥ ص ٣٤٤

(٢) مغازى الواقدى ص ٤٠١

(٣) أسد الغابة ج ٢ ص ١٠١ ، ج ٣ ص ٣٧٢ ، ابن عساكر ص ٦٨٧ من المجلد الثالث والمعنى أنهم وجوه أهل مكة .

سبيلك » ولم يقف الأمر عند حد الدعاء لك بل وثق بك و بأمانتك حتى جعلك من كتّاب وحيه ، حقيق وعقلك عقلك ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعدل بك أحداً من أصحابه فيما حز به كما تقول أنت عن نفسك .

على أن ما حكاه لنا خالد عن إسلامه ، وما كان من سرور الرسول صلى الله عليه وسلم به ، وقوله فيه : « ما مثله جهل الإسلام » يجعلنا نتساءل عما بطأه عن الإسلام .

لماذا أبطأ خالد فى إسلامه ؟

حقاً لقد أبطأ خالد فى إسلامه وما كان لمثله — وعقله عقله — أن يبطىء ولكنه أسلم حين اقتنع وحينما زالت الأحوال والاعتبارات التى كانت تعترض سبيله والتى كانت تحول بينه و بين تفهم الدين الجديد والتفكر فيه تفكراً سليما مستقلا عن كل المؤثرات . يقول : « لكنى والله أسلمت حين تبين لى الحق » .

وقد وضح هذا المعنى رفيقه فى الإسلام عمرو بن العاص حين سئل : « ما أبطأ بك عن الإسلام وأنت أنت فى عقلك » إذ يقول : « كنا مع قوم لهم علينا تقدم وكانوا ممن توازى أحلامهم الجبال فلذنا بهم ، فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا وتدبرنا فإذا حق بيّن فوقع الإسلام فى قلبى » .

وفضلا عن ذلك فإن قريشاً هم الحمس فى الدين وهم حماة البيت الحرام والذادة عنه ومن أجله تعزهم العرب وتجلهم فطبعى جداً أن يقفوا — و بخاصة ذوى الشرف والسادة منهم — فى وجه هذا الدين الجديد الذى يزيل سلطانهم — إن اعتنقوه — ويجعلهم فى مستوى غيرهم من العرب ، وأن يناصبوه العداء ، وإن الموت أيسر على نفوسهم من الدخول فيه .

وهذا العداء يذكيه و يلهبه ما كان من قتل المسلمين لكثير من أشراف قريش ولا سيما فى بدر حيث قتل معظم أشرافهم وصناديدهم — وعز يز على النفوس البشرية مهما سما إدراكها أن تذعن للدين الذى قتل الأحبة وأبعدهم ؛ يدل لذلك مادار من

الحوار بين عكرمة بن أبي جهل وخالد ، فحين عزم خالد على الإسلام فزع عكرمة وقال : « قد صبوت يا خالد ، فقال لم أصب ولكني أسلمت ، قال عكرمة والله إن كان أحق قريش أن لا يتكلم بهذا الكلام إلا أنت ، قال ولم ؟ قال عكرمة لأن محمداً وضع شرف أبيك حين جرح ، وقتل عمك وابن عمك ببدر ، فوالله ما كنت لأسلم ولأتكلم بكلامك يا خالد ، أما رأيت قريشاً يريدون قتاله ، قال خالد هذا أمر الجاهلية وحميتها لكني والله أسلمت حين تبين لي الحق . . . » . كذلك ما كان يلهج به كثير من أشرافهم كقول صفوان بن أمية حين فاوضه خالد في الإسلام : « لو لم يبق غيري ما اتبعته أبداً » . ولقد أدرك خالد هذه الحقيقة النفسية التي أدت إلى امتناعه و إبائه عن الإسلام فقال : « هذا رجل قتل أبوه وأخوه ببدر » .

الآن وقد أسلم خالد وسر الرسول صلى الله عليه وسلم بإسلامه كما فرح المسلمون بانضمامه إليهم ، نتقدم لبيان فتوحه وأعماله ، وما كان له من أثر في نصرة دين الله و إعلاء كلمته .

وأول غزوة شهدها في الإسلام هي غزوة مؤتة :

غزوة مؤتة[1]

في جمادى الأولى من سنة ثمان للهجرة أنفذ رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية الأمراء إلى مؤتة للقصاص ممن قتلوا الحارث بن عمير رسوله إلى صاحب بصرى[2] ، ولتأديبهم ، ولئلا يظن أولئك القوم ومن إليهم من المبغضين للإسلام الضعف بالمسلمين والاستكانة للهزيمة وفي ذلك ما فيه على الدعوة الإسلامية .

استعمل الرسول عليه السلام على هذه السرية زيد بن حارثة وقال : إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس فإن أصيب جعفر فعبد الله بن

---

(١) قال ياقوت : « مؤتة بالضم ثم واو مهموزة ساكنة وتاء مثناة من فوقها وبعضهم لا يهمز ... قرية من قرى البلقاء في حدود الشام » ج ٨ ص ١٩٠ — الروض الأنف ج ٢ ص ٢٥٦ وسماها المؤرخون غزوة تساهلا وإلا فهي سرية لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يخرج فيها .

(٢) بصرى من أعمال دمشق وهي قصبة كورة حوران .

حة « فإن قتل عبد الله بن رواحة فليرتض المسلمون بينهم رجلا فليجعلوه بهم [١] » « وأمرهم أن يدعوا القوم للإسلام فأن أجابوا وإلا قاتلوهم وجعل ميته لهم هى : « ألا تغدروا ولا تغلوا ، ولا تقتلوا وليدا ولا امرأة ولا كبيرا ولا فانيا منعزلا فى صومعة ، ولا تقربوا نخلا ولا تقطعوا شجرا ولا تهدموا بناء » .

سار المسلمون حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من الروم لعرب بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف ، فانحاز المسلمون إلى « مؤتة » والتقوا دوهم ؛ فتعبأوا فجعلوا على ميمنتهم قطبة بن قتادة العذرى ، وعلى ميسرتهم عباية بن لك الأنصارى ، ثم التقى الناس فاقتتلوا ؛ فقاتل زيد بن حارثة حتى شاط فى رماح قوم ، فأخذ الراية جعفر بن أبى طالب حتى إذا ألحمه القتال اقتحم عن فرسه فعقرها [٢] قاتل حتى قتل ، ثم أخذها ابن رواحة وقاتل حتى قتل .

صار المسلمون ولا قائدلهم يحفظ نظامهم ، ويحقق الغرض الذى أرسلوا من أجله اضطربوا وأصبح موقفهم تجاه عدوهم دقيقاً حرجا فلم يجدوا — وهم فى مثل موقفهم — أحزم من أن يلجأوا للشهم ربيب الحرب خالد بن الوليد فأمروه عليهم وأسلموه قيادهم فكان ذلك من توفيق الله لهم ؛ فقد « أخذ الراية بعد موت ابن رواحة ثابت بن أقرم وجعل يصيح يا للأنصار فجعل الناس يثوبون إليه فنظر إلى خالد بن الوليد فقال : خذ اللواء يا أبا سليمان فقال لا آخذه أنت أحق به لك سن وقد شهدت بدرا قال ثابت خذه أيها الرجل فو الله ما أخذته إلا لك ؛ فأنت أعلم بالقتال منى وقال ثابت : للناس اصطلحتم على خالد قالوا نعم » [٣] .

حمل خالد اللواء وتسلم إمرة جيش منهزم قليل العدد لا يزيد على الثلاثة

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٥٦ ، الطبرى ج ٣ ص ١٠٧ ، ابن كثير ج ٤ ص ٢٤١ وفى تأمير الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة من الأمراء على خلاف ماجرت عليه عادته تلميح لايخفى بأن الشهادة قد وجبت لهم .

(٢) وهو أول من عقر فرسه فى الإسلام الطبرى ج ٣ ص ١٠٩ ، وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٥٨ ، ابن الأثير ج ٢ ص ١٦٠

(٣) الطبرى ج ٣ ص ١٠٩ ، أسد الغابة ج ١ ص ٢٢٠ ، صفة الصفوة ج ١ ص ٢٦٩

الآلاف كاد يفقد قوته المعنوية أو فقدها وهو فضلا عن ذلك بإزاء جيش كثيف بلغت عدته مائتي ألف[١]، هذا إلى أنه مدرب عظيم الثقة بنفسه، معتز بقوته، وله ضراوة وخبرة بالحروب قريب عهد بالانتصار على الفرس. وهنا ظهرت مواهب خالد الحربية، فأعمل الحيلة فى خلاص الجيش وإنجائه من الفناء فقاتل فى يومه قتالا شديداً وحمل بأصحابه ففض جمعا من جمع المشركين، ولما غدا غير نظام الجيش فجعل مقدمته ساقة، وساقته مقدمة، وكذلك فعل بالميمنة والميسرة:[٢]؛ فكان هذا التغيير مما جعل الروم يظنون أن مدداً جاء للمسلمين؛ فقدروهم ونظروا إليهم بعين ليست عين الأمس.

كان هذا تدبيراً وقتياً لحماية الجيش من الفناء؛ ولذا فإنا نرى خالدا يتقهقر بالجيش قليلا قليلا مع حفظ نظامه «وحياطة قاصيته» وهذا تدبير محكم وخطة رشيدة لا تفضلها غيرها فى مثل هذا الموقف. وبذلك تحاجز الفريقان ونجا جيش المسلمين من فناء محقق.

مثل هذا التدبير من خالد ليس بالعمل الميسور الذى يستطيعه كل قائد بل هو عمل عظيم جسيم يتطلب مهارة وحزماً، ورباطة جأش، وثقة بنصر الله. وكثيراً ما عرف التاريخ قواداً عظاما[٣] كان السر فى شهرتهم إنجاء جيوشهم من مثل هذا الموقف الحرج الذى لو اختل أقل تدبير فيه لفنى الجيش، ولقد عرف له الرسول صلى الله عليه وسلم حسن تدبيره فلقبه «سيف الله» وهو وسام لم يمنحه أحد من أصحابه. ولعل الرسول صلى الله عليه وسلم كان أسبق من غيره فى تقدير القواد العظام على مثل هذا التدبير العظيم.

ومما يصور لنا مقدار ما لاقاه جيش المسلمين من شدة وخطوب قول خالد:

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ١٠٧. ابن كثير ج ٤ ص ٢٤٢

(٢) سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٩٦، ابن كثير ج ٤ ص ٢٤٧

(٣) مثل هندنبرج القائد الألمانى العظيم (الذى كان قبل وفاته رئيساً للجمهورية الألمانية) وأحمد مختار باشا فى حرب الروسيا سنة ١٢٩٣

اندقت فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف ، فما ثبت فى يدى إلا صفيحة يمانية »[1]
ن الذى يضطر قائده للقتال — و إن كانت تلك عادة خالد فى معظم وقائعه —
تتكسر فى يده تسعة أسياف لا بد أن يكون قد لاقى من الأهوال أشدها ، ومن
رب أقساها ، وقائده لهو من أعظم القواد ، وأشجعهم وأعرفهم بالحرب ومكايدها.

وقد أخبر النبى (ص) أصحابه بموت الأمراء الثلاثة واستغفر لهم ، وقال: « ثم أخذ
، خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء هو أمر نفسه » ثم قال : « اللهم إنه سيف
سيوفك فأنت تنصره[2] » فمنذ ذلك اليوم سمى خالد : « سيف الله » ، وحقاً إنه
ر بذلك اللقب النبوى الكريم ، والوسام العظيم ؛ فقد أمر نفسه ونجى جيش
لمين ، ولعمرى مهما أجاد الإنسان فى وصفه ومدحه فلن يصفه بأحسن ولا بأوفى
وصفه به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ور بما همس هامس قائلا : إذا كان هذا حال جيش المسلمين فلماذا لم يتبعهم
م حين انحازوا وتقهقروا ، فيقضوا عليهم ؟ وجوابنا أن الجيوش الكبيرة ذات
دة والأثقال يعسر عليها الحرب والقتال فى الفيافى والمفاوز ، أما المسلمون فكان
دهم قليلا ، وعدتهم خفيفة ، وهم بحكم تربيتهم ونشأتهم أنشط من الروم وأمرن على
سير فى القفار ، وأخبر بشعاب المفاوز وحزنها ، فلا فائدة — عمليا — من تتبعهم ؛
ذر لحاقهم ، ولا يبعد أنهم خافوا من أن يكون للمسلمين كمين ، وأن يكون تأخرهم
كيدة كى يزجوا بهم فى الصحراء ؛ فإذا تورطوا فيها أخذهم الكمين من خلفهم ، أو أن
كون تأخرهم للتحيز إلى فئة أو مدد أتاهم ، فتحرزا من الكمين ، ومبالغة فى الحيطة
الحذر لم يتبعوهم .

---

(١) طبقات ابن سعد جـ٤ ص ٢ ، السيرة الحلبية جـ٣ ص ٩٦ ، أنساب القرشيين جـ٣ ص ٣٣٩
لاستيعاب جـ ١ ص ١٥٧ ، أسد الغابة جـ٢ ص ١٠٢ ، صفة الصفوة لابن الجوزى جـ١ ص ٢٦٩

(٢) الطبرى جـ ٣ ص ١٠٩ ، السيرة الحلبية جـ ٣ ص ٩٧ ، أسد الغابة جـ ٢ ص ١٠٢ ، و
بن كثير جـ ٤ ص ٢٤٦

عود على بدء

يقول بعض المؤرخين : إنه بعد أن تسلم خالد قيادة الجيش انتصر وفتح الله عليه ، وبعضهم غلا فقال : إنه هزم الروم هزيمة منكرة . ومن ذلك رواية لابن سعد فى طبقاته يقول فيها راويها مانصه : « فأخذ خالد اللواء ثم حمل على القوم فهزمهم الله أسوأ هزيمة رأيتها قط حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاءوا ...[1] » . ولكن معظم المؤرخين ومن بينهم ابن سعد نفسه — فى أول كلامه عن الموقعة — قد نصوا على أن الفريقين تحاجزا من غير قتال ، وأن خالداً لما أخذ الراية دافع القوم وخاشى[2] بهم ثم انحاز ، وانحيز عنه حتى انصرف بالناس .

وفضلا عن هذا فإن العقل يستبعد جداً مثل هذا الانتصار ؛ إذ ما قيمة كتيبة صغيرة عدتها ثلاثة آلاف رجل بإزاء جحفل جرار عدته ٢٠٠ ألف مقاتل ، وكم عدد الأشلاء وآلاف القتلى الذين وضع المسلمون أسيافهم فيهم حيث شاءوا ؟ لم نر من المؤرخين من تعرض لمقدار الغنائم ، ولا لعدد القتلى على غير عادتهم فى مثل الحوادث التى ينتصر فيها المسلمون انتصاراً مؤزراً كالذى يحكيه لنا الراوى .

أما من قال بأنه انتصر وفتح الله عليه فيمكن حمله على المجاز ، لأن نجاة ثلاثة آلاف من فناء محقق يعتبر بحق فتحاً ؛ لأنه لولا خالد ومهارته لهلك الجيش فكأنه أضاف إلى سواد المسلمين ثلاثة آلاف من الأنفس . على أننا نجد المؤرخين جميعاً يذكرون أن النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين خرجوا لاستقبال هذا الجيش حين شارف المدينة راجعاً ، وكان الناس يحثون فى وجوههم التراب ، ويعيرونهم بقولهم : « يافرار فررتم فى سبيل الله » والنبى صلى الله عليه وسلم يخفف عنهم و يعتذر بقوله : « ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله »[3] . فهل ترى أن النبى صلى الله

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٢ ص ٩٤ ، وراجع ابن كثير جـ ٤ ص ٢٤٨ ، ٢٤٩

(٢) المخاشاة المحاجزة وهى مفاعلة من الحشية لأنه خشى على المسلمين لقلة عددهم ومن رواه حاشى بالحاء المهملة فهو من الحشى وهى الناحية — الروض الأنف جـ ٢ ص ٢٦٠

(٣) طبقات ابن سعد جـ ٢ ص ٩٣ ، سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٦٠٠ ، الطبرى جـ٣ ص ١١٠

عليه وسلم والمسلمين خرجوا لاستقبال أفراد رجعوا فارين قبل انتصار المسلمين كما زعم بعض من قال ذلك ، أم المقبول أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج لاستقبال الجيش وأن حَثْيَ التراب فى وجوههم دليل بَيِّنٌ على عدم انتصارهم . وإذا كان بعض من تحمل هذا العذر لجيش المسلمين ربما كان الحامل له على ذلك أنه عز عليه أن يفر المسلمون من وجه العدو فإنا نرى أن كتيبة صغيرة تنجو من براثن هذا الخميس العرمرم لا يقتل منها إلا ثمانية نفر أو اثنى عشر [١] لمن أعظم الفخر ، وفى غنية عن الاعتذار .

وكثير من الشعر الذى قيل فى هذه السرية يؤيد رأينا ، فمن ذلك قول : « قيس بن المحسر اليعمرى » يعتذر مما صنع يومئذ وصنع الناس :

فوالله لا تنفك نفسى تلومني ... على موقفى والخيل قابعة قبل
على أننى آسيت نفسى بخالد ... ألا خالد فى القوم ليس له مثل
وجاشت إلى النفس من نحو جعفر ... بمؤتة إذ لا ينفع النابل النبل
وضم إلينا حجزتيهم كليهما ... مهاجرة لا مشركون ولا عدل

«فبين قيس ما اختلف فيه الناس من ذلك فى شعره أن القوم حاجزوا وكرهوا الموت وحقق الحياز خالد بمن معه » [٢] .

وقد أيد ابن برهان الدين تأويلنا بقوله : « وكون هذا نصراً وفتحاً واضح لإحاطة العدو بهم ، وتكاثرهم عليهم ، لأنهم كانوا مائتى ألف والصحابة ثلاثة آلاف إذ مقتضى العادة أن يقتلوا بالكلية » ويقول أيضاً : فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بل أنتم الكرارون » وهو دليل على أنه كان بينهم محاجزة وترك للقتال [٣] كما أيده أيضاً ابن كثير فيما نقله عن ابن اسحاق [٤]

---

(١) ابن كثير جـ ٤ ص ٢٥٩
(٢) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٦٠ ، ابن كثير جـ ٤ ص ٢٥٠
(٣) السيرة الحلبية جـ ٣ ص ٩٩
(٤) جـ ٤ ص ٢٥٠

هذا وقد قيل كثير من الشعر فى هذه الموقعة ، فمن ذلك قول حسان بن ثابت يرثى الأمراء الثلاثة :

رأيت خيار المسلمين تواردوا شعوبا وخلفاً بعدهم يتأخر
فلا يُبعدنّ الله قتلى تتابعوا بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفر
وزيد وعبد الله حين تتابعوا جميعاً وأسباب المنية تخطر
غداة مضوا بالمؤمنين يقودهم إلى الموت ميمون النقيبة أزهر
وما زال فى الإسلام من آل هاشم دعائم عز لا يزلن ومفخر[1]

فتح مكة

لما أراد الله فتح مكة هيأ الأسباب لذلك فنقضت قريش الصلح الذى كان بينها و بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقد أعانت بكرا التى كانت فى عقدها على خزاعة التى كانت فى عقد النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فسار إليهم الرسول صلى الله عليه وسلم فى يوم الأربعاء لعشر ليال خلون من شهر رمضان بعد العصر بجيش عظيم بلغت عدته بعد أن تكامل عشرة آلاف[2] من المهاجرين والأنصار[3] ، ومن أجابه من قبائل العرب التى بعث إليها ، وهو أكبر جيش عربى عرفته بلاد العرب إلى ذلك الوقت ، وحين قارب الرسول صلى الله عليه وسلم مكة ، ووصل إلى ذى طوى[4] رتب الجيش فكان خالد أميراً على الميمنة وفيها أسلم وسليم وغفار ومزينة وجهينة ، وقبائل من قبائل العرب[5] . وهذا أول يوم نال فيه خالد شرف القيادة والإمارة من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٦١ ، ابن كثير ج٤ ص ١٦٠

(٢) الطبرى ج٣ ص١١٤ ، ١٢٢ ، طبقات ابن سعد ج٢ ص ٩٩

(٣) لم يتخلف أحد من المهاجرين والأنصار وكان المهاجرون سبعمائة ومعهم ثلاثمائة فرس وكانت الأنصار أربعة آلاف ومعهم خمسمائة فرس — ابن هشام ج٢ ص ٢٦٧ الطبرى ج ٣ ص ١١٤ ، السيرة الحلبية ج ٣ ص ١٠٩

(٤) موضع قرب مكة — معجم البلدان ج ٦ ص ٦٤

(٥) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٧١ ، الطبرى ج ٣ ص ١١٨ معجم البلدان ج ٧ ص ٣٤٦

أمر الرسول صلى الله عليه وسلم سعد بن عبادة أن يدخل من كداء ، والزبير من كدى[١] ، وخالد من الليط[٢] ، ودخل عليه السلام من أذاخر[٣] حتى نزل بأعلى مكة ، وضربت له هناك قبته ؛ فكان دخول المسلمين مكة من أربعة مواضع[٤]

كان النبى صلى الله عليه وسلم حريصاً جد الحرص على ألا يراق دم فى البلد الحرام ؛ فنهى أمراءه عن القتال إلا إذا قوتلوا ومنعوا ، لكن بعض أشراف قريش ورجالاتها أبوا إلا أن تراق الدماء فى الحرم المقدس ؛ فإن صفوان بن أمية ، وعكرمة ابن أبى جهل ، وسهيل بن عمرو كانوا قد جمعوا ناساً من بكر والأحابيش[٥] وغيرهم بالخندمة[٦] أسفل مكة ليقاتلوا المسلمين ويصدوهم عن الدخول . وأراد الله أن يكون لخالد — وهو أول من أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدخول — فى هذا اليوم[٧] المشهود جولة وأن يعلو بسيفه الألى يريدون منع المسلمين من دخول البيت الحرام

---

(١) كداء الممدود بأعلى مكة دار النبى صلى الله عليه وسلم من ذوى طوى إليها ، وكدى بضم الكاف وتنوين الدال بأسفل مكة عند ذى طوى عند شعب الشافعيين ، ومنها دار النبى صلى الله عليه وسلم إلى المحصب ، فكأنه صلى الله عليه وسلم ضرب دائرة فى دخوله وخروجه بات بذى طوى ثم نهض إلى أعلى مكة فدخل منها ، وفى خروجه خرج من أسفل مكة ، ثم رجع إلى المحصب . . قال ابن المواز : « كداء التى دخل منها النبى صلى الله عليه وسلم هى العقبة الصغرى التى بأعلى مكة ، وهى التى تهبط منها إلى الأبطح ، والمقبرة منها عن يسارك ، وكدى التى خرج منها هى العقبة الوسطى التى بأسفل مكة . . » . معجم البلدان ج ٧ ص ٢٢١

(٢) الليط بالكسر موضع أسفل مكة . معجم البلدان ج٧ ص ٣٤٦

(٣) أذاخر بالفتح والخاء المعجمة المكسورة . معجم البلدان ج ١ ص ١٥٩

(٤) طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٩٨

(٥) الأحابيش هم بنو الهون بن خزيمة ، وبنو الحرث بن عبد مناف بن كنانة ، وبنو المصطلق بن خزيمة . وقيل لهم ذلك لأنهم تحالفوا تحت جبل بأسفل مكة يقال له حبش هم وقريش على من عاداهم ماسجا ليل ووضح نهار وما رسا حبش فسموا أحابيش قريش — السيرة الحلبية ج ٣ ص ١٨ ، المعارف لابن قتيبة ص ٢٦٩ وفيه عن حماد الراوية سموا أحابيش لاجتماعهم والتجمع فى كلام العرب هو التحبيش — فراجعه ومما يدل على أن التجمع التحبيش قول حسان :

أنتم أحابيش جمعتم بلا نسب ... أئمة الكفر غرتكم طواغيها

(٦) الخندمة بفتح أوله جبل بمكة قريب من شعب أبى طالب — البلاذرى ص ٥٥ ، ياقوت ج ٣ ص ٤٧٠

(٧) البلاذرى ص ٤٦

فاشتبك معهم فى قتال انجلى عن قتل ١٣ من المشركين وثلاثة من المسلمين[١] ولم يحدث فى هذا اليوم المشهود قتال سوى هذه المناوشة التى أعقبها انهزام المشركين ، ودخول المسلمين المسجد الحرام محلقين رءوسهم ومقصرين ، فكان ذلك تحقيقاً لرؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم التى ذكرها القرآن الكريم بقوله : « لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا »

وكان دخول المسلمين مكة فى يوم الجمعة لعشر بقين من شهر رمضان من سنة ثمان[٢]

ظن أولئك القوم أنهم بما جمعوا من بكر والحارث والأحابيش[٣] يقفون فى وجه المسلمين ، ويصدونهم عن دخول مكة ، ولم يدروا أن سيف الله أمير على ميمنة الجيش الفاتح ، وأنه أمر أن يتقدم فيكون أول من يدخل ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أذن له فى قتال من يتصداه ، ولسوء حظهم كانوا من نصيبه ؛ فأراهم أن ذا العزمات الماضية الذى عرفوه بالأمس شديداً قاسياً على المسلمين هو اليوم أشد وأقسى على الشرك والمشركين .

هذا ولا يسعنا أن نمر بفتح مكة من غير أن نتدبره علنا نجد ميزة لاختيار خالد للقيادة فى هذا اليوم العظيم ؛ ذلك أن هذا اليوم المشهود كان ينتظره رسول الله صلى الله عليه وسلم بفارغ الصبر ؛ لأن لأهل مكة الزعامة الدينية على سائر العرب ،

---

(١) وهم : كرز بن جابر أحد بنى محارب ، وخنيس بن خالد بن ربيعة بن أصرم حليف بنى منقذ ، وسلمة بن الميلاد من جهينة ، والأولان كانا فى خيل خالد فسلكا طريقا غير طريقه فقتلا ، والأخير أصيب من خيل خالد ، سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٧١ ، الطبرى ج ٣ ص ١١٨ ، لكن ابن سعد فى طبقاته قال : إن قتلى المشركين كانوا أربعة وعشرين من قريش وأربعة من هذيل ج ٢ ص ٩٨ ومثله فى أبى الفداء ج ١ ص ١٤٤

(٢) طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٩٩ ، الطبرى ج ٣ ص ١٢٥

(٣) الطبرى ج ٣ ص ١١٧

فإذا أذعن أهلها ، ومحيت منها عبادة الأوثان والأصنام ؛ فقد أذعنت العرب كلها ، وأعطت بيدها صاغرة ، وليس أحب إلى نفس الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم من أن يرى الكعبة لا يذكر فيها إلا اسم الله خالصاً ، ولا يعبد فيها سواه ، وتمحى منها الأصنام والأنداد ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم الناس بنفسية قريش ، ومقدار كرههم لهذا الدين وللداعى إليه ؛ فنفوسهم لا تطيب لرؤية الرسول صلى الله عليه وسلم داخلا مكة مستولياً عليها ، وهم يعرفون أنه متى دخل النبى صلى الله عليه وسلم مكة فقد دالت دولتهم وانتهى عزهم ، ومحيت عظمتهم ، وقضى على أوثانهم ومعبوداتهم . كل هذا وأكثر منه يعرفه الرسول ، وتعرفه أهل مكة ؛ فالمعقول إذن أن يختار الرسول صلى الله عليه وسلم لإمرة جيشه فى هذا اليوم أكفأ قواده الذين خرجتهم الحروب ، وعركتهم الحوادث ، ولهم سابقة خبرة ، وكبير دراية بقيادة الجيوش وتسييرها والإشراف عليها . وإذا كنا نعلم أن جيش الفتح هذا فيه كل قواد المسلمين ، وكثير من زعماء العرب فإنه يمكننا أن نقول : ليس اختيار خالد للقيادة فى مثل هذا اليوم المشهود لأنه يصلح للقيادة وكفى ، بل لأنه قائد ممتاز قدره الرسول صلى الله عليه وسلم قدره ، وعرف له فى القيادة فوقه . وإذا نحن عرفنا أنه كان تحت إمرته قراب ثلث الجيش[1] وأن هذا الفريق كان خليطا من قبائل العرب المتبدين المتنافرين الذين لم يهذبهم دين ، ولم يألفوا النظام أمكن بسهولة أن ندرك السر فى اختيار خالد للقيادة ولقيادة تلك الفرقة المختلطة ، وفى مثل هذا اليوم الفاصل الخطير .

فليس اختياره إذن لمثل هذا اليوم ، ولقيادة تلك الفرقة المتباينة عفواً ، بل لأنه الجدير بذلك ، ولا يحسن أن يسوس هذه الجموع أحد ما ساسها خالد .

ولأن هذا اليوم حد فاصل بين الضلال والهدى ، والظلمات والنور أكثر

---

(١) كان تحت إمرته بنو سليم فى سبعمائة وقيل ألف ، وأسلم فى أربعمائة ، ومزينة فى ألف وثلاثة نفر ، وبنو غفار فى أربعمائة ، وجهينة فى ثمانمائة وقيل ألف وأربعمائة ، سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٧١ ، ٢٧٩ ، الطبرى ج ٣ ص ١١٨ ، ١٢٢ ، السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٠٩ ، ابن كثير ج ٤ ص ١٦٠ ، أسد الغابة ج ٢ ص ١١٣ .

الشعراء من القول فيه ؛ فمن ذلك أن حماس بن قيس أخا بنى بكر (وهو ممن تصدى لقتال خالد) كان يعد سلاحاً قبل قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و يصلح منه ، فقالت له امرأته : لماذا تعد ما أرى ؟ قال : لمحمد وأصحابه ، فقالت : والله ما أرى يقوم لمحمد وأصحابه شيء ، قال : والله إنى لأرجو أن أخدمك بعضهم . ثم قال :

إن يقبلوا اليوم فمالى عله   هذا سلاح كامل وألَّه (١)
وذو غرارين سريع السله

فلما هزم خالد صفوان بن أمية ومن إليه بالخندمة فر حماس إلى بيته منهزماً وقال لامرأته : أغلقى على بابى ، قالت : فأين ما كنت تقول ؟ فقال : (٢)

إنك لو شهدت يوم الخندمه   إذ فر صفوان وفر عكرمه
وابو يزيد قائم كالمؤتمه   واستقبلتهم بالسيوف المسلمه
يقطعن كل ساعد وجمجمه   ضربا فلا يسمع إلا غمغمه
لهم نهيت خلفنا وهمهمه   لم تنطق فى اللوم أدنى كلمه

ومنه قول راشد بن عبد الله السلمى :

قالت هلم إلى الحديث فقلت : لا   يأبى الإله عليك والإسلام
لو ما شهدت محمداً وقبيله   بالفتح حين تكسر الأصنام
لرأيت نور الله أضحى ساطعا   والشرك يغشى وجهه الإظلام (٣)

يعد فتح مكة أول يوم طهرت فيه الكعبة من عبادة الأوثان والأصنام ، و إذا طهرت الكعبة ، واجتثت منها جرثومة الشرك فقد طهرت جزيرة العرب ، ولم يبق لغير الله فيها إلا مظاهر ومعابد فى المرتبة الثانية . وقد أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم فى إزالتها ومحوها ليكون الدين كله لله لا شريك له :

---

(١) الألّه بضم الهمزة ضرب من الرماح .
(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٧٢ ، الطبرى ج ٣ ص ١١٩ ، العقد الفريد ج ١ ص ٤٥ ، ابن كثير ج ١ ص ٢٩٦
(٣) أسد الغابة ج ٢ ص ١٤٩ ، الأصنام لابن الكلبى ص ٣١

obeikandi.com

هدم العزى [1] :

لم يمض على فتح مكة خمسة أيام حتى أرسل النبي صلى الله عليه وسلم خالد ابن الوليد فى ثلاثين فارساً من المسلمين إلى بطن نخلة حيث هيكل العزى ، وكانت أعظم الأصنام عند قريش ، وكانوا يزورونها ويهدون لها ويتقربون عندها بالذبح ، كما كانت تعظمها كنانة ومضر كلها ، وكان سدنتها بنو شيبان من بنى سليم حلفاء بنى هاشم ، وكان آخر من سدنها منهم دبية بن حرمى السلمى فلما رأى خالدا قال :

أيا عز شدى شدة لاشوى لها ... على خالد ، ألقى القناع وشمرى

ويا عز إن لم تقتلى اليوم خالدا ... فبوئى بأثم عاجل ، أو تنصرى

فقال خالد :

ياعز كفرانك لاسبحانك ... إنى رأيت الله قد أهانك

وقتل سادنها وهدمها لخمس ليال بقين من رمضان [2] .

هذا وإن هدم العزى وإن بدا أمراً هيناً ، ولا خطورة فيه لكن لا يعزب عنا أنها كانت أعظم أصنام قريش ، وتعظمه كنانة ومضر كلها ، ومن جهة أخرى هى أول صنم أراد الرسول البداءة بهدمه — بعد ما كسر ما فى داخل الكعبة — فإذا هدم هذا وأذعن معظموه — وهم من ذكرنا — فغيره مما ليست له هذه الميزة وتلك المنزلة أيسر وأهون .

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم خبيراً بتلك الحقيقة النفسية وهى : أن هدم العزى كان بعد الفتح بخمسة أيام فقط والنفوس مهتاجة مضطربة ساكتة على مطوية حقد وغيظ ، فليس بعيداً إن أمكنت فرصة لأولئك الموتورين أن يشفوا صدورهم وغيظهم ، فكانت الحكمة ، وبعد النظر أن يختار الرسول لهدمها — بصفة

---

(١) وهى شجرة أو سمرات أو صنم فى بيت ببطن نخلة قريباً من مكة .

(٢) مغازى الواقدى ص٧ ، طبقات ابن سعد جـ ٢ ص ٩٩ ، الطبرى جـ ٣ ص١٢٣ ، الأصنام لابن الكلبى ص ١٨ وما بعدها .

خاصة — أشد قواده بأساً ، وأقواهم شكيمة ، وأصلبهم عوداً فى ذات الله ؛ وليس هذا القائد سوى خالد ؛ فاختياره إذن يوضح لنا ثقة الرسول صلى الله عليه وسلم فيه لا من الوجهة الحربية فقط ، ولكن من الوجهة الدينية أيضاً .

خالد فى بنى جذيمة[1]

لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم بالذى يقعد به الفرح والسرور بفتح مكه ، والفوز على أولئك القوم الذين آذوه ، وأخرجوه من بلده فيتوانى عن مهمته الشاقة الجليلة . مهمة هداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، وكيف يتوانى أو يخلد للراحة ! وفتح مكة قد أتاح له فرصة ذات بال لنشر دين الله ، وهداية عبيده ؛ لأن قريشاً — وهى قدوة العرب ، والعدو اللدود له ، ولهذا الدين الذى جاء به — قد خمد نفسها وأذعنت للإسلام ، فصار الأمل فى إجابة غيرها من قبائل العرب عظيما .

لم يترك الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الفرصة التى أعقبت الفتح تمر من غير أن يغتنمها و يستفيد منها ، فأرسل سراياه فيما حول مكة مبشرين وداعين إلى الله .

كان من أولئك الرسل خالد بن الوليد فإنه بعد أن هدم العزى أرسله النبى صلى الله عليه وسلم — وهو مقيم بمكة بعد الفتح — إلى بنى جذيمة فى ثلاثمائة وخمسين رجلا من المهاجرين والأنصار وبنى سليم وغيرهم[2] .

سار خالد فى شوال قبل خروج النبى صلى الله عليه وسلم إلى غزوة حنين[3]

---

(١) « جذيمة » (بفتح الجيم وكسر الذال المعجمة بعدها ياء آخر الحروف ساكنة) وهم من كنانة وكانوا بأسفل مكه على ليلة ناحية يلملم وينسبون إلى جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ٢٨٤ ، الطبرى جـ ٣ ص ١٢٣ ، فتح البارى جـ ٨ ص ٤٢ ، العينى على البخارى جـ ١٧ ص ١١٣ ، طبقات ابن سعد جـ ٢ ص ١٠٦

(٢) الواقدى فى مغازيه ذكر أنه كان مع خالد ٧٠٠ فارس من بنى سليم وليس معه من الأنصار رجل غير أبى قتادة بن أنس — ص ٤١٥ .

(٣) هذا البعث كان عقب فتح مكة فى شوال قبل الخروج إلى حنين عند جميع أهل المغازى — فتح البارى شرح البخارى جـ ٨ ص ٤٢ ، شرح العينى على البخارى جـ ١٧ ص ٣١٣

حتى نزل الغميصاء[١] وانتهى إلى بنى جذيمة ، فقال لهم ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا ، فوضعوه فقال لهم : استأسروا فاستأسروا ثم أمر بهم فكتفوا وعرضهم على السيف فقتل منهم من قتل .

انتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفع يديه إلى السماء وقال : « اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد » ثم دعا على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وأعطاه مالا وقال له : اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر فى أمرهم فجاءهم على ؛ فودى الدماء ، وما أصيب من الأموال حتى إنه ليدى ميلغة الكلب ، وبقيت معه بقية من المال أعطاها لهم تطييباً لنفوسهم ، واحتياطاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما لايعلم ولا يعلمون . وقد استحسن صلى الله عليه وسلم عمل عَلِيٍّ هذا وصوبه وسُرَّ به[٢] .

و إذ كانت هذه الحادثة ذات أهمية بالنسبة لخالد ؛ لأنها قد عيبت عليه ، واعتبرت سيئة فى تاريخه المجيد فيحسن بنا أن ندلى برأينا فيها علنا نوفق إلى شىء من الصواب أو مايقارب به . والفصل فى هذه الحادثة يتطلب أن نعرض أمامنا هذه الأسئلة ونجيب عنها إجابات صريحة وهى :

١ — هل قاتل خالد قوماً كافرين أو قوما مسلمين ؟ .

٢ — هل كان غير مصيب فى قتلهم ؟ .

٣ — إذا كان مخطئاً فهل قتلهم للتشفى وثارت الجاهلية ، أو كان متأولا ؟ .

٤ — إذا كان له عذر فى قتلهم فما هو ذلك العذر ؟

أما عن السؤال الأول فإن القوم لو كانوا كفاراً لما كان هناك مايبرر تلك الضجة التى أثيرت حول قتالهم ، ولما كان هناك معنى للمشادة التى حصلت بين خالد وبين عبد الرحمن بن عوف واتهامه خالداً بأنه قتلهم ثأراً لعمه الفاكه بن المغيرة[٣] ولما

(١) الغميصاء ماء من مياه بنى جذيمة — الطبرى ج ٣ ص ١٢٣

(٢) أسد الغابة ج ٢ ص ١٠٢

(٣) انظر تفصيل ذلك فى سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٨٤ ، الطبرى ج ٣ ص ١٢٣ وقد أوضحها جد الإيضاح فى الأغانى ج ٧ ص ٢٨٢ وما بعدها

أرسل النبى صلى الله عليه وسلم عَلِيًّا فودى قتلاهم ؛ إذ لو كانوا كفاراً حقيقة لما كان هناك معنى لدفع ديتهم ، ولكان قتالهم مباحاً غير محظور ، ولا إثم على من باشره . على أن كثيراً من المؤرخين الموثوق بروايتهم قد صرحوا بأسلامهم ونخص بالذكر من بينهم الواقدى واليعقوبى وابن سعد — لأنهم أقدم المصادر التى بين أيدينا — فيقول الواقدى فى مغازيه : [١]

« ثم مضى خالد بن الوليد إلى حى من كنانة بالأبرق يقال له بنو جذيمة فوجدهم يصلون صلاة الغداة .... فغشيهم خالد . فقال : ما أنتم قالوا : نحن مسلمون نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، قال : فمتى أسلمتم إن كنتم صادقين ؟ قالوا : الليلة حين بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كف يده عمن ألقى السلاح ، وقال : لا إله إلا الله ، فقلناها وصلينا »

ويقول ابن سعد فى طبقاته[٢] : «فانتهى إليهم خالد فقال: ما أنتم قالوا : مسلمون ؛ قد صلينا وصدقنا بمحمد ، و بنينا المساجد فى ساحاتنا وأذنا فيها » .

ويقول اليعقوبى :[٣] « فقال لهم خالد : ضعوا السلاح فقالوا : انا لا نأخذ السلاح على الله ولا على رسوله ، ونحن مسلمون فانظر ما بعثك رسول الله له ؛ فان كان بعثك مصدقاً فهذه إبلنا وغنمنا فاعد عليها »

إذن فالقوم مسلمون :

وعن السؤال الثانى نقول : إن ابن سعد[٤] روى لنا أن المهاجرين والأنصار أرسلوا أساراهم وهذا معناه أنهم لم يروا ما يبرر قتلهم ؛ ولو كان القتل صوابا للبوا إليه سراعا ، ولما أرسلوا أسراهم ، وعرضوا أنفسهم لمخالفة أميرهم خصوصاً وأن فيهم الكثير من جلة الصحابة وفضلائهم كابن عمر وعبد الرحمن بن عوف .

---

(١) ص ٤١٥

(٢) جـ ٢ ص ١٠٦

(٣) جـ ٢ ص ٦٣

(٤) جـ ٢ ص ١٠٧ ويرشح هذه الرواية ما سنذكره من رواية البخارى عن ابن عمر

وما لنا نميل يمنة ويسرة والنبي صلى الله عليه وسلم قد حكم الحكم الذى لا يحتمل النقض ولا الجدل بقوله : « اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد » فهذا صريح فى أن خالداً فعل ما لا يرضى النبي صلى الله عليه وسلم حتى تبرأ من فعله . و بعبارة أخرى كان خالد غير مصيب فى قتلهم . وقد صرح بذلك فى الاستيعاب [1] حيث يقول : « . . فقتل منهم ناسا لم يكن قتله لهم صواباً فوداهم الرسول صلى الله عليه وسلم . . »

وعن الثالث نقول : إن خالداً لم يقتل بنى جذيمة لمحض التشفى وثارات الجاهلية ، و إلا لاقتص منه النبى صلى الله عليه وسلم ، وقاده حتما و بلا هوادة لكنه لم يفعل واكتفى بالتبرؤ من فعله . ولو لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم قد ارتأى أنه متأول لما تساهل فى قتله قصاصا بله أن يبقيه أميراً ويوليه ثقته ، ويجعله على مقدمة جيشه حين خرج إلى حنين وما بعدها . و إرسال النبي صلى الله عليه وسلم عليا ليدى القتلى والأموال دليل الخطأ لا العمد والقصد . وهذه أدلة شرعية وعقلية صحيحة فلا يعارضها ما روى من أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعلى حين أرسله : « واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك » [2] الأمر الذى يشعر بأن خالداً قتلهم لما كان بينه و بينهم من ثارات فى الجاهلية ؛ لأن هذه الرواية لا ترتفع إلى مستوى الدليل العقلى القاطع إلا إذا تبين صحتها وصدورها من النبى صلى الله عليه وسلم وهو مالم يقم عليه دليل بعد . ورواية البخارى ومعظم أهل الحديث — وهم الذين توافروا وعنوا أشد العناية بنقل ما صح عن النبى صلى الله عليه وسلم — لم تشر إلى صدور هذا القول منه صلى الله عليه وسلم ، كما لم يذكرها معظم المؤرخين ، وهذا مما يجعلنا نشك كثيراً فى صحتها ، وغاية ما تفيده هذه الرواية بعد هذا هو الظن المرجوح ، والظن و إن كان راجحا لا يعدل الدليل العقلى القاطع بله أن يكون مرجوحا .

---

(١) ج ١ ص ١٥٧

(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٨٤ ، الطبرى ج ٣ ص ١٢٤ ويلاحظ أن هذين المؤرخين قد رويا هذا القول عن راو واحد وهو ابن إسحاق .

الفصل في أمر بني جذيمة :

في ضوء هذه الإجابات يمكن أن نستخلص رأيا في هذه الحادثة : وهو أن القوم مسلمون ، وأن خالدا لم يكن مصيبا في قتلهم ، وأن قتله لهم لم يكن للتشفي والثأر ، ولكنه متأول ، وله نوع من العذر .

بقي علينا أن نجيب عن السؤال الرابع لنعرف ما عذره وعلى أي أساس قتلهم ؟

اعتذر بعض المؤرخين عن خالد فيما فعل . ومن ذلك ما ذكره ابن هشام والطبري عن ابن إسحاق [١] من أن خالدا اعتذر عن نفسه بقوله : ما قتلت حتى أمرني بذلك عبد الله بن حذافة السهمي وقال : « إن رسول الله قد أمرك أن تقاتلهم لامتناعهم عن الإسلام » ، ويظهر لنا أن هذه الرواية لا يعتمد عليها ؛ إذ لو كانت صحيحة لما كان هناك وجه للطعن على خالد بل كان اللوم يتجه أولا وبالذات على عبد الله بن حذافة ، الذي كان يجب أن يلقى جزاءه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لافترائه الكذب عليه ، وتسببه في قتل قوم مسلمين . ونحن نجل ابن حذافة أو أي صحابي آخر ليس في منزلته عن أن يفتري الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ويتقول عليه . هذا فضلا عن أنها تصرح بكفرهم وامتناعهم عن الإسلام ، وقد أثبتنا فيما سبق إسلامهم عن طريق العقل والنقل .

ولعل أصرح رواية وأصحها في الاعتذار عن خالد هي رواية البخاري عن ابن عمر إذ يقول : « بعث النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى بني جذيمة فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا فجعلوا يقولون : صبأنا صبأنا [٢] فجعل خالد يقتل منهم ويأسر ، ودفع إلى كل رجل منا أسيره حتى إذا كان يوم أمر خالد أن يقتل كل منا أسيره فقلت : والله لا أقتل أسيري ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره حتى قدمنا على النبي صلى الله عليه وسلم فذكرناه فرفع النبي صلى الله عليه وسلم يده

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٨٤ ، الطبري ج ٣ ص ١٢٤ .

(٢) وذكر مثله ابن هشام في سيرته ج ٢ ص ٢٨٤ نقلا عن أبي عمرو المدني .

فقال : « اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد » مرتين .[١]

وقد علق شراح الحديث على ذلك بما يوضح عذر خالد فيقول ابن حجر والبدر العينى : « صبأنا من صبأ إذا خرج من دين إلى دين ، وقريش كانوا يقولون لكل من أسلم : صبأ ، فمن ذلك فهم ابن عمر أنهم أرادوا الإسلام حقيقة ، وأما خالد فإنه لم يكتف بذلك حتى يصرحوا بالإسلام . وقال الخطابى : يحتمل أن يكون خالد نقم عليهم العدول عن لفظ الإسلام ؛ لأنه فهم عنهم أن ذلك وقع منهم على سبيل الأنفة ، ولم ينقادوا إلى الدين فقتلهم متأولا ، وإنما نقم رسول الله صلى الله عليه وسلم على خالد موضع العجلة وترك التثبت » .

كذلك اعتذر ابن تيمية فى كتابه منهاج السنة[٢] عن خالد بما يقرب مما قاله العينى وابن حجر وغيرهما بقوله : « فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا فقالوا : صبأنا صبأنا فلم يقبل ذلك منهم وقال : إن هذا ليس بإسلام فقتلهم . . . ولم يكن خالد معانداً للنبى صلى الله عليه وسلم بل كان مطيعاً له ، ولكن لم يكن فى الفقه والدين بمنزلة غيره فخفى عليه حكم هذه القضية . . . فإن خالداً لم يتعمد خيانة النبى صلى الله عليه وسلم ولا مخالفة أمره ، ولا قتل من هو مسلم معصوم عنده ، ولكنه أخطأ كما أخطأ أسامة ابن زيد فى الذى قتله بعد أن قال : لا إله إلا الله ، وقتل السرية لصاحب الغنيمة الذى قال : أنا مسلم[٣] » .

والعينى وابن تيمية ومن إليهم ممن تعرض لشرح حديث البخارى أئمة يعتد برأيهم فى مثل هذه الحادثة ، واعتذارهم عن خالد واضح صريح فى أن له بعض العذر ، وأن ما فعله كان خطأ منه ، ولم يكن تشفياً لثأر ولا تعمداً لقتل مسلم معصوم .

---

(١) البخارى بشرح العينى جـ ١٧ ص ٣١٣ .

(٢) جـ ٢ ص ٢٢٩

(٣) راجع الطبرى جـ ٣ ص ٩٩ ، ١٠٧ ، أسد الغابة جـ ١ ص ٦٥ ، ٣٠٥ ففيهما بيان الحادثتين : حادثة أسامة ، وحادثة السرية .

وسواء أكان الأمر الذى أهاج خالداً هو عدولهم عن التصريح بالإسلام ، أم ظنه أن ذلك أنفة منهم فإن له نوعاً من العذر ؛ لأن كلا الأمرين يهيج مثل خالد الشديد فى ذات الله ، والذى تربى تربية عسكرية من شأنها أن تجعل صاحبها يميل إلى البطش والشدة ، ومثله لا يعرف للحق إلا طريقاً واحداً ، ولا يرضيه إلا الحق الصراح ، وهو فوق ذلك يجهل أنه غير مصيب فى قتله إياهم ، خصوصاً وأن القوم حين رأوه أخذوا السلاح فكان هذا من دواعى سوء الظن بهم . على أنا نرى أن تحمسه للدين الذى يترتب عليه مثل هذا الصنيع أكثر مما يجب ولكن شأن الشهم الشجاع ألا يداهن ؛ فإما صبيح أباح ، وإما ضرب الرقاب .

وصفوة البحث أن خالداً أخطأ متأولا لا عن قصد وتعمد . وليس أدل على أن ما فعله ليس إلا عن اجتهاد وتأويل من أنه ظل متمتعاً بثقة النبى صلى الله عليه وسلم ورضاه ؛ ولذا فإنا نراه عقب هذه السرية على مقدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة هوازن .

غزوة هوازن[1]

سار رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة يوم السبت لست ليال خلون من شوال سنة ثمان إلى هوازن بجيش الفتح وانضم إليه من أهل مكة قراب ألفين حباً فى الغنيمة ، أو تلبية للعصبية القرشية ، وذلك عندما بلغه أنها قد أجمعت على حربه ، وأنها خرجت بحدها وجدها لقتاله فكان خالد على مقدمة الجيش فى مائة فرس[2] هى خيل بنى سليم (وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قدم سليما من يوم خرج من مكة واستعمل عليهم خالد بن الوليد فلم يزل على مقدمته حتى ورد الجعرانة[3])

---

(١) هوازن قبيلة كبيرة من العرب فيها عدة بطون ينسبون إلى هوازن بن منصور بن عكرمة ابن خصفة بن قيس عيلان بن إلياس بن مضر — العينى على البخارى ج ١٧ ص ٢٩٦

(٢) السيرة الحلبية ج ٣ ص ١٦٣ ، ١٦٥ .

(٣) الجعرانة ماء بين الطائف ومكة وإلى مكة أقرب — معجم البلدان ج ٣ ص ١٠٩

وانتهى النبي صلى الله عليه وسلم إلى حنين مساء الثلاثاء لعشر ليال خلون من شوال[١] .

و بينما جيش المسلمين ينساب فى وادى حنين[٢] فى عماية الصبح معتزاً بقوته ، ومغترا بكثرته إذ استقبلتهم هوازن وساوروهم ، ورشقوهم بالنبل وأصلتوا السيوف ، وحملوا حملة رجلة واحد ، وطلع عليهم كمينها فارتبك المسلمون وزلزلوا زلزالا شديداً ، وكانوا كما قال الله تعالى : « وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ » وانكشفت خيل بنى سليم[٣] وتبعهم أهل مكة والناس فهامت إبل المسلمين لا تلوى على شىء ، ولم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم إلا نفر يسير[٤] من المهاجرين والأنصار وأهل بيته .

نصروا نبيهم ، وشدوا أزره بحنين يوم تواكل الأبطال

ثم فاءت إليه فئة واجتلدوا لعدوهم ، وأخلصوا لله فى قتالهم ، وتراموا على الموت دفاعاً عن نبيهم ودينهم « فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ » وحقت الهزيمة على هوازن .

بعد هذا نريد أن نعرف هل كان خالد من المُدْبِرين الفارين أم أنه كان من النفر القلائل الذين بقوا مع النبي صلى الله عليه وسلم ؟ وإذا كان من الفارين فهل رجع مسرعاً ، وكان له أثر فى المعركة ، أو مضى فى هزيمته ، ولم يرجع إلا وأسرى هوازن تحت سيوف المسلمين ؟

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٢ ص ١٠٨ .

(٢) وادى حنين بين مكة والطائف ، وبينه وبين مكة ثلاث ليال أو مقدار بضعة عشر ميلا بجنب ذى المجاز — العينى على البخارى ج ١٧ ص ٢٩٤ ومعجم البلدان ج ٣ ص ٣٥٤ ، طبقات ابن سعد ج ٢ ص ١٠٨ ، الطبرى ج ٣ ص ١٢٥ .

(٣) طبقات ابن سعد ج ٢ ص ١٠٩

(٤) راجع أسد الغابة ج ١ ص ١٦١ ففيه تفصيل النفر الذين ثبتوا مع رسول صلى الله عليه وسلم ولم يفروا .

لم نر فى كتب التاريخ التى اطلعنا عليها ما يثبت أن خالداً كان من النفر الذين بقوا مع النبى صلى الله عليه وسلم ولم يفارقوه ، ومن الطبعى أن ينهزم مَنْ فى مثل موقفه مع المنهزمين ؛ إذ أنه أمير على خيل بنى سليم ، وهى مقدمة الجيش ، وهى التى انهزمت أولا فتبعها الناس ، ولا تثريب عليه فى ذلك ؛ فمثل هذا الانهزام قد يساق إليه بعض الشجعان البواسل سوقاً ، ولكنهم لا يثبتون على هزيمتهم متى أمكنتهم فرصة ، وهو ما نراه فى مثل موقف خالد ، وكثير من أجلاء الصحابة : فكان الواحد منهم حينما يسمع نداء المنادى[1] ولا يمكنه أن يوجه بعيره نحو الصوت — لشدة الزحام من الهزيمة — يتقلد سيفه وينزل عن بعيره فيؤم الصوت . والثابت أن خالداً لم يمض فى هزيمته بل رجع من قريب وكان فى الموقعة حين حمى وطيسها ، وكأنه أراد أن يتدارك مافاته — حين أكره على أن ينساق مع بنى سليم فى هزيمتهم — فأبلى البلاء الحسن ، ولم ينج من سيفه حتى النساء ؛ فقد قتل فيمن قتل امرأة ، فأرسل إليه النبى صلى الله عليه وسلم من ينهاه عن قتل النساء والأطفال ، وما زال يجول فى المعركة ويطعن فى نحر عدوه حتى أثبتته الجراحات البليغة التى كانت داعية لعطف النبى صلى الله عليه وسلم عليه ، وسؤاله عن رحله لعيادته[2]

خالد فى غزوة الطائف[3]

سار النبى صلى الله عليه وسلم لحرب ثقيف وَفَلِّ هوازن ، ولم تمنع خالدا

---

(١) « قال الطبرى : فلما رأى الرسول صلى الله عليه وسلم الناس لا يلوون على شىء قال يا عباس اصرخ : « يا معشر الأنصار . . . . . فيذهب الرجل منهم يريد ليثنى بعيره فلا يقدر على ذلك فيأخذ درعه فيقذفها فى عنقه ويأخذ سيفه وترسه ثم يقتحم عن بعيره فيخلى سبيله فى الناس ثم يؤم الصوت حتى ينتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . . . » ج ٣ ص ١٢٨ .

(٢) السيرة الحلبية ج ٣ ص ١٦١ ، أسد الغابة ج ٢ ص ١٠٣ ، ج ٣ ص ٢٨٤ .

(٣) الطائف بلد مشهور بينها وبين مكة اثنا عشر فرسخا من جهة المشرق ذات مزارع ونخل وأعناب وفيها الأودية والمياه الجارية . طيبة الهواء وهى من أحسن المصايف وهى مصيف مكة قال الشاعر :

تشتو بمكة نعمة ومصيفها بالطائف

ياقوت ج ١ ص ١١ ، العينى ج ١٧ ص ، ٣٠٢

جراحاته من أن يؤدى للقيادة حقها ، فكان على مقدمة الجيش فى مائة فارس[١] من بنى سليم — وهم الذين خرج بهم من مكة — حتى عسكر قريبا من حصنهم وحاصرهم المسلمون ثمانية عشر يوماً كان خالد ينادى فى أثنائها : هل من مبارز ؟ فلا يجيبه أحد . وأخيراً ناداه عبد ياليل عظيم ثقيف قائلا : « لاينزل إليك منا أحد ، ولكن نقيم فى حصننا ، فإن فيه من الطعام مايكفينا سنين . . »[٢]

وفى ذلك يقول بجير بن زهير بن أبى سلمى .

كانت علالة يوم بطن حنينكم ... وغزاة أوطاس ويوم الأبرق

جمعت هوازن جمعها فتبددوا ... كالطير تنجو من قطام أزرق

لم يمنعوا منا مقاماً واحداً ... إلا جدارهم وبطن الخندق

ولقد تعرضنا لكى ما يخرجوا ... فتحصنوا منا بباب مغلق[٣]

أذن النبى صلى الله عليه وسلم بالرحيل راجعاً إلى « الجِعِرَّانَة » حيث غنائم هوازن وعندما انتهى من قسمتها قال رجل من المنافقين[٤] : ما أريد بهذه القسمة وجه الله ، فقال عمر : ألا نقتله . وقال خالد ألا أضرب عنقه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لا ، لعله يُصلى » .

واستئذان خالد فى أن يضرب عنق هذا المنافق وإن بدا أمراً هَيِّناً لكنه يصور لنا مقدار حبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحدبه عليه ، وتفانيه فى إجلاله وإعظامه ، كما يكشف عن شدته فى دينه ، وعدم هوادته مع كل من يبدو منه ميل أو انحراف عن الجادة[٥] ، وليس جزاء من يصم النبى صلى الله عليه وسلم بقبيح ، أو يشك فى عدله ونزاهته ، إلا أن يضرب عنقه .

---

(١) السيرة الحلبية جـ ٣ ص ١٦٣

(٢) السيرة الحلبية جـ ٣ ص ١٦٥ .

(٣) أسد الغابة جـ ١ ص ١٦٥

(٤) قيل اسمه معتب ، وقيل هو ذوالخويصرة التميمى ، السيرة الحلبية ج ٣ ص ١٧١ ، ١٧٢

(٥) فى البخارى حادثة تشبه هذه عندما أرسل على كرم الله وجهه مالا من اليمن فقال رجل مثل هذه المقالة ، فقام إليه خالد مستأذنا فى قتله فمنعه النبى صلى الله عليه وسلم — البخارى بشرح العينى جـ ١٨ ص ٧ ، وراجع ابن كثير جـ ٤ ص ١٠٦ .

إرسال خالد إلى بنى المصطلق[١]

بعث النبي صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة بن أبى معيط إلى بنى المصطلق مصدقاً فى أوائل السنة التاسعة بعد إسلامهم بعامين[٢] ولما بلغهم بعثه إليهم خرجوا للقائه كرامة لقدومه فهابهم ، وتوهم أنهم خرجوا لقتاله — وكان بينهم و بينه شحناء فى الجاهلية — فرجع إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره أنهم قد ارتدوا عن الإسلام[٣] ؛ فبعث النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد وأمره أن يتثبت ولا يعجل ، وأن يرمقهم عند الصلاة ؛ فإن كانوا قد تركوها فشأنه بهم ، فانطلق حتى أتاهم ليلا فبث عيونه ؛ فلما جاءوه أخبروه بأنهم متمسكون بالإسلام ، وأنهم سمعوا أذانهم وصلاتهم ، فلما أصبحوا أتاهم خالد فرأى مايعجبه ، فرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر[٤] ؛ فنزل قوله تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ... » فكان نبى الله يقول : « التبيُّن من الله ، والعجلة من الشيطان[٥] » .

هذا وقد اختلف أصحاب السير والمفسرون عند قوله تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ . . . . » فيما كان بعد أن رجع الوليد بن عقبة إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وأخبره بأنهم ارتدوا وهموا بقتله ؛ فمنهم من قال : إنه عقب رجوع الوليد هم النبى صلى الله عليه وسلم بقتالهم ، وأكثر المسلمون من ذكر غزوهم ،

---

(١) بنو المصطلق بطن من خزاعة وهم بنو جذيمة ، وجذيمة هو المصطلق من الصلق وهو رفع الصوت — السيرة الحلبية جـ ٢ ص ٣٦٤

(٢) السيرة الحلبية جـ ٢ ص ٣٧١

(٣) السيرة الحلبية جـ ٢ ص ٣٧١ ، ٤٨٨ ، تفسير الطبرى جـ ٢٦ ص ٧٩ ، تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١١ ، ١٢ ، تفسير البغوى جـ ٨ ص ١٠ طبع المنار ، أسد الغابة جـ ١ ص ٣٣٥

(٤) الأغانى جـ ٥ ص ١٤١ طبع دار الكتب .

(٥) تفسير الطبري جـ ٢٦ ص ٧٩

وفيما هم كذلك قدم وفدهم ؛ فأخبر أنهم خرجوا ليكرموا الوليد فقبل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك منهم[١] .

ومنهم من قال : إن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل خالداً وأوصاه وكان منه ما بينا آنفاً . وهذا القول هو ما نميل إليه ونرجحه :

(ا) لأن الذى تلوح به الآية الكريمة وهى قوله تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ . . . » ينطبق على القول الثانى من إرسال خالد ، ووصية النبى صلى الله عليه وسلم له بأن يتثبت ويتبين ، وليس فيها ما يشير إلى القول الأول من الهم بقتالهم ، والإكثار من ذكر غزوهم ، ومن المحقق أن هذه الآية نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط . قال ابن برهان الدين : « قال ابن عبد البر رحمه الله : لاخلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن فيما علمت أن قوله : « إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ » نزلت فى الوليد بن عقبة ابن أبى معيط حين بعثه النبى صلى الله عليه وسلم إلى بنى المصطلق لأخذ صدقاتهم[٢] »

(ب) ولأن كثيراً من رواة الأدب الموثوق بهم كصاحب الأغانى[٣] لم يتعرض للقول الأول ، واكتفى بإيراد القول الثانى ، وما كان من إرسال خالد وأمره بالتحرى والتثبت لمعرفة الحقيقة فى أمر هؤلاء القوم .

على أنه يمكن التوفيق بين القولين إذا قلنا إنه عقيب رجوع الوليد بن عقبة إلى المدينة أرسل النبى صلى الله عليه وسلم بعثاً إلى بنى المصطلق وعليه خالد بن الوليد لينفذ الخطة التى رسمها له رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأنه حينما شارف خالد ديارهم بث عيونه فجاءوه بأنهم مستمسكون بالإسلام ، ثم التقى بوفدهم وعلى رأسه الحارث بن ضرار يريد النبى صلى الله عليه وسلم ؛ فقد كان الحارث على اتفاق مع

---

(١) السيرة الحلبية جـ ٢ ص ٣٧١ ، تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١١ — ١٢ طبع المنار ، تفسير البغوى جـ ٨ ص ١٠

(٢) السيرة الحلبية ، تفسير ابن كثير ، وتفسير البغوى فى الصفحات السابقة ، الأغانى جـ ٥ ص ١٤١

(٣) الأغانى جـ ٥ ص ١٤١

النبي صلى الله عليه وسلم بأن يرسل إليه رسولا يقبض صدقات قومه فى إبّانٍ عَيَّنَاهُ فلما بلغ الإبان واحتبس رسول النبي صلى الله عليه وسلم ظنها الحارث سخطة من الله ورسوله عليهم ، فخرج فى وفد من قومه يريد النبي صلى الله عليه وسلم فقابلهم خالد ورأى مايعجبه فقفل راجعاً إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فأخبره بإسلامهم[1] .

هذا واختيار خالد للمسير إلى هؤلاء القوم ووصيته بالتثبت لا يخلو من حكمة ؛ فإن موقف النبي صلى الله عليه وسلم بإزاء هؤلاء القوم بعد الذى بلغه عنهم يتطلب أن يكون من يرسله إليهم حازماً مفكراً ، بعيد النظر واسع الحيلة يستطيع الكشف عن حقيقة القوم ، وأن يكوم قائداً ماهراً إذا احتاج الأمر إلى القتال . وخالد خير مَن تتوفر فيه هذه الأمور ، ووصية النبي صلى الله عليه وسلم له بأن يتثبت ولا يعجل هو مايقتضيه الحزم ، ولا يبعد أن يكون النبيّ صلى الله عليه وسلم خشى أن يتعجل خالد فى أمرهم ، وأن يأخذهم بالظنة خصوصاً وهم من بنى جذيمة ، وله معهم سابقة فكان الحزم تلك الوصية .

هـــدم وُدّ

وُدّ تمثال رجل كبير الجسم كان بوادى القرى بدومة الجندل ، وكان سدنته من بنى عامر بن عوف وهو المعروف بعامر الأجدار . ووصف الكلبى هذا التمثال فقال: قلت لمالك بن حارثة الأجدارى (وكان ممن رأى وداً ، ورأى خالداً حينما كسره) : صف لى وداً حتى كأنى أنظر إليه قال : « كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال، قد ذُبِرَ[2] عليه حلتان ، متزر بحلة مرتد بأخرى . عليه سيف قدتقلده ، وقد تنكب قوساً ، و بين يديه حربة فيها لواء ، ووفضة (أى جعبة) فيها نبل[3] » .

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد من غزوة تبوك لهدم وُد فخالت

---

(١) أسد الغابة جـ ١ ص ٣٣٥ .

(٢) نقش وزخرف .

(٣) الأصنام لابن الكلبى ص ٥٥ ، ٥٦ .

بينه و بين هدمه بنو عبد ود ، و بنو عامر الأجدار ؛ فقاتلهم خالد حتى قتلهم وهدمه وكسره وجعله جذاذاً .

وفى اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم خالداً لهدم هذا الصنم بعد اختياره لهدم العزى دلالة لاتخفى على ثقته به واطمئنانه إليه حتى فى أدق الأمور اتصالا بوظيفة الرسالة .

سرية خالد إلى دومة الجندل(١)

غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم الروم فى رجب من السنة التاسعة ، وفى أثناء مقامه بتبوك أرسل خالدًا فى أربعمائة وعشرين فارساً(٢) إلى أكيدر بن عبد الملك الكندى ثم السكونى (٣) صاحب دومة الجندل وكان يدين بالنصرانية .

سار إليه خالد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين وجده يصيد البقر كما أخبره بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ و يظهر أن بقر الوحش ذعر فى الوادى الذى كان فيه حينما أخذت سرية خالد وجهها إلى دومة ، فأخذت البقر طريقها وانتهت إلى دومة وباتت كما قيل تحك بقرونها باب الحصن فقالت له زوجه الرباب بنت أنيف بن عامر : هل رأيت مثل هذا قط ؟ فقال لا ، فقالت : من يترك هذا ؟ قال لا أحد ، وكانت ليلة صائفة مقمرة(٤) فركب فى نفر من أهله فيهم أخوه حسان ، خرجوا معه بمطاردهم ؛ فشدت عليه خيل خالد فاستأسر أكيدر وامتنع أخوه حسان وقاتل حتى قتل وهرب من كان معهما فدخل الحصن ، وأجار خالد أكيدر حتى يأتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يفتح له دومة الجندل ففعل ، وصالحه على ألفى بعير وثمانمائة رأس وأربعمائة درع وأربعمائة رمح ، فعزل للنبى صلى الله عليه وسلم صفياً خالصاً ، ثم قسم الغنيمة فأخرج الخمس وكان للنبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قسم

(١) بضم الدال : حصن قرب جبلى طىء على سبعة مراحل من دمشق بينها وبين المدينة . معجم البلدان جـ٤ ص١٠٧ وهو أقرب إلى الشام وهو الفصل بين الشام وبين العراق . المصباح المنير .

(٢) طبقات ابن سعد جـ٢ ص١١٩ ، السيرة الحلبية جـ٣ ص٢٨٦ ، إمتاع الاسماع جـ٦ ص٤٦٣ .

(٣) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٦٩ .

(٤) أسد الغابة جـ ١ ص ١٦٤ ، ابن كثير جـ ٥ ص ١٧ ، طبقات ابن سعد جـ ٢ ص ١١٩ للسيرة الحلبية جـ ٣ ص ٢٨٦ .

ما بقى بين أصحابه فصار لكل رجل منهم خمس فرائض ، ثم خرج خالد بن الوليد بأكيدر وبأخيه مصاد — وكان فى الحصن — وبما صالحه عليه قافلا إلى المدينة ، فقدم بأكيدر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأهدى له هدية ثم صالحه على الجزية وحقن دمه ودم أخيه وخلّى سبيلهما وكتب له رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً فيه أمانهم وما صالحهم عليه وختمه يومئذ بظفره[١] .

كان على أكيدر قباء من ديباج مخوص بالذهب فاستلبه خالد وبعث به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل قدومه عليه ، فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم ويتعجبون منه . وأنشد بجير بن بجرة الطائى عقب رجوعه من هذه السرية بحضرة النبى صلى الله عليه وسلم :

تبارك سائقُ البقرات إنى رأيت اللهَ يهدى كلّ هادى
فمن يكُ عائداً عنْ ذى تبوك فإنا قد أُمرنَا بالجهـــادِ

فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : لا يفضض الله فاك ؛ فأتت عليه تسعون سنة وما تحركت له سن ولا ضرس[٢] .

إرسال خالد إلى نجران[٣]

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فى شهر ربيع الآخر وقيل فى جمادى الأولى من سنة عشر[٤] إلى بنى الحارث بن كعب بن مَذْحِجْ بنجران فى أربعمائة من المسلمين ، « وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً فإن استجابوا لك فاقبل منهم ، وأقم فيهم ، وعلمهم كتاب الله وسنة نبيه ، ومعالم الإسلام ، فإن لم يفعلوا فقاتلهم ، فخرج خالد حتى قدم عليهم فبعث الركبان يضربون فى كل وجه ،

---

(١) طبقات ابن سعد جـ ٢ ص ١١٩ — ١٢١ ، السيرة الحلبية جـ ٣ ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ امتاع الاسماع جـ ١ ص ٤٦٥ .

(٢) أسد الغابة جـ ١ ص ١٦٤ ، ابن كثير جـ ٥ ص ١٧ .

(٣) بالفتح ثم بالسكون وآخره نون — معجم البلدان جـ ٨ ص ٢٥٨ ، أسد الغابة جـ ٢ ص ١٠٣

(٤) اقتصر ابن الأثير على الرواية الأولى ولعلها أشهر وأصح .

ويدعون الناس إلى الإسلام ويقولون : « يأيها الناس أسلموا تسلموا » ، فأسلم الناس ودخلوا فيما دعاهم إليه فأقام خالد فيهم يعلمهم الإسلام ، وكتاب الله وسنة نبيه [١] .
ثم كتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً بإسلامهم ، فكتب إليه يستقدمه مع وفد منهم وهاك نص الكتابين :

« بسم الله الرحمن الرحيم . لمحمد النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم من خالد ابن الوليد . السلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته ، فإني أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد يا رسول الله صلى الله عليك فإنك بعثتني إلى بني الحارث ابن كعب وأمرتني إذا أتيتهم ألا أقاتلهم ثلاثة أيام ، وأن أدعوهم إلى الإسلام ، فإن أسلموا قبلت منهم ، وعلمتهم معالم الإسلام ، وكتاب الله ، وسنة نبيه ، وإن لم يسلموا قاتلتهم ، وإني قدمت عليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعثت فيهم ركبانا : يابني الحارث أسلموا تسلموا ؛ فأسلموا ولم يقاتلوا ، وأنا مقيم بين أظهرهم ، وآمرهم بما أمرهم الله به ، وأنهاهم عما نهاهم الله عنه ، وأعلمهم معالم الإسلام ، وسنة النبي صلى الله عليه وسلم حتى يكتب إِلَيَّ رسول الله والسلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته » .

فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد النبي رسول الله إلى خالد بن الوليد سلام عليك فإني أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فإن كتابك جاءني مع رسلك تخبر أن بني الحارث قد أسلموا قبل أن تقاتلهم ، وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام ، وشهادة أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن قد هداهم بهداه ، فبشرهم وأنذرهم ، وأقبل وليقبل معك وفدهم ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » . فأقبل خالد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبل معه وفد بلحارث [٢] .

---

(١) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٣٤٧ ، الطبرى جـ ٣ ص ١٥٦ .

(٢) الطبرى جـ ٣ ص ١٥٦ ، سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٣٤٧ ، أسد الغابة جـ٢ ص ٢٤٣ .

ومما يحسن ذكره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لوفدهم : « بم كنتم تغلبون من قاتلكم فى الجاهلية ؟ فقالوا : كنا نجتمع ولا نتفرق ولا نبدأ أحداً بظلم » قال صدقتم ، ثم أمر عليهم قيس بن الحصين ، ورجع وفدهم إلى قومهم فى بقية شوال ، أو فى صدر ذى القعدة فلم يمكثوا بعد أن قدموا إلى قومهم إلا أربعة أشهر حتى توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] .

بعث خالد إلى اليمن

روى الطبرى[٢] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث خالداً إلى اليمن داعياً للإسلام ؛ فذهب وأقام هناك ستة أشهر فلم يجبه أحد . ثم أرسل علياً فأجابوه ، ودخلوا فى دين الله أفواجا .

وروى ابن هشام وتبعه جماعة من أهل السير والمؤرخين[٣] أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث « على بن أبى طالب إلى اليمن ، و بعث خالد بن الوليد فى جند آخر وقال : إن التقيتما فالأمير على بن أبى طالب » .

وروى ابن كثير ما يؤيد الطبرى كما روى أن علياً ذهب إلى خالد ليقبض الصدقات[٤] .

ونلاحظ على رواية الطبرى أنه ذكرها فى حوادث السنة العاشرة ، وذكر أن إرسال على كان فى رمضان من تلك السنة بعد أن مضى على خالد فى اليمن ستة أشهر فلم يجبه أحد ؛ فيكون إرسال خالد على هذا فى ربيع الأول أو فى ربيع الآخر مع أننا سبق أن ذكرنا أن خالداً أرسله النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الوقت نفسه

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٣٤٧ ، الطبرى جـ ٣ ص ١٥٩ .
(٢) الطبرى جـ ٣ ص ١٥٩ .
(٣) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٣٦٥ ، السيرة الحلبية جـ ٣ ص ٤٨٨ .
(٤) البداية والنهاية جـ ٥ ص ١٠٤ وما بعدها ، أسد الغابة جـ ٤ ص ٢٧ ، ٢٨ .

إلى بنى الحرث بنجران . وهذا البعث متفق عليه من المؤرخين ، فإن كان إرساله إلى نجران هو ما تشير إليه هذه الرواية فقد ظهر ضعفها ؛ إذ سبق أن قررنا أن أهل نجران أسلموا على يد خالد ، وذهب وفد منهم معه إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وإن كان إرساله إلى نجران حادثة أخرى غير ما تشير إليه هذه الرواية فقد ظهر ضعفها أيضاً . إذ لا يقبل عقلا أن يذهب شخص واحد فى وقت واحد إلى جهتين مختلفتين فتسلم على يديه إحدى الجهتين ، ويفد على رأس وفدهم فى الوقت الذى يقيم فيه فى الجهة الأخرى ستة أشهر فلا يجيبه أحد .

كذلك تتنافى هذه الرواية مع رواية ابن هشام ومن وافقه ؛ ومن هذا يتبين أن هذه الرواية لا تصح عقلا ، وتصطدم مع ما نقله غير واحد من أهل السير ؛ ولذا فإنا لا نتحرج من عدم التعويل عليها .

أما رواية ابن هشام ومن سار على غراره فالعقل يسايرها والمنقول يرشحها ، وذلك بأن يكون النبى صلى الله عليه وسلم أرسل علياً إلى اليمن فى جند ، وأرسل خالداً فى جند آخر ، وعين لكل واحد منهما جهة يدعو إلى الله فيها ، لكن الجهتين متقاربتان ، وقال لهما : « إن التقيتما فالأمير على » ؛ فالتقيا بعد أن أدى كل منهما رسالته ، فكانت الإمارة لعلى ، وإليه كان قبض الصدقات ، وهذا ما صرح به الحافظ ابن كثير فى أكثر من موضع .

هذا والناظر إلى تلك الأعمال الجليلة التى عهد النبى صلى الله عليه وسلم إلى خالد القيام بها يتبين له أنه منذ أسلم كان موضع ثقة الرسول ، يوليه أعنة الخيل ويجعله على مقدمة الجيش ، وكان كما قال عن نفسه : « لم يعدل بى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منذ أسلمت أحداً من أصحابه فيما حزبه » . فكانت المدة التى قضاها فى الصحبة لا تخلو من أن يكون مجاهدا بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أميراً على سرية يكافح أعداء الإسلام وينشر دين الله ، ولم نره منذ أسلم تخلف

عن خرجة ، أو غزوة غزاها النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فكان مرافقاً له فى كل أسفاره حريصاً على رضاه ، كما كان حريصاً على أن يحتفظ لنفسه بشىء من أثره الشريف ، ولقد روى عنه أنه قال : « اعتمرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عمرة اعتمرها ، فحلق شعره فاستبق الناس إلى شعره ، فسبقت إلى الناصية ، فأخذتها ، فاتخذت قلنسوة ، فجعلتها فى مقدم القلنسوة فما وجهته فى وجه إلا وفتح له[1] » .

ولقد كان له بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم الأثر الجليل والذكر الخالد فى نصرة دين الله وإعلاء كلمته .

---

(١) أسد الغابة جـ ٢ ص ١٠٢ .

obeikandl.com

الباب الثالث

أعمال خالد وفتوحه فى زمن أبى بكر رضى الله عنه

أثره فى حروب الردة

(١) طليحة الأسدى ، (٢) مالك بن نويرة ، (٣) مسيلمة الكذاب

تمهيد :

قبل الكلام على حرب خالد المرتدين يحسن بنا أن نلم إلمامة خفيفة بحالة العرب حين وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم فنقول :

كان الكثير من سكان الجزيرة العربية من أهل البادية والأعراب الرحل الذين لم يتعودوا الخضوع لقانون أو نظام ، جفاة لم يهذبهم دين ، ولم ترق بهم مبادىء اجتماعية ، وأسس مدنية ، حديثو عهد بكفر ، والنفس بطبيعتها تنزع إلى قديمها ، وتحن إلى مألوفها ، وتود الرجوع إلى خيمها . والإسلام قد ألزمهم بتكاليف خاصة ، وأخذهم باتباع قوانين لا يلائم الكثير منها طباعهم ، وما نشأوا عليه ، كمنعهم من الأخذ بالثأر ، وحدهم على الزنا . . . وهم فوق ذلك لا صحبة لهم أصلا بالنبى صلى الله عليه وسلم ، أو لهم صحبة ليست طويلة حتى تتهذب نفوسهم ، وتسمو طباعهم ، وتصفو من عقائد الشرك ، ولم يتدبروا الإسلام ويفهموه فتشرب نفوسهم حبه ، وكثير منهم أسلم تبعاً لإسلام رؤسائهم ، لا حباً فى الدين ، ومعرفة به ؛ حتى لقد أدى بهم جهلهم بالدين أنهم فهموا أن دفع الزكاة ما هو إلا نوع من الأتاوة يلزمون بدفعه ، ولم يفقهوا أنها صدقة تؤخذ من ذوى اليسار منهم لترد على أهل الحاجة فيهم ، وأنها مبدأ تعاونى جليل ، ومن أهم المبادىء التى ترقى بالمجتمع ، وتجعله فى عيشة راضية وتسير به فى حياة طيبة هادئة .

فما إن سمعوا بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم حتى ظنوها فرصة للتخلص من ذلك الدين ، وتلك التكاليف ، فأصبحوا بين مانع للزكاة ، وتارك للدين ، أو متبع لأفراد تنبأوا رجاء أن يكون لهم فى زعمهم ما لنبي قريش . ثم أعلنوا تمردهم على الدين القويم ، وعصيانهم لأوامره ، فاضطربت جزيرة العرب ، واختلط الحابل بالنابل ، وكفرت الأرض وتصرمت « ونجم النفاق واشرأبت اليهود والنصارى ، والمسلمون كالغنم فى الليلة المطيرة الشاتية لفقد نبيهم صلى الله عليه وسلم ، وقلتهم وكثرة عدوهم[1] » . وبالجملة فإن جزيرة العرب أصبحت كالبركان الثائر : هياج واضطراب ، وردة وإلحاد ، وزيغ عن الدين القويم ، والصراط المستقيم . ولم ينج من هذه الفتنة الحالكة إلا أهل مكة والمدينة والطائف ، وقليل غيرهم من أهل البادية والأعراب .

تلك هى حال العرب بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهى حال تتطلب لتهدئتها وتسكينها إرادة صارمة ، وعزيمة ماضية ، وثقة بنصر الله ، وتأييده لأهل دينه .

كانت هذه الصفات مكتملة ، متوفرة فى الخليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم أبى بكر رضى الله عنه ؛ فقد برهن بموقفه الحازم إزاء المرتدين ، كما برهن عند وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم — وقد ذهل جميع الصحابة ، ونفى بعض فضلائهم كعمر رضى الله عنه[2] أن يكون محمد قد مات — أنه رجل الساعة ، وأنه جدير بالاضطلاع بأعباء الخلافة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مثل الوقت الذى تولاها فيه .

لم تكن وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا وقعها الأليم على نفسه وعلى المسلمين ، ولا ما يرد كل يوم من أخبار العرب وارتدادهم بمانع أبا بكر من تنفيذ الخطة التى رسمها ، ولا موهن لعزيمته ، أو مضعف من ثقته بربه ، فبين هذه الفتن

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢١٢ .

(٢) الطبرى ج ٣ ص ١٩٧ ، ١٩٩ .

والأنباء المخذلة قام بإنفاذ جيش أسامة — وكان قد توقف عن السفر حين مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم — رغم معارضة بعض كبار الصحابة فى تسييره ، ثم رغبتهم فى استبدال آخر بأسامة يكون أسن منه إن كان لا بد من تسييره . ولقد تبين بعد ، أن إنفاذ هذا الجيش كان من توفيق الله لأبى بكر ؛ فقد وهنت نفوس العرب ، وكفوا عن كثير مما اعتزموا عليه .

لم يفت أبا بكر أن يكون بعض المرتدين قد أراد غزو المدينة ، أو قصدها بسوء ؛ فأخذ الحيطة لنفسه وحذر ، فجعل كل من فيها من رجال مجندين وعلى استعداد للطوارىء ، ولقد كان لهذا الاستعداد أثر محمود ؛ فقد تمكن من عبس وذبيان وغيرهما ممن أراد المدينة بسوء ، وحين رجع أسامة وجم جنده ، وثاب من حول المدينة خرج إلى ذى القصة وخالد يحمل لواءه[1] ، فقطع فيها الجند ، وعقد الألوية وسير الجيوش لإخضاع العرب وإرجاعهم إلى الجادة .

عقد أحد عشر لواء لأحد عشر قائداً ، وعين لكل قائد الجهة التى يقصدها ، والقوم الذين يلى قتالهم ، وكتب لهم عهداً صورته واحدة ، وفصلت الأمراء بجيوشها من ذى القصة[2] بعد أن كتب للمرتدين كتاباً واحداً « منشورا[3] » أرسله إليهم ليكون نذيراً لهم بين يدى جيوشه ، وليكون أعذر إليهم قبل الإيقاع بهم .

وفيما يلى أسماء الأمراء والجهات التى قصدوها :

١ — خالد بن الوليد : وجهه لقتال طليحة بن خويلد الأسدى ببزاخة فإذا فرغ منه قصد مالك بن نويرة بالبطاح إن أقام له .

٢ — عكرمة بن أبى جهل : وجهه إلى مسيلمة الكذاب .

٣ — شرحبيل بن حسنة : وجهه فى إثر عكرمة ، فإذا فرغا من أمر مسيلمة قصد قضاعة .

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزى ج ١ ص ٢٧٠ .

(٢) منزل من المدينة على بريد تلقاء نجد — الطبرى ج ٣ ص ٢٢٥ ، ٢٢٧ .

(٣) العهد والكتاب موجودان بنصهما فى كتب التاريخ المبسوطة — راجع الطبرى ج ٣ ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، وكان هذا المنشور أول منشور عام يقرأ فى مجامع الناس وأنديتهم .

٤ — المهاجر بن أبى أمية : وجهه إلى الأسود العنسى بصنعاء ، ومعونة الأبناء على قيس بن المكشوح ومن أعانه ، ثم يمضى إلى كندة بحضرموت .

٥ — حذيفة بن محصن : وجهه إلى دبا بعمان .

٦ — عرفجة بن هرثمة : وجهه إلى أهل مهرة وأمره هو وحذيفة أن يجتمعا وكل أمير على صاحبه فيما وجه إليه .

٧ — سويد بن مقرن : وجهه أهل إلى تهامة اليمن .

٨ — العلاء بن الحضرمى : وجهه إلى أهل البحرين .

٩ — طريفة بن حاجز : وجهه إلى بنى سليم ومن انضم إليهم من هوازن .

١٠ — عمرو بن العاص : وجهه إلى جماع قضاعة ووديعة والحارث .

١١ — خالد بن سعيد بن العاص : وجهه إلى مشارف الشام .

و بالنظر فى هذا الثبت يتبين أن أبا بكر لم يول أحد أولئك القواد أكثر من ناحية واحدة ، وربما أشرك اثنين فى ناحية ، ما عدا خالد بن الوليد فقد ولاه أمر طليحة ، ومالك بن نويرة ، ثم مسيلمة بعد انهزام من وجه إليه من القواد ، مما يدل على عظيم ثقته فيه ، واعتماده عليه ، وأنه حقاً سيف الله وفاقىء عين الردة .

ونسنا فى معرض أعمال أولئك القواد حماة الإسلام ، و بيانها ، ونكايتهم فيمن وجهوا إليهم فلذلك موضع آخر ؛ ولذا فأنا سنقصر القول على خالد ومن وجه إليهم بياناً لبلائه فى قتالهم ، والتنكيل بهم ، وأولهم طليحة الأسدى :

طليحة

هو طليحة بن خويلد الأسدى من بنى أسد بن خزيمة تنبأ فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم بعد حجة الوداع حين علم بمرضه طمعاً فى أن يكون له مالارسول صلى الله تعالى عليه وسلم .

وجه النبى صلى الله عليه وسلم ضرار بن الأزور إلى بنى أسد ، وأمرهم بالقيام على من ارتد ، فأشجوا طليحة وأخافوه ، وضعف أمره حتى لم يبق إلا أخذه سلماً إلا أن ضراراً ضربه بالسيف فنبا عنه ، فشاع بين الناس أن السلاح لايحيك فيه ؛

فتزايد جمعه ، وكثر أتباعه ، وفيما هم على ذلك جاء نعى النبي صلى الله عليه وسلم فعظم أمره وتفاقم ، وسجع الأكاذيب[١] وادعى أن جبريل يأتيه ، وأمرهم أن يعبدوا الله قياماً ، وأن يتركوا السجود فى الصلاة ، وظاهره كثير من العرب للعصبية ؛ ولذا فإنا نجد أكثر أتباعه من أسد وغطفان وطيء وعبس وذبيان ومن لف لفهم . ومن هذه القبائل من هم فى حلف مع قبيلة أخرى ، أو يجمعها بسواها أب واحد[٢] .

أمر أبو بكر خالداً أن يسير بجيشه الذى يبلغ أربعة آلاف مقاتل قليل منهم من المهاجرين والأنصار ، وأن يبدأ بطيء على الأكناف[٣] ثم يكون وجهه إلى البزاخة[٤] ثم يثلث بالبطاح ، ولا يريم إذا فرغ من قوم حتى يحدث إليه ، ويأمره بذلك ، وأظهر أبو بكر أنه خارج إلى خيبر ، ومنصب عليه منها حتى يلاقيه بالأكناف وقد أوعب الناس مع خالد ولكنه فعل ذلك مكيدة وإرهاباً للعدو ، فقعد ذلك طيئاً و بطأهم عن طليحة[٥] .

وكان أبو بكر قد بعث عدى بن حاتم إلى قومه قبل أن يوجه خالداً اليهم ، وقال له : « أدركهم لا يوكلوا » ويجتاحهم خالد بمن معه[٦] ، فأسرع عدى إلى قومه (الغوث من طيء) ودعاهم وخوفهم ، وصار يقتلهم فى الذروة والغارب حتى أجابوه وقالوا له : استقبل خالداً فنهنهه عنا ثلاثاً حتى نستخرج من لحق بالبزاخة منا ، فإنا إن خالفنا طليحة ، وهم فى يده قتلهم أو ارتهنهم »[٧] . فاستقبل عدى خالداً

---

(١) من ذلك قوله : « والحمام واليمام والصرد الصوام قد صمن قبلكم بأعوام ، ليبلغن ملكنا العراق والشام » الطبرى جـ ٣ ص ٢٣٢ .

(٢) « كان بين بنى أسد وغطفان وطيء حلف فى الجاهلية » — الطبرى جـ ٣ ص ٢٣٠ .

(٣) الأكناف جبلا طيء : سلمى وأجأ — معجم البلدان جـ ١ ص ٣١٨ .

(٤) بزاخة بالضم والخاء المعجمة : ماء لبنى أسد — ياقوت جـ ٣ ص ١٦١ ، الطبرى جـ ٣ ص ٢٢٨ .

(٥) الطبرى جـ ٣ ص ٢٢٧ ، جـ ٣ ص ٢٢٨ .

(٦) يظهر أن أبا بكر كان يعرف من خالد الشدة والبطش ، ولذا فقد أرسل عديا إلى قومه حتى لا يبطش بهم خالد .

(٧) الطبرى جـ ٣ ص ٢٢٨ .

وهو بالسنح[١] وقال له : « أمسك عنى ثلاثاً يجتمع لك خمسمائة مقاتل تضرب بهم عدوك ، وذلك خير من أن تعجلهم إلى النار ، وتشاغل بهم » وجاء مَن عند طليحة منهم كالمدد لقومهم ، ورجع عدى إلى خالد بإسلامهم ، فارتحل نحو «الأنسر» يريد جديلة «فقال له عدى إن طيئا كالطائر ، وإن جديلة أحد جناحى طيء فأجلنى أياماً لعل الله أن ينتقذ جديلة كما انتقذ الغوث ؛ ففعل فأتاهم عدى ، فلم يزل بهم حتى بايعوه ، فجاءه بأسلامهم ، ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب فكان خير مولود ولد فى أرض طيء وأعظمه عليهم بركة »[٢] .

توجد خالد ومن انضم إليه من طيء تلقاء بزاخة ، وأرسل عكاشة بن محصن ، وثابت بن أقرم أحد بنى العجلان طليعة ، فقتلا حبالا أخا طليحة ، فلما بلغه مصرع أخيه خرج ومعه أخوه سلمة فقتلا عكاشة وثابتاً ثم رجعا ، وأقبل خالد بالناس حتى مروا بثابت بن أقرم قتيلا ، فلم يفطنوا له حتى وطئته المطى بأخفافها ، فكبُرَ ذلك على المسلمين ، ثم نظروا فإذا هم بعكاشة بن محصن صريعاً فجزع لذلك المسلمون وقالوا : قتل سيدان من سادات المسلمين ، وفارسان من فرسانهم ؛ فانصرف خالد نحو طيء[٣] — حينما رأى ما بأصحابه من الجزع لمقتل ثابت وعكاشه — وهناك تعبى للحرب . ثم إن طيئاً سألت خالدا أن تكفيه قيساً فان بنى أسد حلفاؤهم فقال لهم : اصمدوا إلى أى القبيلتين أحببتم ، فقال عدى : والله لا أمتنع عن جهاد بنى أسد لحلفهم ، فقال له خالد : إن جهاد الفريقين جميعاً جهاد . لاتخالف رأى أصحابك ، أمض إلى أحد الفريقين ، وامض بهم إلى القوم الذين هم لقتالهم أنشط[٤]

---

(١) السنح بضم أوله وسكون ثانيه وآخره حاء مهملة : موضع بنجد قرب جبل طيء ، معجم البلدان ج ٥ ص ١٤٩ .

(٢) الطبرى ج ٣ ص ٢٢٨ .

(٣) الطبرى ج ٣ ص ٢٢٨ .

(٤) الطبرى ج ٣ ص ٢٢٩ — وقولة خالد هذه قولة حكم خبير بنفوس من معه ، فإنه لو ألزمهم بقتال من يتحرجون من قتله لفاتلوهم فتور وبلا حماس وعزيمة .

سار خالد على تعبية يريد طليحة ببزاخة ، وكان عيينة بن حصن الفزارى قد انضم إليه فى سبعمائة من بنى فزارة[١] . ثم التقى الجمعان ودارت رحى الحرب واقتتل الناس قتالا شديداً ، وطليحة متلفف فى كسائه بفناء بيت له من الشَّعَر يتنبأ لهم ، فلما هزت عيينة الحرب وضرس القتال كر على طليحة فقال له : هل جاءك جبريل بعد ؟ قال : لا . فرجع ، وقاتل حتى إذا عضته الحرب وضرس القتال كر عليه فقال : لا أبالك أجاءك جبريل بعد ؟ قال : لا . فقال عيينة : حتى متى قد والله بلغ منا . ثم رجع ، فقاتل قتالا شديداً ثم كر عليه فقال : هل جاءك جبريل بعد ؟ قال : نعم . قال : فماذا قال لك ؟ قال : قال لى : إن لك رحاً كرحاه وحديثاً لا تنساه . فقال عيينة : قد علم الله أنه سيكون حديث لا تنساه ، يا بنى فزارة هكذا فانصرفوا فهذا والله كذاب ، فانصرفوا وانهزم الناس ، فغشوا طليحة يقولون : ما ذا تأمرنا ؟ فقام فوثب على فرسه ، وحمل امرأته ونجا بها — وكان قد أعد فرسه عنده وهيأ بعيرا لامرأته النوار — ثم قال : من استطاع منكم أن يفعل مثل ما فعلت ، وينجو بأهله فليفعل . فارفض جمعه . ثم سلك الحوشية حتى لحق بالشام ونزل فى كلب على النقع فأسلم[٢] ، وحسن إسلامه ، وكان ذا غناء ، وأثر محمود فى حروب الفرس فى أيام عمر بن الخطاب ، واستشهد هناك .

وقد قيل كثير من الشعر فى هذه الموقعة ، فمن ذلك قول القعقاع بن عمرو :

ويوما على ماء البزاخة خالد ... أثار بها فى هبوة الموت عثيراً

وقول ربيعة بن مقروم الضبى :

وقومى فإن أنت كذبتنى ... بقولى فاسأل بقومى خبيراً

بنو الحرب يوماً إذا استلأموا ... حسبتهم فى الحديد القروما

قدى ببزاخة أهلى لهم ... إذا ملئوا بالجموع الحريما[٣]

---

(١) الطبرى جـ ٣ ص ٢٢٩ .

(٢) الطبرى جـ ٣ ص ٢٢٩ — ٢٣٢ .

(٣) معجم البلدان جـ ٢ ص ١٦٢ .

هذا ولم يصب خالد على البزاخة عَيِّلاً واحداً من عيالات بنى أسد ، لأن عيالاتهم كانت محرزة[١] .

كان بنو عامر بن صعصعة فى سادتهم وقادتهم بالقرب من ساحة القتال لا يقدمون ولا يحجمون ، فلما دارت الدائرة على طليحة أقبلوا يقولون : ندخل فيما خرجنا منه ، ونؤمن بالله ورسوله ؛ فبايعوا خالداً على ما بايع عليه أهل بزاخة . وكانت بيعته : « عليكم عهد الله وميثاقه لتؤمنن بالله ورسوله ، ولتقيمن الصلاة ، ولتؤتن الزكاة ، وتبايعون على ذلك أبناءكم ونساءكم فيقولون نعم » . ثم إن خالداً لم يقبل من أحد من أسد ولا غطفان ولا من اف لفهم إلا أن يأتوه بالذين حرقوا ومثلوا ، وعدوا على أهل الإسلام فى حال ردتهم ، فأتوه بهم فقبل منهم إلا قرة بن هبيرة ، ونفرا معه أوثقهم . ثم إنه مثل بالذين عدوا على الإسلام فأحرقهم بالنيران ، ورضخهم بالحجارة ، ورمى بهم من الجبال ونكسهم فى الآبار ، وكتب إلى أبى بكر « إن بنى عامر أقبلت بعد إعراض ، ودخلت فى الإسلام بعد تربص ، وإنى لم أقبل من أحد قاتلنى ، أو سالمنى شيئاً حتى يجيئونى بمن عدا على المسلمين ؛ فقتلتهم كل قتلة ، وبعثت إليك بقرة وأصحابه »[٢] .

أوثق خالد عيينة بن حصن ، وقرة بن هبيرة ، فبعث بهما إلى أبى بكر ، فلما قدما عليه تجاوز عنهما وحقن دماءهما . ثم كتب إلى خالد : « ليزدك ماأنعم الله به عليك خيراً ، واتق الله فى أمرك ، فإن الله مع الذين اتقوا ، والذين هم محسنون . جد فى أمر الله ، ولا تَنِيَن ، ولا تظفرن بأحد قتل المسلمين إلا قتلته ، ونكلت به غيره ، ومن أحببت ممن حاد الله أو ضاده ممن ترى أن فى ذلك صلاحاً فاقتله[٣] » .

أقام خالد على البزاخة شهراً يصعد عنها ويصوب ، ويتتبع الثأر ويأخذ الصدقات ، ويدعو الناس ويسكنهم ، وفيما هو كذلك إذ بلغه تجمع الفلال من جند طليحة على

---

(١) الطبرى جـ ٣ ص ٢٣٢ .
(٢) الطبرى جـ ٣ ص ٢٣٣ .
(٣) الطبرى جـ ٣ ص ٢٣٣ .

أم زمل سلمى بنت مالك بن حذيفة (وهى من بنى فزارة) وقد أمرتهم بقتال المسلمين ، واستكشف جمعها ، وعظم أمرها ، فسار إليها وقاتلها وفض جمعها . وكانت تقاتل على جمل لأمها فعقره المسلمون حتى يقصر أمد القتال ، وقتلوها بعد أن قتل حول جملها مائة جمل[1] .

يحسن بنا بعد أن فاءت بنو أسد ، ومن تأشب إليهم إلى أمر الله أن نتعرف الأسباب التى ساعدت خالداً على النصر ، ورجحت كفته . وأهم هذه الأسباب فيما نرى : —

١ — أن خالداً وجيشه يقاتلون عن عقيدة واثقين بنصر الله وتأييده ، وبأن من قتل منهم قتل شهيداً ، ومن سلم عاش سعيداً ، يرددون قوله تعالى : « إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » ؛ فى حين أن أعداءهم إنما ينصرون شخصاً للعصبية فحسب ، وليس هناك ما يحببهم فى الموت ، أو ينشطهم للترامى على القتال ، وشتان بين الحالتين .

٢ — تورية أبى بكر ومكيدته من أنه سائر بجيش آخر يلاقى به خالداً لقتال العدو ، فإن وصول هذا الخبر لمسامع العدو ثبط من همته ، وبطأ بكثير ممن كان يريد الانضمام إليه ، وجعل الروح المعنوية فى جيشه خامدة لا حماسة فيها ، وهذا السبب وحده كاف لخذلان أكبر جيش ، فى حين أن جيش المسلمين كان يقاتل بحماسة وشجاعة ، وثقة بالفوز والنصر .

٣ — قتل الرجلين اللذين أرسلهما خالد طليعة للجيش أحفظ قلوب المسلمين وحرضهم على قتال عدوهم ، وتشفيهم منه ، ويتبين ذلك من قول الطبرى الذى ذكرناه آنفاً .

٤ — انضمام طيئ لجيش المسلمين زاد فى عدتهم ، ونشطهم بقدر ما أنقص من عدد عدوهم ، وأخمد حماسه .

---

(١) كانت أم زمل يضرب بها المثل فى عزها وكان يقال : من نحس جملها فله مائة من الإبل . انظر الطبرى ج ٣ ص ٢٣٤

٥ — تململ عيينة بن حصن الفزارى من القتال ، وتثبيطه همة قومه ونشاطهم ، ثم انصرافه فى قومه ، والمعركة فى أشدها فتابعه باقى الجيش فحقت الهزيمة .

٦ — إن طليحة الأسدى نفسه — وهو قلب الجيش وروحه — لم يكن واثقاً من النصر ، ورجل يقاتل على نية الهرب خليق بالهزيمة بله أن يكون هذا الرجل رئيس الجيش (١) .

٣ — مالك بن نويرة (٢)

كان بنو تميم قد وفدوا على النبى صلى الله عليه وسلم فأسلموا ، وأمر على بطونهم أمراء منهم ، ومن بينهم : الزبرقان بن بدر ، وصفوان بن صفوان ، وقيس بن عاصم ، ومالك بن نويرة . فلما سمعوا بموت النبى صلى الله عليه وسلم كان منهم من بقى على وفائه ، وما عاهد عليه الرسول ، فأرسل الصدقة إلى أبى بكر ، ومنهم من تردد ثم فاء إلى أمر الله ، ومنهم من منع الزكاة حتى قوتل وهو مالك بن نويرة .

وحين فرغ خالد من طليحة ومن تابعه ، سار يريد مالك بن نويرة بالبطاح (٣) ويظهر أن مالــكا كان يتوقع مجىء خالد لقتاله ؛ ولذا فقد أمر قومه بالتفرق ، ونهاهم عن الاجتماع ، فلما قدمهم خالد لم يجد أحداً بالبطاح فبث سراياه ، وأمرهم بداعية الإسلام وأن يأتوه بكل من لم يجب ، فإن امتنع قتلوه ، وذلك امتثالا لوصية أبى بكر التى تنص على : « أن يُؤَذِّنوا إذا نزلوا منزلا ، فإن أَذَّنَ القوم فـكفوا عنهم ؛ وإن لم يُؤَذِّنوا فاقتلوا وانهبوا ، وإن أجابوكم إلى داعية الإسلام فسائلوهم عن الزكاة ، فإن أقروا فأقبلوا منهم ، وإن أبوا فقاتلوهم » (٤) .

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢٢٩ .

(٢) هو مالك بن نويرة بن جمرة بن شداد بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع — طبقات الشعراء لابن سلام الجمحى ص ٤٨ ، خزانة الأدب للبغدادى ج ٢ ص ١٩ طبعة منير ، الإصابة ج ٦ ص ٣٦ المنتخب من ذيل المذيل للطبرى ص ٤٢ .

(٣) البطاح بالضم : منزل لبنى يربوع . معجم البلدان ج ٢ ص ٢١٤ .

(٤) الطبرى ج ٣ ص ٢٤٢ ، أسد الغابة ج ٤ ص ٢٩٦ .

جاءت السرايا بمالك بن نويرة فى نفر من قومه بنى ثعلبة بن يربوع ، واختلفت السرية التى جاءت به ؛ فقائل : إنهم لم يؤذّنوا ، وقائل شهد بأنهم أذّنوا ، وعلى رأس هذه الفئة أبو قتادة الصحابى الجليل الذى أقسم ألا يقاتل تحت راية خالد أبداً فلما اختلفوا فى أمرهم أمر بهم خالد فحبسوا — وكانت ليلة شديدة البرد — ثم أمر منادياً : أن دافئوا أسراكم (والمدافأة فى لغة كنانة : القتل) فقتلوهم ، وهو لم يرد إلا أدفئوهم ، وسمع خالد الواعية[1] فخرج ، وقد فرغوا منهم ؛ فقال : « إذا أراد الله أمراً أصابه » ، وكان الذى قتل مالكا ضرار بن الأزوَر الأسدى من بنى كوز[2] .

خرج أبو قتادة حتى أتى أبا بكر ، وأخبره بمقتل مالك ؛ فغضب عليه وألزمه بالرجوع للقتال تحت لواء أميره، فرجع إلى خالد ، وما زال معه حتى قدم و إياه المدينة . ولما سمع عمر ماحكاه أبو قتادة قال لأبى بكر : « إن فى سيف خالد رهقاً » ، وأكثر عليه فى ذلك ، وألح فى عزله ، فقال له : « هيه يا عمر تأول فأخطأ فارفع لسانك عن خالد فإنى لا أشيم سيفا سله الله على الكافرين »[3] وكانت سياسة أبى بكر ألا يقيد من عماله ووزعته ، وهى سياسة رشيدة تنفذها انجلترا الآن بعد أن عرفت قيمتها . وكتب إلى خالد أن يقدم عليه فقدم ، ودخل المسجد وعليه قباء له ، عليه صدأ الحديد ، وقد غرز فى عمامته أسهما ، فقام إليه عمر فحطمها ، ونال منه ، وأغلظ له القول[4] ، وخالد لا يتكلم ظنا منه أن رأى الخليفة كرأى عمر . ثم دخل على أبى بكر فأخبره الخبر ، واعتذر إليه ، فعذره وقبل منه ، وعنفه فى التزويج الذى كانت تعيب عليه العرب من ذلك ، وودى مالكا من بيت المال .

---

(١) الواعية : الصراخ والصوت — القاموس المحيط .

(٢) خزانة الأدب للبغدادى جـ ٢ ص ٢٢ .

(٣) الطبرى جـ ٣ ص ٢٤٢ ، ابن الأثير جـ ٢ ص ٢٤٢ ، المختصر لأبى الفداء جـ١ ص١٥٨ وشام سيفه يشيمه : غمده . القاموس المحيط .

(٤) الطبرى جـ ٣ ص ٢٤٢ ، ابن الأثير جـ ٢ ص ٢٤٣ وكان فيما قاله له : يا عدو الله قتلت امرأ مسلماً ثم نزوت على امرأته لأرجمنك — أسد الغابة جـ ٤ ص ٢٩٦ .

الفصل فى أمر مالك :

بقى علينا أن نعرف . هل راجع مالك الإسلام حين قدم عليه خالد ؟ أم كان لايزال مصراً على ردته ؟ وعلى فرض إسلامه فهل قتله خالد قصداً أو متأولا ؟

وفى الحق إن الفصل فى أمر مالك لمن الدقة والصعوبة بمكان ؛ لما يعتور هذه الحادثة من اللبس والغموض ، وتضارب الرأى والاختلاف . قال ابن سلام : « وحديث مالك مما اختلف فيه فلم نقف منه على ما نريد »(١) . على أن ذلك لايقعد بنا عن إبداء رأينا لعلنا نوفق إلى شىء من الصواب فنقول :

أما عن النقطة الأولى فإن مالكا كان ظاهر العداء للإسلام من بدء الردة حتى قدوم خالد عليه ، وإن معاودة أشراف تميم الإسلام صراحة سواه ، و إغارته على إبل الصدقة التى كانت برحرحان (٢) ، وتفريقه ما كان بيده منها ، وإنشاده الشعر الذى يظهر فيه الرجوع عن الإسلام ، وعدم مبالاته بما يجىء به الغد .

فقلت خذوا أموالكم غير خائف ولا ناظر فيما يجىء من الغد
فإن قام بالأمر المخوف قائم منعنا وقلنا الدين دين محمد

فهو يرى أن الدين دين محمد ، وهو الذى تدفع إليه الزكاة ، وقد مضى فليس لأحد بعده أن يطالب بها ، وقد كلمه الأقرع بن حابس ، والقعقاع بن معبد الدارمى ونصحاه بالتريث وعدم التسرع ، وقالا له : إن لهذا الأمر قائما وطالبا ، فلا تعجل بتفرقة مافى يدك ، فما كان جوابه إلا أن قال :

أرانى الله بالنعم المندى ببرقة رحرحان وقد أرانى
أثن قرت عيون فاستفيئت غنائم قد يجود بها بنانى
حويت جميعها بالسيف صلتا ولم ترعد يداى ولا جنانى
تمشّى يا ابن عوذة فى تميم وصاحبك الأقيرع تلحيانى

---

(١) طبقات الشعراء لابن سلام الجمحى ص ٤٨ .
(٢) رحرحان : ماء دوين بطن نخل — خزانة الأدب جـ ٢ ص ٢٠ طبع منير .

إلى آخر ماقال [١] كل ذلك يدل فى بادىء الرأى على عدم إسلامه . ثم ما باله يأمر قومه بالتفرق حين سمع بقدوم خالد ، ولماذا لم يقدم بين يديه الصدقة حتى فى آخر فرصة ، ويلاقى بها خالداً كما فعل وكيع بن مالك ، وسماعة — وهما من أشراف تميم — ليدرأ عن نفسه وقومه القتل ، وليكون أعذر له عند الناس .

على أن شهادة من شهد بإسلامه [٢] من المسلمين ، وفى مقدمتهم أبو قتادة لا تجعلنا نجزم بالرأى السابق لعلمنا بصدق شهادة أبى قتادة ، ولاموجب لأن يكذب ، وما كان لمثله أن يقدم على مخالفة أميره ، بل ويتركه فى جهاده ، ويذهب لشكايته للخليفة من غير أن يكون متثبتاً من رأيه جازماً به ، ولم يتبين بعد خطأ شهادته ، كما أنه من البعيد أن يأمر أبو بكر خالداً بالحضور إلى المدينة وترك الجيش — وهو القائد الأعلى له — لأمر مظنون عند أبى قتادة ، وما كان لعمر أن ينال من خالد ما نال حتى إنه طلب من أبى بكر أن يقيده بمالك ، وهو برىء من دمه ، أو قتله كافراً مهما كان بينهما من عداء شخصى . وقد ودى أبو بكر مالكا من بيت مال المسلمين ورد السبى ، وهذا يحمل فى طيه أن مالكا قتل مسلماً ، وأن خالداً لم يكن مصيباً فى سبيهم . قال فى أسد الغابة : « وقد اختلف فى ردته ، وعمر يقول لخالد قتلت امرأ مسلما ، وأبو قتادة يشهد أنهم أذنوا وصلوا ، وأبو بكر يرد السبى ، ويعطى دية مالك من بيت المال ؛ فهذا جميعه يدل على أنه مسلم [٣] » .

لكن من الجائز أن يكون أبو بكر أمر خالداً بالقدوم خشية أن يكون فى الجيش من يرى رأى أبى قتادة ؛ فيخرج على خالد ، أو يكره القتال تحت لوائه ، كما أن قدوم أبى قتادة إلى المدينة قد أشاع الخبر بين أهلها بالصيغة التى رواها لهم مما أدى إلى تشدد عمر وطلبه أن يقيد خالداً . فإزاء هذه المؤثرات طلب أبو بكر

---

(١) راجع طبقات الشعراء لابن سلام الجمحى ص ٤٨ وما بعدها ، وخزانة الأدب جـ ٢ ص ٢٠ وما بعدها من طبعة منير .

(٢) من المحتمل أن يكون الأذان من مالك ومن تابعه اتقاء للقتل ، وفرقاً من السيف كما آمن فرعون حين شارف الغرق فلم يقبل ذلك منه : « آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » .

(٣) أسد الغابة جـ ٤ ص ٢٩٦ .

قدوم خالد ليسمع رأيه ، كما أنا نلاحظ أن عمر لما آلت إليه الخلافة لم يرجم خالداً ولم يقتله ، ولا نظن بحال أن عمر الشديد فى الحق الذى لا يبالى بغير الله — وقد أصبح الأمر بيده — يترك خالداً يمشى على الأرض وعليه حَدُّ زِناً ، أو مهدر الدم قصاصاً ، ولا نظن أن مجاملته لأبى بكر فى رأى ارتآه هو الذى حال دون ذلك . ثم إن أبا بكر قد ودى مالكا وحده ولم يد أحداً ممن قتل على شاكلته[١] . ومن غير مراء حكم من قتل معه كحكمه ، ولو كان أبو بكر يرى أن هؤلاء قتلوا مسلمين لوداهم إن لم يقتص من قاتلهم . ولعل وَدْى مالك ، ورد السبى كان تطييباً لقلب أخيه متمم بن نويرة وقومه ، وتعزية لهم من مصيبتهم بقتل عميدهم .

ونحن إزاء هذا الغموض وتطرق الاحتمال إلى كل من طرفى الإثبات والنفى لا يمكننا أن نرسل القول بإسلام مالك ولا بقتله مرتدا ، وكل ما يمكن أن نقوله بشىء من التسامح والتساهل هو : أن مالكا راجع الإسلام .

وعن النقطة الثانية نقول : إن المؤرخين قد ذكروا فيها عدة روايات منها : ما سبق أن ذكرناه من أن خالداً قال : دافئوا أسراكم[٢] يريد أدفئوهم — وكانت الليلة باردة — ولكن القوم فهموا أنه يريد قتلهم فقتلوهم .

ومنها أن عمرو بن العاص قال لخالد : يا أبا سليمان إن رأت عينك مالكا فلا تزايله حتى تقتله[٣] .

فان صحت الرواية الأولى فلا ذنب على خالد فى قتله لأن الناس فهموا خطأ أنه يريد قتله . ويبدو لنا أن هذه الرواية لا يعتمد عليها ، وإلا لاعتذر خالد بذلك عن نفسه ، ولما كان هناك معنى لذهاب أبى قتادة لأبى بكر ، ولما قامت حول خالد كل هذه الضجة .

---

(١) كان عدة من أصيب مع مالك خمسة وأربعين رجلا من بنى يربوع — خزانة الأدب جـ ٢ ص ٢١ طبع منير .

(٢) إكرام الأسارى أمر معروف عن المسلمين حتى إن أحدهم ليؤثر أسيره على نفسه وينفحه بما عنده وصنيع المسلمين مع أسارى بدر خير شاهد .

(٣) طبقات الشعراء لابن سلام ص ٥٠ طبع ليدن .

والرواية الثانية — على فرض صحتها — لاتصلح مبررا للقتل لأن خالداً لايتلقى أوامره من عمرو بن العاص ، وليس فيها مايشير إلى أن ما قاله عمرو لخالد صادر عن رأى الخليفة .

والذى يصلح فى رأينا أن يكون عذراً لخالد هو .

١ — الأشعار التى قالها مالك مظهراً فيها رجوعه عن الإسلام ، وعدم مبالاته بالمسلمين وبما يجىء به الغد .

٢ — وصية أبى بكر التى سبق ذكرها ؛ فهى تنص على مقاتلة من لم يقر بالزكاة . ومالك قد التوى بالزكاة ؛ فقتاله إذن طاعة لأمر الخليفة .

٣ — كتاب أبى بكر لخالد بعد أن فرغ من طليحة الأسدى الذى يقول فيه « . . . جد فى أمر الله ولاتنين ولاتظفرن بأحد قتل المسلمين إلا قتلته ونكلت به غيره ، ومن أحببت ممن حاد الله أو ضاده ممن ترى أن فى ذلك صلاحا فاقتله » .

٤ — إن خالدا لما حاور مالكا وراده سمع بالصلاة ، والتوى بالزكاة ، فقال خالد أما علمت أن الصلاة والزكاه معاً لاتقبل واحدة دون الأخرى ؛ فقال مالك : قد كان صاحبكم يقول ذلك . قال خالد : أو ما تراه لك صاحباً والله لقد هممت أن أضرب عنقك ثم تجاولا فى الكلام فقال له خالد : إنى قاتلك فقال له : أو بذلك أمرك صاحبك قال وهذه بعد تلك . وقد فهم خالد أن ذلك منه إنكار للنبوة . وهذا العذر الأخير ذكرته معظم كتب التاريخ الموثوق بها بل هو مجتمع عليه كما قال ابن سلام فى طبقاته[1] .

وربما قيل : إن كل واحد من هذه المعاذير لايعدو أن يكون شبهة ، والشبهة لاتجيز القتل فى شرعة الإسلام . فنقول : لو سلمنا أن كل واحد منها شبهة لكنها شبهة قوية — ولا سيما فى مثل موقف مالك المتردد — تجعل لخالد عذرا فى قتله . على أنه إن لم يصلح كل واحد من هذه المعاذير بانفراده مبرراً للقتل فإنها مجتمعة

---

(١) الطبرى جـ ٣ ص ٢٤٣ ، طبقات الشعراء لابن سلام ص ٤٩ ، الإصابة جـ ٦ ص ٣٦ المختصر لأبى الفداء جـ ١ ص ١٥٨ .

متضامنة مراعاً فيها أنها صدرت من رجل مرتد لم يكن عنده من الإخلاص لدينه ، والوفاء له ما يجعله مستمسكاً به ، متفانياً فيه مدافعاً عنه ، بله أن يرتد عنه و يناوئه تصلح عذراً عند كثير منهم إن لم يكن عند عامتهم .

هذا و إن أبا بكر قد حكم الحكم الذى نستطيع فى غير ما تحرج أن نجزم بصحته وصوابه حين رد على عمر بقوله : « تأول فأخطأ فارفع لسانك عن خالد » إذ يبعد أن يحكم من غير تثبت واقتناع . و إذا نحن علمنا أنه رضى عنه بل وولاه تواً قتال مسيلمة سهل علينا أن نعرف أن خالدا اعتذر لدى الخليفة بعذر مقبول ، وأنه لم يقتل مالكا عن قصد وعمد . ولو لم يكن لخالد عذر مقبول فلا أقل من أن يعزله عن الأمارة إن لم يقتص منه .

والنتيجة إذن أن له عذراً ، وأنه كما قال أبو بكر : « تأول فأخطأ » .

بقيت مسألة أخرى لها اتصال بقتل مالك تلك هى زواج خالد بامرأة مالك بعد أن قتله ، وقد شنع الناس بها على خالد ، و إذا نحن جارينا هذا الفريق فى أن هذا الأمر جرم وأنه كبيرة ، فذلك لأن السيئة إذا بدت من دهماء الناس لا يعبأ بها ، ولا يشعر الناس بحدوثها ، وهى هى تصدر من العظيم فتبدو بارزة ظاهرة كأنها النقطة السوداء فى الثوب الناصع البياض ، وهكذا « حسنات الأبرار سيئات المقربين » .

وهذه الحادثة يحوطها أيضاً شىء من اللبس والغموض ، فلم يكشف لنا التاريخ شيئاً قاطعاً فى أمرها . فبينما يذكر بعض المؤرخين أن خالداً اشتراها من الفىء ثم تزوجها . يقول لنا البعض الآخر : إنها اعتدت بثلاث حيض وتزوجها ، وأنه قال لابن عمر ولأبى قتادة احضرا النكاح ؛ فأبيا وقال له ابن عمر تكتب إلى أبى بكر وتعلمه بأمرها وتتزوج بها فأبى وتزوجها[1] .

ولو كنا نجزم بشىء فى أمر مالك لانجلى الموقف ، وسهل الحكم .

و إذا نحن سلكنا مسلك من يقول : أن مالكا قتل كافراً ، وأن خالداً

---

(١) المختصر لأبى الفداء جـ ١ ص ١٥٧ ، طبقات الشعراء لابن سلام ص ٥٠ ، الطبرى جـ ٣ ص ٢٤٢ .

اشترى زوجته من الفيء لكان أمر زواجه بها لا شيء فيه ، والمسألة لا تبدو مقنعة بقناع من الغموض إلا على أساس إسلام مالك ، ومهما يكن الأمر فليس من الحسن زواجه بها فى وقت القتال ؛ لأن ذلك كانت تعيبه العرب ؛ ولذا فإنا نرى أبا بكر يعنفه على هذا الزواج ثم يأمره بطلاقها ، لكنا لا نعرف بالضبط متى كان طلاقها ، ولكن من المؤكد أنها كانت معه فى واقعة اليمامة ، وأن بعض جنود مسيلمة تمكنوا فى جولة من دخول فسطاط خالد ، و به أم تميم بنت المنهال[1] ، وهذا يفيد أن طلاقها كان بعد هذه الموقعة .

هذا ولا يفوتنا أن نقول : إن بعض المؤرخين يذكر أن امرأة مالك هى السبب فى قتله لجمالها وفرط حسنها ، وأن خالداً كان قد رآها فأعجب بها ومال إليها ووقعت فى نفسه و يستدل بما روى عن مالك من أنه قال لها : « لم يقتلنى غيرك » وأن فى ذلك يقول أبو نمير السعدى :

ألا قل لحى أوطئوا بالسنابك ... تطاول هذا الليل من بعد مالك
قضى خالد بغيا عليه بعرسه ... وكان له فيها هوى قبل ذلك
فامضى هواه خالد غير عاطف ... عنان الهوى ولا متمالك
فأصبح ذا أهل وأصبح مالك ... إلى غير أهل هالكا فى الهوالك

و إنا نر بأ بخالد — وهو الصحابى الجليل — أو أى صحابى آخر ليس فى منزلته أن يقتل امرأ لأمر دنيوى بل شهوى ورد خالد على مالك — حين سمع منه مقالته التى قالها لامرأته كاف لدحض هذا القول . إذ قال له : « بل الله قتلك برجوعك عن الإسلام »[2] .

ولعل خالد — وقد قتل زوجها — رأى أن يجبر كسرها ، وأن يخفف عنها مصيبتها ؛ فتزوجها جبراً لها مما أصابها وتطييباً لخاطرها حتى تستعيض عن زوجها الشاعر الفارس المجنول المطاع بالقائد الماهر العظيم المظفر .

---

(١) هكذا فى الإصابة ج ٦ ص٣٧، ولكن صاحب خزانة الأدب ج ٢ ص ٢٢ أسماها « ليلى بنت سنان » .

(٢) المختصر لأبى الفداء ج ١ ص ١٥٧ ، وراجع الاصابة ج ٦ ص ٣٧ .

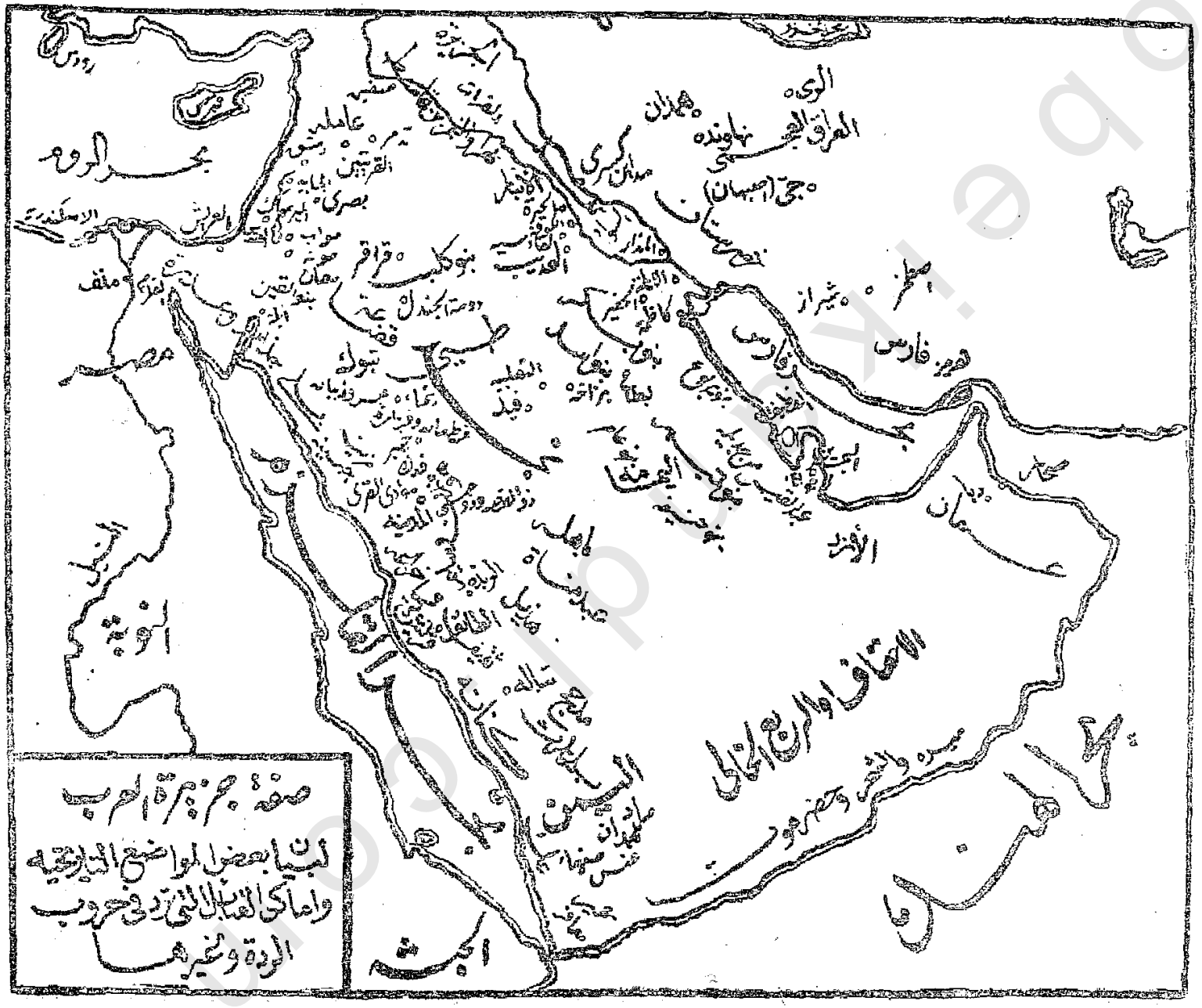
صفة جزيرة العرب
لبيان بعض المواضع التاريخية
واماكن القبائل التي ترد في حروب
الردة وغيرها

٣ — مسيلمة الكذاب

كان بنو حنيفة قد وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم وفيهم مسيلمة بن حبيب الكذاب ، وحين قدموا المدينة خلفوه فى رحالهم يحفظ لهم ظهرهم ، ثم ذهبوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأسلموا وأعطاهم ما أعطاهم ، وذكروا له مسيلمة فأعطاه كواحد منهم وقال : « أما إنه ليس بشركم مكاناً يحفظ ضيعة أصحابه » . ولما رجعوا إلى ديارهم ادعى مسيلمة النبوة وقال للوفد : ألم يقل لكم أما إنه ليس بشركم مكاناً . ما ذلك إلا لأنه يعلم أنى قد أشركت معه ، وصار يسجع الأساجيع[١] . وأحلّ لهم كثيراً من المفاسد كالخمر والزنا ، ووضع عنهم الصلاة ؛ فاتبعته بنو حنيفة ، وظاهرته عَلَى أمره . وأرسل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يقول له : « من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله ، سلام عليك فإنى قد أشركت فى الأمر معك ، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ولكن قريشاً قوم يعتدون » . فكتب إليه النبى صلى عليه وسلم : « بسم اللهِ الرَّحمن الرَّحيم من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب سلام عَلَى من اتبع الهدى ، أما بعد : فإنّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِين»[٢] .

ولما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم استشرى شره وعظم أمره ، وكان وقود فتنته نهار الرجال بن عنفوه[٣] الذى كان « قد هاجر إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقرأ القرآن وفقه فى الدين ، فبعثه معلماً لأهل اليمامة وليشغب على مسيلمة ، وليشدد من أمر المسلمين » ولكنه بدلا من أن يقوم بما ندب له أيد مسيلمة فى ادعائه النبوة ، وشهد له بأنه سمع محمداً يقول : « إن مسيلمة قد أشرك معه » ، فصدقه أهل اليمامة ،

---

(١) من ذلك قوله : والشاء وألوانها وأعجبها السود وألبانها ، والشاة السوداء واللبن الأبيض إنه لعجب محض — انظر الطبرى جـ ٣ ص ٢٤٤ .

(٢) انظر الطبرى جـ ٣ ص ١٦٧ .

(٣) الطبرى جـ ٣ ص ٢٤٤ ، ابن الأثير جـ ٢ ص ٢٤٥ .

واستجابوا له ؛ فكان أعظم فتنة على بنى حنيفة من مسيلمة . وكان مسيلمة يجله وينتهى عند أمره .

ولما عقد أبو بكر الألوية لحروب الردة عقد لعكرمة بن أبى جهل إلى اليمامة لقتال مسيلمة ، وأردفه بشرحبيل بن حسنة ، وأراد عكرمة أن ينفرد بفخرها ، فتعجل ولم ينتظر شرحبيل ، وواقع بنى حنيفة فنكبوه ، وحين بلغ أبو بكر خبر هزيمته كتب إلى شرحبيل أن يتمهل ريثما يأتيه المدد مع خالد ، ولكنه بادر خالداً بقتال مسيلمة فنكب كسابقه ، فعنفه خالد ولامه حينما قدم عليه[1] .

ولما رضى أبو بكر عن خالد ، وقبل عذره من قتل مالك وجهه إلى اليمامة لقتال مسيلمة « وأوعب معه الناس وعلى الأنصار ثابت بن قيس بن شماس ، والبراء بن فلان ، وعلى المهاجرين أبو حذيفة وزيد بن الخطاب ، وعلى كل قبيلة رجل ؛ فتعجل خالد حتى قدم على أهل العسكر بالبطاح وانتظر البعث الذى ضرب بالمدينة[2] » .

لما قدم البعث على خالد نهض فى جيش قريب من ثلاثة عشر ألف مقاتل حتى أتى اليمامة ثم أمده أبو بكر بسليط ليكون ردءاً له من أن يأتيه أحد من خلفه . ولما بلغ مسيلمة دنوّ خالد منه خرج فى أربعين ألف مقاتل أو أكثر[3] فعسكر بعقرباء[4] ؛ لأنها فى طرف اليمامة ودون الأموال ، وليكون ريف اليمامة وراء ظهره . ثم التقى الجمعان عند قرية أباض[5] ، وعلى مقدمة المسلمين خالد بن الوليد المخزومى ، وفيها

---

(١) الطبرى جـ ٣ ص ٢٤٤ — « وكان الواجب عليه أن يتعظ بعكرمة ، وأن ينتظر خالد إجابة لأمر الخليفة إن لم يكن الواجب الحربى يحتم عليه ذلك » ولكن إذا أراد الله امراً أصابه » .

(٢) الطبرى جـ ٣ ص ٢٢٤ .

(٣) يقول ابن كثير فى فضائل القرآن الكريم : إن مسيلمة التف حوله من المرتدين قريب من مائة ألف ، فجهز الصديق لقتاله خالد بن الوليد فى قريب من ثلاثة عشر ألفاً فالتقوا بهم — ص ٢٤ طبعة المنار .

(٤) عقرباء : منزل من أرض اليمامة فى طريق النباج قريب من قرقرى وهو من أعمال العرض . ياقوت جـ ٦ ص ١٩٤ ، الطبرى جـ ٣ ص ٢٤٧ .

(٥) أباض بضم الهمزة وتخفيف الباء الموحدة وألف وضاد معجمة : اسم قرية بالعرض عرض اليمامة لها نخل لم ير نخل أطول منه — معجم البلدان ص ٦٧ جـ ١ .

شرحبيل ، وعلى المجنبتين[١] زيد وأبو حذيفة ، وجعل مسيلمة على مجنبتيه محكم اليمامة وهو محكم بن الطفيل[٢] ، والرجال بن عنفوة ، وهو أول من لقى المسلمين[٣] .

دارت رحى الحرب واشتد القتال ، وصبر الفريقان ، وترامیا على الموت ونزل بالناس ما لم يروا مثله قط ؛ وغدا النصر لأصبر الفريقين ، وأكرم الجندين ، وأسوسهم للحرب مما جعل راجزهم . يقول :

يوم أباض إذ نسن اليزنا والمشرفيات تقد البدنا

انكشف جيش المسلمين لكثرة من فيه من الأعراب ؛ فنادى القُرَّاء من كبار الصحابة : يا خالد خلصنا : يقولون ميزنا من هؤلاء الأعراب .

رأى خالد هذه الحال . وأدرك أن استمرارها من خطل الرأى ، وخشى أن ينهزم أخلاط العرب ، فيوهنوا أهل النجدة من المهاجرين والأنصار ، ويختل نظام الجيش ، وتكون الهزيمة ؛ فأداه رأيه وحسن سياسته ، وطول ممارسته الحروب إلى أن يجيب كبار الصحابة إلى رأيهم ، وأن يميز الناس فقال : « امتازوا أيها الناس لنعلم بلاء كل حى ، ولنعلم من أين نؤتى » فتميز كبار الصحابة وانفردوا فكانوا قريباً من ثلاثة آلاف ، ثم صدقوا الحملة وقاتلوا قتالا شديداً ، وجعلوا يتنادون : يا أصحاب سورة البقرة[٤] ، فلما امتازوا قال بعضهم لبعض : « اليوم يستحى من الفرار » ، فما رؤى يوم كان أَحَدَّ ولا أعظم نكاية من ذلك اليوم .

لم يكتف خالد بهذا التدبير الموفق حين رأى أن بنى حنيفة لا يبالون بالموت وبمن يقتل منهم ، وعرف أنها لا تركد إلا بقتل مسيلمة ، فبرز حتى إذا كان أمام الصف دعا إلى البراز وانتمى وقال : أنا ابن الوليد العود ، أنا ابن عامر وزيد ،

---

(١) المجنبتان هما : ميمنة الجيش وميسرته .

(٢) ورماه عبد الرحمن بن أبى بكر بسهم فقتله — الطبرى جـ ٣ ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ابن الأثير جـ ٢ ص ٢٤٧ .

(٣) الطبرى جـ ٣ ص ٢٤٨ وقتله زيد بن الخطاب — ابن الأثير جـ ٢ ص ٢٤٥ ، ٢٢٩ ، وفتوح البلدان للبلاذرى ص ٩٤ .

(٤) فضائل القرآن لابن كثير ص ٢٤ .

ونادى بشعارهم ، وكان شعارهم يومئذ : يا محمداه ، فجعل لا يبرز له أحد إلا قتله وهو يرتجز :

أنا ابن أشياخ وسيفى السَّخت   أعظم شيء حين يأتيك النفت[١]

ثم دعا مسيلمة طلباً لعورته فأجابه ، فعرض عليه أموراً مما يشتهيها ، فأعرض بوجهه متظاهراً بأنه يستشير شيطانه ، فركبه خالد فأرهقه وصاح فى الناس : دونكم فلا تقيلوهم ؛ فركبوهم فكانت الهزيمة ، ونادى محكم اليمامة : يا بنى حنيفة : « الحديقة الحديقة » فدخلوها وأغلقوا عليهم بابها ، وقال شاعرهم فى ذلك :

فلله عينا من رأى مثل معشر   أحاطت بهم آجالهم والبوائق
فلم أر مثل الجيش جيش محمد   ولا مثلنا يوم احتوتنا الحدائق
أكرّ واحمى من فريقين جَمَّعُوا   وضاقت عليهم فى إباض البوارق

لم يشأ المسلمون أن ينتهى الأمر عند هذا الحد ، وفى بنى حنيفة بقية تصلح للقتال ، ولاسيما أن رأس الفتنة ما زال حياً ؛ فقال البراء بن مالك : يا معشر المسلمين ألقونى عليهم ، فاحتمل حتى أشرف على جدار الحديقة ، وقاتل على الباب حتى فتحه المسلمين[٢] فدخلوا عليهم حديقتهم ، واقتتلوا قتالا شديداً ، فقتل مسيلمة[٣] وولت بنو حنيفة ، وأخذهم المسلمون بسيوفهم من كل جانب ، وقتلوا منهم نحواً من إحدى وعشرين ألفاً : سبعة آلاف فى الفضاء بعقرباء ، ومثلها فى الحديقة ، وفى الطلب نحواً من ذلك[٤].

---

(١) السخت : الشديد ، والنفت الغضب .

(٢) جرح البراء يومئذ بضعاً وثمانين جراحة ما بين رمية وضربة ؛ فأقام عليه خالد بن الوليد شهراً حتى برأ من جراحه ، أسد الغابة ج ١ ص ١٧٣ .

(٣) اشترك فى قتله وحشى (مولى جبير بن مطعم وقاتل حمزة عم النبى صلى الله عليه وسلم) ورجل من الأنصار — الطبرى ج ٣ ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ابن الأثير ج ٢ ص ٢٤٧ ، فتوح البلدان للبلاذرى ص ٩٥ ، ٩٦ ، وقال فى أسد الغابة ج ٢ ص ١٤ : إن الذى قتل مسيلمة هو خراش بن حصين بن الأصم .

(٤) الطبرى ج ٣ ص ٢٥٢ .

obeikandi.com

كان خالد قد أسر مجاعة بن مرارة الحنفي وهو معرس[١] فى سرية يطلب ثأراً له فى بنى عامر ، فقتل أصحابه واستحياه رهينة لديه لشرفه فى بنى حنيفة ؛ إذ رأى أصحابه يجودون بأنفسهم دونه ، وأدرك من كلامهم أن فى استبقائه مصلحة للمسلمين سواء أكانت لهم أم عليهم . وحين انتهت الموقعة وأدال الله للمسلمين قال مجاعة لخالد : هلم إلى الصلح على ما ورائى ، فصالحه على كل شىء إلا الرجال ، فقال مجاعة أنطلق فأشاورهم ، فلما ذهب إليهم لم يجد فى الحصون إلا النساء والصبيان ومشيخة فانية ، ورجال ضعفى ، فظاهر الحديد على النساء وأمرهن أن ينشرن شعورهن ، وأن يشرفن على رءوس الحصون حتى يرجع إليهن ليراهن المسلمون فتتم الخدعة . ثم رجع إلى خالد وقال له : قد أبوا أن يجيزوا ما صنعت وقد أشرف لك بعضهم نقضاً على ، وهم منى براء .

« نظر خالد إلى رءوس الحصون وقد اسودت ، وقد نهكت المسلمين الحرب ، وطال اللقاء ، وأحبوا أن يرجعوا على الظفر ، ولم يدروا ما كان كائناً لو كان فيها رجال وقتال » ، فقبل الصلح على الذهب والفضة والسلاح ونصف السبى . و بذلك انتهى أمر بنى حنيفة .

قتل فى هذه الموقعة من المهاجرين والأنصار من أهل قصبة المدينة يومئذ ثلاثمائة وستون ، ومن المهاجرين من غير أهل المدينة والتابعين بإحسان ستمائة أو يزيدون : ثلاثمائة من هؤلاء وثلاثمائة من هؤلاء[٢] وكان جملة من قتل من المسلمين ألف ومائتى رجل منهم خمسمائة من القرّاء[٣] .

كان قتل هذا العدد الكبير من المهاجرين والأنصار ، وأهل السابقة وحفاظ القرآن مدعاة لأن يجمع أبو بكر رضى الله عنه القرآن خوفا من الضياع بموت حفاظه .

---

(١) الطبرى جـ ٣ ص ٢٤٦ .

(٢) الطبرى جـ ٣ ص ٢٥٢ .

(٣) الطبرى جـ ٣ ص ٢٥٤ ، البلاذرى ص ١٠٠ ، فضائل القرآن لابن كثير ص ٢٥ .

ومما قيل فى هذه الموقعة قول ضرار بن الأزور :

ولو سئلت عنا جنوب لأخبرت عشية سالت عقرباء وملهم
وسال بفرع الواد حتى ترقرقت حجارته فيها من القوم بالدم
عشية لاتغنى الرماح مكانها ولا النبل إلا المشرفى المصمم
فإن تبتغى الكفار غير مُليمة جنوب فإنى تابع الدين مسلم
أجاهد إذ كان الجهاد غنيمة ولله بالمرء المجاهد أعلم (١)

بعث أبو بكر رضى الله عنه بكتاب إلى خالد مع سلمة بن سلامة بن وقش يأمره إن ظفره الله عز وجل على بنى حنيفة أن يقتل كل محتلم منهم ، فقدم فوجده قد صالحهم ، فوفى لهم ، وتم على ما كان منه (٢)

راجعت بنو حنيفة الإسلام ، وأرسل خالد رفداً منهم إلى أبى بكر فلما قدم الوفد عليه قال لهم : ويحكم ماهذا الذى استنزل منكم ما استنزل ؟ قالوا ياخليفة رسول الله قدكان الذى بلغك مما أصابنا : كان امرأ لم يبارك الله عز وجل له ولا لمشيرته فيه ، ثم سألهم عن بعض أسجاع مسيلمة فذكروا له شيئاً منها فقال : « سبحان الله ! ويحكم إن هذا الكلام ماخرج من إلٍّ ولا برٍّ فأين يذهب بكم » .

أما وقد انتهى أمر بنى حنيفة بمراجعتها الإسلام ، فإنه يحسن بنا أن نبحث عن السبب فيما كان لمسيلمة من فضل قوة ، وثبات لم يتح لغيره من المتنبئة ؛ فقد كان أكثرهم ثباتاً ، وأشدهم مراساً . ومن هذه الأسباب :

١ — شهادة نهار الرجال بأنه سمع محمداً يقول : « إن مسيلمة قد أشرك معه » لأنها جعلت من أهل اليمامة مَن يصدقونه ، ويستجيبون له ، فكان منهم من يقاتل عن عقيدة وعلى زعم من أنه تحت لواء نبي .

٢ — كان يقاتلون عن بلادهم وأحسابهم ، يعلم ذلك من قول شرحبيل بن مسيلمة الكذاب : « اليوم يوم الغيرة ! قاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم »

(١) الطبرى جـ ٣ ص ٢٥٢ .
(٢) الطبرى جـ ٣ ص ٢٥٣ .

٣ — القوم يقاتلون عن بلاد هُمْ أهلها ، وأعلم بشعابها ، وأخبر بحزنها وسهلها .

٤ — ازدادوا نشاطاً بعد أن نكبوا عكرمة ، وازداد قوة على قوة حينما خذلوا جيش شرحبيل ؛ فأصبحت لهم بذلك جرأة وضراوة على جيوش المسلمين ، وسرت فيهم روح لم توجد فى غيرهم من جنود المتنبئين ، مما أدى إلى أن يقفوا فى وجه خالد — وهو ماهو — وكادوا أن يهزموه لولا لطف الله بالمسلمين .

و إذا كان مسيلمة قد نكب جيشين من جيوش المسلمين ، وأصبح لجنده ضراوة على قتالهم ، وغدواً لا يتهيبونهم ، والروح المعنوية عندهم فى أحسن درجاتها ، وهم فى باديتهم ، وأعلم بشعابها وثناياها ، فضلا عن أن عددهم عظيم يكفى للقضاء على أكبر جيش للمسلمين فى ذلك الوقت ، فما هو السر إذن فى انكساره ؟ أو ما هى العوامل التى ساعدت المسلمين على النصر ؟ .

و إذا نحن نظرنا وتدبرنا وجدنا أن من أهم هذه العوامل : —

١ — أمر خالد الناس بأن يمتازوا ، ليتبين أهل العزم ، حقاً لقد كانت فكرة موفقة ؛ فقد تبين أهل العزائم ، واستحيا أهل الشرف من الهزيمة .

٢ — وقوف خالد بين الصفوف يطلب المبارزة وهو الأسد الهصور ، لا يخرج إليه أحد إلا صرعه ، فحين رأى المسلمون ذلك تذامروا بينهم ، فتفانوا وتراموا على الموت .

٣ — لما برز مسيلمة لخالد وعرض عليه خالد بعض الأمور تظاهر مسيلمة باستشارة شيطانه ، فلم يترك خالد هذه الفرصة تضيع منه — وهو القائد الماهر ، و يعلم أن مسيلمة هو قلب الجيش — فركبه وساعفه المسلمون ، فانهزم مسيلمة وتابعه جنده ، فكانت الهزيمة ، وليس فى ذلك ما يعاب على خالد ، لأن أحدهما لم يأخذ من صاحبه أماناً ، فالحالة بينهما خداع ومغالبة .

٤ — كان يؤازر خالداً كثير من أهل النجدة والغناء الذين باعوا أنفسهم فى طاعة الله ، وطلبوا ما عنده أمثال حذيفة الذى كان يذمر الناس بقوله : « يأهل القرآن ، زينوا القرآن بالفعال » وزيد بن الخطاب الذى كان يقول : « غضوا أبصاركم

وعضوا على أضراسكم أيها الناس ، واضربوا فى عدوكم وامضوا قُدمًا » فصادفت مهارة خالد وسياسته الحربية نفوسًا كريمة ، دعاها فلبت سراعًا .

٥ — كان أبو بكر قد أمدَّ خالدًا بسليط ليكون ردءًا له لئلا يؤتى من خلفه ؛ فكان المسلمون يقاتلون وهم آمنون على ظهورهم ، وجهدهم منصرف لمواجهة عدوهم .

٦ — كان بعض مَن ناصَر مسيلمة إنما ناصره للعصبية فقط ؛ وهو يعتقد كذبه أو على الأقل يشك فى أمره : فقد روى أن طلحة النمرى قال لمسيلمة : أشهد إنك كذاب ، وإن محمداً صادق ، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر[1] .

وإنى أرجح أن جانباً كبيراً من جنده كان رأيهم فيه كرأى طلحة النمرى يعتقدون كذبه ، أو على الأقل يساور نفوسهم الشك فى أمره ، والشك فى مثل هذه الأحوال كاف لزلزلة قلوبهم ، وفتور عزائمهم ؛ فليس عندهم من الحافز الدِّينى ما يجعلهم يحرصون على الموت وشتان بين من يقاتل للعصبية ومن يقاتل للعقيدة .

هذه الأسباب — إلى الأسباب العامة التى كانت تتوافر فى كل جيش من جيوش المسلمين بل فى كل فرد من أفرادهم — هى التى سهلت لخالد سبل النصر والظفر .

أقام خالد بعد أن انتهى من أمر بنى حنيفة بواد من أودية اليمامة يقال له الوبر حتى جاءه أمر أبى بكر بالتوجه إلى العراق لفتح بلاد الفرس .

---

(١) الطبرى جـ ٣ ص ٢٤٦ — وقد قتل طلحة النمرى هذا مع مسيلمة يوم عقرباء .

أرض العراق والجزيرة
لبيان بعض الأماكن التي ترد في الفتح الإسلامي
بحر الخزر
جيلان
طبرستان
أذربيجان
المراغة
بحيرة أرمية
قزوين
الري
ساوة
همذان
الجبال أو العراق العجمي
نهاوند
أصبهان
قرميسين
حلوان
جلولاء
الدسكرة
النهروان
شهرزور
إربل
الزاب الأعلى
الزاب الأسفل
تكريت
سر من رأى
بغداد
المدائن
الموصل
سنجار
نصيبين
ماردين
رأس العين
الرها
حران
الرقة
صفين
الرصافة
قرقيسيا
الفرات
أرض الجزيرة
دجلة
تدمر
بادية الشام
حمص
حماة
منبج
أنطاكية
بيروت
دمشق
اليرموك
بصرى
الأردن
البحر الميت
عين التمر
كربلاء
الحيرة
الكوفة
النجف
القادسية
العذيب
أرض السواد
واسط
الولجة
المذار
البصرة
الأبلة
وادي السباع
الحفير
كاظمة
بحر فارس
فارس
خوزستان
الأهواز
رامهرمز
أرجان
السوس

فتوح خالد فى العراق

(١) الأبلة (٢) المذار (٣) الوجة (٤) أليس وأمغيشيا (٥) المقر (٦) الحيرة (٧) الأنبار (٨) عين التمر (٩) دومة الجندل (١٠) الحصيد والخنافس (١١) المصيخ (١٢) الثنى والزميل (١٣) الفراض

الأبلة[1]

فى أواخر السنة الحادية عشرة بعد أن هدأت الحال فى معظم الجزيرة ، وراجع أغلب العرب المرتدين الإسلام ، بدأ بعض الأبطال من المسلمين يغيرون على أطراف العراق من ناحيتى الحيرة[2] والأبلة فإذا طلبوا أمعنوا فى الصحراء وتوغلوا فيها ؛ فيأمنون من الطلب ، وأصبحت لهم بذلك ضراوة وجرأة فى الإغارة على أطراف البلاد الخاضعة للفرس ، وكان فى مقدمة هؤلاء الأبطال الأمراء الأربعة : المثنى ومذعور وسلمة وحرملة[3] .

أرسل أحد أولئك الأبطال وهو المثنى بن حارثة[4] إلى أبى بكر يعلمه ضراوته بفارس . ويسأله أن يمده بجيش لغزو الفرس ، وحين وصل كتابه إلى أبى بكر كان خالد قد فرغ من أمر بنى حنيفة ، ومقيما فى وادى الوبر ؛ فكانت الفرصة سانحة أمام الخليفة لندب فاتئ عين الردة ، ومنكس أعلام الفتنة لفتح السواد ، والبدء فى إزالة (إمبراطورية) الأكاسرة .

---

(١) الأبلة : بضم أوله وثانيه وتشديد اللام وفتحها ، وقيل بفتح أوله وثانيه بلدة على شاطىء دجلة فى زاوية الخليج الذى يدخل إلى مدينة البصرة — معجم البلدان جـ ١ ص ٨٩ .

(٢) الحيرة مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة — معجم البلدان جـ ٣ ص ٣٧٦ .

(٣) راجع الطبرى جـ ٤ ص ٢ ؛ الأخبار الطوال ص ١١٧ ؛ فتوح البلدان ص ٢٥٠ .

(٤) وقيل إن المثنى قدم المدينة على أبى بكر فولاه على من قبله — راجع الطبرى جـ ٤ ص ٣ والبلاذرى فى فتوح البلدان ص ٢٥٠ .

ففى المحرم[١] من السنة الثانية عشرة أرسل يأمره بغزو فارس ، وأن يبدأ منها بثغر الأبلة بكتاب يقول فيه : « أن سِرْ إلى العراق حتى تدخلها وأبدأ بفرج الهند وهى الأبلة وتألّف أهل فارس ومن كان فى ملكهم من الأمم » ، كما أمر عياض بن غَنْم أن يغزوها من الشمال وأن يبدأ بالمصيخ[٢] وأمرها أن يستنهضا من قاتل أهل الردة ، ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وألا يستعينا بمرتد ، وأن يسيرا بمن يحب ، ولا يستكرها أحداً ، فانفض عنهما كثير ممن معهما فاستمدا أبا بكر فأمد عياضاً بعبد عوف الحِمْيرى ، وأمد خالداً بالقعقاع بن عمرو التميمى ، فقيل له : أتمد رجلا قد ارفض عنه جنوده برجل ؟ فقال : لا يهزم جيش فيهم مثل هذا[٣] .

كتب خالد إلى الأمراء الأربعة : حرملة وسلمى والمثنى ومذعور باللحاق به ، وأمرهم أن يواعدوا جنودهم الأبلة ، وذلك أن أبا بكر أمر خالداً فى كتابه إذا دخل العراق أن يبدأ بفرج أهل السند والهند وهو يومئذ الأبلة ليوم قد سماه ، ثم حشر من بينه و بين العراق فحشر ثمانية آلاف من ربيعة ومضر إلى ألفين كانا معه ، فقدم فى عشرة آلاف على ثمانية آلاف ممن كان مع الأمراء الأربعة ، فكملت عدة جيشه ثمانية عشر[٤] .

وقبل أن يسير خالد إلى العراق كتب إلى هرمز — صاحب ثغر الأبلة — كتاب إنذار يقول فيه : « أما بعد فأسلم تسلم ، أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة ، وأقرر بالجزية ، و إلا فلا تلومن إلا نفسك ، فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة[٥] » .

---

(١) الطبرى جـ ٤ ص ٢ ، ابن الأثير جـ ٢ ص ٢٦١ .
(٢) هى بين حوران والقلت — معجم البلدان جـ ٨ ص ٧٩ .
(٣) الطبرى جـ ٤ ص ٤ ، ابن الأثير جـ ٢ ص ٢٦٢ .
(٤) الطبرى جـ ٤ ص ٥ .
(٥) الطبرى جـ ٤ ص ٥ .

استخلف خالد على اليمامة سمرة بن عمر العنبرى[١] وسار فى جيشه ومن انضم إليه يريد العراق ، وحين قارب العدو جعل الجيش ثلاث فرق[٢]، وحملهم على أن تسلك كل فرقة طريقاً ، ولم يحملهم على طريق واحد : فرقة مع المثنى وهى المقدمة ، وتلتها فرقة عليها عدى بن حاتم ، وخرج خالد بعدها وواعدها الحفير ليجتمعوا به ، ويصمدوا لعدوهم .

سمع هرمز بمسير خالد فكتب إلى أردشير « ملك الفرس » بالخبر وتعجل فى سرعان أصحابه يريد الكواظم[٣] فعلم أن المسلمين تواعدوا الحفير[٤] فسبقهم إليه ، وجعل على مقدمته الأخوين : قباذ وأنو شجان « وهما من أولاد أردشير الأكبر » وتعبى هرمز وأصحابه ، واقترنوا بالسلاسل لئلا يفروا ، ولما بلغ خالداً أنهم يمموا الحفير عدل عنها إلى كاظمة فسبقه هرمز إليها ونزل على الماء ، واختار المكان الملائم لجيشه ، وجاء خالد فنزل على غير ماء ، فقال له أصحابه فى ذلك فقال : « حطوا أثقالكم ثم جالدوهم على الماء ، فلعمرى ليصبرن الماء لأصبر الفريقين ، وأكرم الجندين[٥] » .

---

(١) أسد الغابة جـ ٢ ص ٣٥٥ .

(٢) ابن الأثير جـ ٢ ص ٢٦٢ .

(٣) الكواظم : جو على سيف البحر فى طريق البحرين من البصرة بينها وبين البصرة مرحلتان ، وفيها ركايا كثيرة وماؤها شروب ، معجم البلدان جـ ٦ ص ٢٠٨ .

(٤) الحفير : ماء لباهلة بينه وبين البصرة أربعة أميال ، معجم البلدان جـ ٣ ص ٢٠٤ .

(٥) بعض الرواة يذكر أن أول بلد قصده خالد : بانقيا وباروسما وأليس والبعض يذكر أن خالد ابتدأ بالأبلة وهو ما اخترناه ؛ لأن الأخبار فى ذلك أكثر ولأنه الموافق لكتاب أبى بكر لخالد بالبداءة بثغر الهند ، وهو مايجب أن يكون من الوجهة الحربية حتى لايتركوا وراءهم عورة ، وقد أوصاه أبو بكر بذلك حين ندبه هو وعياض بن غنم لفتح العراق بقوله : «إذا اجتمعتما بالحيرة وقد فضضتما مسالح فارس ، وأمنتما أن يؤتى المسلمون من خلفهم ... » ولو ابتدأ خالد ببانقيا لخلف هرمز خلفه وقد أطبق المؤرخون على أنه مضرب المثل فى الخبث وشر جار للعرب ، ولرأينا له أثراً فى إعمال السيف فى ظهور المسلمين وربما كانت شبهة القائلين بالرأى الأول هى أن الأبلة فتحت زمن عمر على يد عتبة بن غزوان ولكن تلك الشبهة يمكن حملها على أنها فتحت فى زمن عمر رضى الله عنه الفتح الدائم ويؤيد رأينا هذا أيضاً البلاذرى ، فراجع ص ٢٥٠ وما بعدها .

لاقى المسلمون أعداءهم ، وخرج هرمز فدعا خالداً للمبارزة ، واتفق مع أصحابه على الغدر به ، فبرز إليه خالد وتضاربا ، فاحتضنه خالد وحملت حامية هرمز وغدرت فاستلحموا خالداً فما شغله ذلك عن قتله وحمل القعقاع بن عمرو واستلحم حماة هرمز فأناموهم و إذا خالد يعاصمهم وانهزم أهل فارس وركب المسلمون أكتافهم إلى الليل ، وجمع خالد الرثاث وفيها السلاسل فكانت وقر بعير ألف رطل فسميت ذات السلاسل .

نادى خالد بالرحيل ، وسار بالناس واتبعته الأثقال حتى نزل بموضع الجسر الأعظم من البصرة (والبصرة لم تبن إذ ذاك) فبعث المثنى بن حارثة فى آثار القوم ، و بعث معقل بن مقرن المزنى إلى الأبلة فجمع الأموال والسبايا .

أرسل خالد إلى أبى بكر بالفتح والخمس ، ونفله أبو بكر قلنسوة هرمز وهى مفصصة بالجوهر وقيمتها مائة ألف لأنه قد تم شرفه (١) .

المذار « المثنى » (٢)

وصل كتاب هرمز إلى أردشير بخبر خالد ، فأمده بقارن بن قريانس ، وفصل قارن من المدائن حتى إذا انتهى إلى المذار لقيه فلال جيش هرمز فتذامروا وقالوا : « إن افترقتم لم تجتمعوا بعدها أبداً . . . » ؛ فأجمعوا أمرهم وعسكروا بالمذار ، وكان قباذ وأنوشجان قد نجيا فيمن نجا من جيش هرمز ، فاستعملهما قارن على مجنبتيه .

وصل خبر اجتماعهم إلى خالد ؛ فخرج حتى التقى بهم وهو على تعبئة فاقتتلوا

---

(١) كان أهل فارس يجعلون قلانسهم على قدر أحسابهم فى عشائرهم ، فمن تم شرفه فقيمة قلنسوته مائة ألف ، فكان هرمز ممن تم شرفه ، فكانت قيمتها مائة ألف فنفلها أبو بكر خالداً ، الطبرى ج ٤ ص ٦ .

(٢) المذار فى ميسان بين واسط والبصرة وهى قصبة ميسان بينها وبين البصرة أربعة أيام... وبها قبر عبد الله بن على بن أبى طالب ، وأهلها كلهم شيعة غلاة طغام أشبه شىء بالأنعام ، معجم البلدان ج ٧ ص ٤٣٣ والثنى بكسر أوله وسكون ثانيه وياء مخففة ، والثنى من كل نهر أو جبل منعطفة ويقال الثنى لكل نهر ، ويوم الثنى لخالد على الفرس قرب البصرة مشهور . معجم البلدان ج ٣ ص ٢٥ .

على حنق وحفيظة ، ودعا قارن للمبارزة فاستبق إليه خالد ومعقل[١] بن الأعشى ، فسبقه معقل إليه فصرعه[٢] ، وانهزم الفرس وقتلت منهم يومئذ مقتلة عظيمة قدرت بثلاثين ألفاً . ولولا أنهم ضموا السفن إليهم ، والمياه منعت المسلمين من طلبهم لأفنوهم عن آخرهم . وقد غنم المسلمون منهم مغانم كثيرة حتى زاد سهم الفارس على ثلاثين ألفاً ، وأخذوا الجزية من الفلاحين ، وصاروا ذمة لهم ، وأقام خالد بالمذار وقسم الفيء ونفل من الأخماس أهل البلاء و بعث ببقيتها إلى أبي بكر مع سعيد بن النعمان ، وتبجبح المسلمون وصارت كل واقعة أنكى على الفرس من التي قبلها[٣] .

الولجة[٤] :

وصل نبأ نكبة الفرس في المذار إلى أردشير ، فبعث الأندرزغر على رأس جيش عظيم ، وأردفه بجيش آخر عليه بهمن جاذويه ، وفصل الأندرزغر من المدائن[٥] حتى انتهى إلى كَسْكَر[٦] ومنها الولجة إلى ، وخرج بهمن جاذويه سالكا وسط السواد وحشر مَن بين الحيرة وكسكر من العرب والدهاقين ، واجتمع هؤلاء وأولئك بالولجة وتتام جمعهم وأعجب الأندرزغر ماهو فيه من كثرة ، فأجمع السير إلى خالد .

بلغ خالداً — وهو بالثنى — تجمع الفرس ونزولهم الولجة ؛ فخلف سويد ابن مقرن على مَن وراءه ، وليحمى ظهره ، ويحتفظ بما فتح وأوصى من خلف بالحذر والحيطة وسار هو قاصداً الأندرزغر ومن اجتمع عليه بالولجة ، وجعل جيشه فرقا ثلاثا :

---

(١) هو أبيض الركبان معقل بن الأعشى بن النباش ، وقتل عاصم بن عمرو الأنوشجان ، وقتل عدى بن حاتم قباذ — الطبرى ج ٤ ص ٧ .

(٢) كان شرف قارن قد انتهى ولم يقاتل المسلمون بعده أحداً ممن انتهى شرفه فى الأعاجم ، الطبرى ج ٤ ص ٧ .

(٣) سبى فى هذه الموقعة والد الحسن البصرى العالم التابعى المشهور . المعارف لابن قتيبة ص ١٩٥ .

(٤) الولجة بأرض كسكر مما يلى البر .

(٥) المدائن مسكن الملوك من الأكاسرة الساسانية وغيرهم ، معجم البلدان ج ٧ ص ٤١٣ .

(٦) كسكر بالفتح ثم السكون وكاف أخرى وراء ، معناه عامل الزرع . كورة واسعة وقصبتها اليوم واسط ، القصبة التى بين الكوفة والبصرة ، معجم البلدان ج ٧ ص ٢٥١ .

تقدم هو بإحداها يلقى بها عدوه والثنتين جعلهما كميناً له فى ناحيتين ، وعليهما بسر ابن أبى رهم وسعيد بن مرة .

التقى الجمعان فى صفر واقتتلوا قتالا شديداً حتى نفد الصبر ، واستبطأ خالد كمينه وهما على ذلك إذا بالكمين يكتنف الفرس من ناحيتين فانهزموا وولوا الأدبار ، فأخذهم خالد من بين أيديهم والكمين من خلفهم ، ومضى الأندرزغر فى هزيمته حتى مات عطشاً ، ولم يتعرض خالد للفلاحين بسوء ، ودعاهم إلى الجزية والذمة فأجابوا وتراجعوا .

وفى هذه الموقعة يقول القعقاع :

ولم أر قوما مثل قوم رأيتهم على ولجات البر أحمى وأنجبا
وأقتل للرواس فى كل مجمع إذا ضعضع الدهر الجموع وكبكبا[1]

وأصيب فى هذه الموقعة كثير من نصارى العرب من بكر بن وائل ، فيهم ابن لجابر بن بجير ، وابن لعبد الأسود العجلى ، فغضب لهم نصارى قومهم ، وكاتبوا الفرس وواطؤوهم على حرب المسلمين ، فكان ذلك سبباً فى واقعة أليس .

أليس[2] :

فى هذه الموقعة انضم نصارى العرب إلى الأعاجم وصاروا عونا للفرس على المسلمين ، وكان عليهم عبد الأسود العجلى ، وعلى الفرس جابان ، وكان قد أمره بهمن جاذويه ألا ينازل العرب إلا أن يعجلوه ، وأن يكفكف جنده حتى يلقى الملك فيحدث به عهداً ثم يلحق به .

بلغ خالداً تجمع نصارى العرب من بنى عجل وتيم اللات وضبيعة وعرب الضاحية من أهل الحيرة فنهد لهم وكل همه متجه لمواقعتهم ولا علم له بجابان ، وانضمام الفرس لجموع العرب .

---

(١) معجم البلدان ج ٨ ص ٤٣٣ .

(٢) أليس بوزن فليس والسين مهملة ، الموضع الذى كانت فيه الموقعة بين المسلمين والفرس فى أول أرض العراق من ناحيه البادية ، معجم البلدان ج ١ ص ٣٢٨ .

أقبل خالد وهو على تعبئة ، وقد أعد القوم طعامهم فأظهروا عدم الاكتراث بخالد والتهاون بأمره ، وتداعوا إلى الطعام ، وتوافوا إليه بيد أن خالداً لم يدعهم يهنأون بطعامهم بل أجهضهم عنه ، واقتتلوا أشد القتال وكان على مجنيتى جابان عبد الأسود والأبجر ، وقد زاد فى كلب الأعداء وشدتهم ما يتوقعونه من لحاق بهمن جاذويه بهم فى مدد كبير ، ولكن المسلمين حربوا عليهم ؛ فكشفوهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة قدرت بسبعين ألفاً جلهم من أمغيشيا ، وأممن خالد فى قتلهم حتى اختلط دمهم بالنهر[١] ، وخلفهم المسلمون على طعامهم ونفلهموه خالد اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر ، و بعث إلى أبى بكر بالفتح والأخماس و بقدر الفىء وأهل البلاء مع رجل يدعى جندلا من بنى عجل[٢] .

ومن طريف ما يذكر أن المسلمين حينما قعدوا لعشائهم جعل من لم ير الأرياف ولا يعرف الرقاق يقول : ماهذه الرقاع البيض ؟ وجعل من قد عرفها يجيبهم و يقول لهم مازحا : « هل سمعتم برقيق العيش » ؟ فيقولون نعم ، فيقول هو هذا ، فسمى الرقاق ، وكانت العرب تسميه القرى . وكانت هذه الوقائع التى تقدمت فى صفر من سنة ١٢ ما عدا الأبلة فانها كانت فى المحرم .

أمغيشيا[٣]

بعد أن فرغ خالد من أليس نهض حتى أتى أمغيشيا وقد جلا عنها أهلها وأعجلوا عما فيها وتفرقوا فى السواد ، فأمر بهدمها وهدم كل شىء كان فى حيزها

---

(١) كان خالد قد نذر إن منحه الله أكتافهم ألا يستبقى منهم واحداً قدر عليه حتى يجرى نهرهم بدمهم ، فلما تمكن منهم وكل بهم من يضرب أعناقهم فى النهر ، ولما لم تجر دماؤهم أشار عليه القعقاع بن عمرو وأشباه له بأن يرسل الماء على الدماء برا بيمينه فجرى دما عبيطا ، فسمى نهر الدم لذلك الشأن إلى اليوم — الطبرى جـ ٤ ص ١١ .

(٢) كان هذا العجلى دليلا صارما ، ولما قدم على أبى بكر وأخبره بما صنع المسلمون أمر له بجارية من ذلك السبى — الطبرى جـ ٤ ص ١١ .

(٣) أمغيشيا بفتح أوله وسكون ثانيه والغين المعجمة مكسورة وياء ساكنة والشين معجمة وياء وألف ... قال أبو مقرن الأسود بن قطبة :

لقينـــا يوم اليس وامغى ويوم المقر آساد النهار =

(وكانت مصرا كالحيرة وكانت أليس من مسالحها وعندها ينتهى فرات بادقلى) وأصابوا فيها ما لم يصيبوا مثله منذ وقعة ذات السلاسل ، فقد بلغ سهم الفارس ١٥٠٠ درهم سوى أنفال أهل البلاء ، ولما وصلت الأخماس والفتح لأبى بكر ، وبلغه ما صنع خالد والمسلمون قال : « يا معشر قريش . . . عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خَرَاذِيلِه . أعجزت النساء أن ينشئن مثل خالد ! »[١] .

وهذه القولة من أبى بكر من أحسن المدح لخالد وأسماه ، فهى تبين لنا الكثير من نواحى عظمته ، وتكشف فى جلاء ووضوح عن تقدير أبى بكر له واعتقاده فيه أنه وحيد دهره ، متفرد بين أهل زمانه .

وكان الاستيلاء على أمغيشيا توطئة لفتح الحيرة .

الحيرة[٢]

بلغ الأزاذية الذى كان مُرزُبان[٣] الحِيرَة ما صنع خالد ، فعلم أنه غير متروك فاستعد وتهيأ للحرب ، وقدم ابنه أمامه ، ثم خرج فى أثره حتى عسكر خارج الحيرة وأمر ابنه بسد الفرات ، وتفجير الأنهار التى تأخذ منه .

= فلم أر مثلها قضلات حرب أشد على الجحاجحة الكبار
قتلنا منهم سبعين ألفا بقية حربهم نخب الأسار
سوى من ليس يحصى من قتيل ومن قد غال جولان الغبار

معجم البلدان جـ ١ ص ٣٣٦ .

(١) الطبرى جـ ٤ ص ١١ ، والخراذيل : قطع اللحم الوافرة المختارة .

(٢) الحيرة بالكسر ثم بالسكون وراء . مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة ... وبالحيرة الخورنق يقرب منها مما يلى الشرق على نحو ميل . والسدير فى وسط البرية التى بينها وبين الشام كانت مسكن ملوك العرب فى الجاهلية من زمن نصر ... ويقال لها : الحيرة الروحاء قال عاصم بن عمرو :

صبحنا الحيرة الروحاء خيلا ورجلا فوق أثباج الركاب
حصرنا فى نواحيها قصورا مشرفة كأضراس الكلاب

معجم البلدان جـ ٣ ص ٣٧٦ .

(٣) المرزبان بضم الميم والزاى هو الفارس الشجاع المقدم على القوم وهو معرب معناه حافظ الثغور ، من هامش أسد الغابة جـ ١ ص ١٧٣ ، وكان قد بلغ نصف الشرف فقيمة قلنسوته خمسين ألفاً ، الطبرى جـ ٤ ص ١١ .

خرج خالد من أمغيشيا وحمل الرجل فى السفن مع الأنفال والأثقال ، فلم يفجأ المسلمين إلا السفن جوانح ، فارتاعوا لذلك فقال الملاحون إن الفرس قد فجروا الأنهار ، وسدوا الفرات ، فسلك الماء غير طريقه ، فتعجل خالد فى جريدة من الخيل نحو ابن الأزاذية وخبىء خيلا من خيله على فم العتيق وهم آمنون من الغارة فى تلك الساعة ، فأنامهم بالمقر[1] ثم سار من فوره ، وسبق الأخبار حتى لقى ابن الأزاذية وجنده على فم فرات بادقلى فاقتتلوا ، فأوقع بهم وأنامهم وفجر الفرات ، وسد الأنهار فسلك الماء سبيله .

قصد خالد الحيرة ، وسار حتى نزل بين الخورنق والنجف فعبر الأزاذية الفرات هارباً من غير قتال لما دهمه من مصاب ابنه وموت أردشير . ولما تلاحقت جموع المسلمين بالخورنق خرج بهم خالد حتى عسكر بين الغريّين والقصر الأبيض (وهو موضع عسكر الأزاذية) وأهل الحيرة متحصنون فى قصورهم ، فأجال عليهم الخيل فى عرصاتهم[2] ووكل بكل قصر رجلا يحاصر من فيه ويقاتلهم ، وعهد إلى أولئك القواد أن يدعوهم فإن لم يقبلوا أجلوهم يوماً ثم يناجزونهم ففعلوا واختار القوم المنابذة ، وكان أول الأمراء بدءاً للقتال ضرار بن الأزور[3] فإنه حين رآهم عمدوا لرمى المسلمين بالخزف أمر بأن يرشقوهم بالنبل ، وتابعه الأمراء على مثل ذلك ، فافتتحوا الدور والديرات ، وأكثروا القتل ؛ فنادى القسيسون والرهبان يا أهل القصور : ما يقتلنا غيركم فنادى أهل القصور : يا معشر العرب قد قبلنا واحدة من ثلاث ؛ فكفوا عنا ،

---

(١) المقر بالفتح ثم السكون ... موضع قرب فرات بادقلا من ناحية البر من جهة الحيرة كانت به وقعة للمسلمين وأميرهم خالد ... قال عاصم بن عمرو :

ألم ترنا غداة المقر فئنا ... بأنهار وساكنها جهارا
قتلناهم بها ثم انكمأنا ... إلى فم الفرات بما استجارا

معجم البلدان ج ٨ ص ١٢٤ .

(٢) العرصات جمع عرصة بوزن ضربه وهى كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء ،

(٣) وكان محاصرا للقصر الأبيض وفيه إياس بن قبيصة الطائى وكان ضرار بن الخطاب محاصرا قصر العدسيين وفيه عدى بن عدى ، وضرار بن مقرن المزنى محاصرا قصر بنى مازن وفيه ابن أكال والمثنى محاصرا قصر ابن بقيله وفيه عمرو بن عبد المسيح ، الطبرى ج ٤ ص ١٢ .

و بلغونا خالداً فنزل نقباء الحيرة إلى أمراء المسلمين ، فأرسلوهم إلى خالد وهم على مواقفهم .

وكان أول الرؤساء طلباً للصلح عمرو بن عبدالمسيح ، وتبعه بقية الرؤساء فأرسلهم الأمراء إلى خالد ، ومع كل واحد منهم ثقة ليصالح عليه أهل الحصن ، فخلا خالد بأهل كل حصن على حدة ولامَهُم . ومما قاله لهم : « ويحكم ما أنتم ؟ أعرب فما تنقمون من العرب ، أو عجم فما تنقمون من الإنصاف والعدل[1] » . وقال لهم اختاروا واحدة من ثلاث : الدخول فى الإسلام ، أو الجزية ، أو المنابذة والمناجذة ، فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة ؛ فاختاروا الجزية ، وصالحوه على تسعين ومائة ألف درهم وأهدوا له الهدايا .

بعث خالد بالفتح والهدايا إلى أبى بكر مع الهذيل الكاهلى ، فقبلها على أن تكون من الجزاء وكتب إلى خالد : أن احسب لهم هديتهم من الجزاء ، وخذ بقية ما عليهم فقوِّ بها أصحابك ، وكتب لهم خالد كتاب صلح هذا نصه[2] :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عدياً وعمراً ابنى عدى ، وعمرو بن عبد المسيح ، وإياس بن قبيصة ، وحيرى بن أكال ، وهم نقباء أهل الحيرة ، ورضى بذلك أهل الحيرة وأمروهم به ، عاهدهم على تسعين ومائة ألف درهم تقبل فى كل سنة جزاء عن أيديهم فى الدنيا رهبانهم وقسيسهم ، إلا من كان منهم على غير ذى يد حبيساً عن الدنيا تاركا لها ، وعلى المنعة ، فإن لم يمنعهم فلا شىء عليهم حتى يمنعهم ، وإن غدروا بفعل أو بقول فالذمة منهم بريئة ، وكتب فى شهر ربيع الأول من سنة ١٢ » .

وقال القعقاع بن عمرو فى أيام الحيرة :

سقى الله قتلى بالفرات مقيمة وأخرى بأثباج النجاف الكوانف

---

(١) تلك سياسة رشيدة تدل على الكياسة والمهارة ، وتشعرنا بأن خالدا سياسى ماهر يأتى للأمور كما هو قائد بطل مجرب .

(٢) الطبرى ج ٤ ص ١٠٤ .

فنحن وطئنا بالكواظم هرمزاً وبالثنى قرنى قارن بالجوارف
ويوم أحطنا بالقصور تتابعت على الحيرة الروحاء إحدى المصارف (١)

ومن طريف ما يحكى أن رجلا اسمه شويل كان قد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يبشر المسلمين بفتح الحيرة ، فسأله كرامة بنت عبد المسيح ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : هيلك إذا فتحت عَنوة . فلما فتح خالد الحيرة ، وطلب أهلها الصلح جاء شويل هذا إلى خالد يطلب الوفاء بما وعده إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشهد له جماعة بأن ذلك كان ، فجعل خالد فى صلحهم تسليم كرامة ، فشق ذلك على قومها ، وأعظموا الخطر ، فقالت : لاتخطروه ولكن اصبروا ما تخافون على امرأة بلغت ثمانين سنة ، فإنما هذا رجل أحمق رآنى فى شبيبتى فظن أن الشباب يدوم ؛ فدفعوها إلى خالد فدفعها خالد إليه فقالت: ما أربك إلى عجوز كما ترى : فادِنى . قال: لا ، إلا على حكمى ، قالت : فَلَكَ حكمك مرسلا ، فقال : لست لأم شويل إن نقصتك من ألف درهم فاستكثرت ذلك لتخدعه ثم أتته بها ؛ فرجعت إلى أهلها فتسامع الناس بذلك فعنفوه ، فقال : ما كنت أرى أن عدداً يزيد على ألف فأبوا عليه إلا أن يخاصمهم فقال : كانت نيتى غاية العدد ، وقد ذكروا أن العدد يزيد على ألف ، فقال خالد أردت أمْراً وأراد الله غيره ، نأخذ بما يظهر ، وندعك ونيتك كاذباً كنت أو صادقاً (٢) .

ولما صالح أهل الحيرة خالداً جاء صلوبا بن نسطونا صاحب قس الناطف حتى دخل على خالد عسكره فصالحه على بانقيا وباروسْما (٣) وضمن له ما عليهما وعلى

(١) الطبرى جـ ٤ ص ١٥ .

(٢) الطبرى جـ ٤ ص ١٥ ، وفى أسد الغابة جـ ٢ ص ١٩ — أن الذى طلب ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم هو خريم بن أوس بن حارثة ، وأن المرأة كان اسمها الشيماء بنت نقيلة الأزدية .

(٣) وذكر ياقوت فى معجمه : أنهم قاتلوا خالدا ليلة حتى الصباح ؛ فلما رأوا أنه لا طاقة لهم بحربه طلبوا الصلح ، فصالحهم ، وقال فى ذلك ضرار بن الأزور :

أرقت ببانقيا ومن يلق مثل ما لقيت ببانقيا من الحرب يأرق

وبانقيا بكسر النون : ناحية من نواحى الكوفة ، معجم البلدان جـ ٢ ص ٥٠ ، وباروسما ، الواو والسين ساكنتان : ناحيتان من سواد بغداد ، معجم البلدان جـ ٢ ص ٣٤ .

أرضيهما من شاطىء الفرات جميعاً ، واعتقد لنفسه وأهله وقومه على عشرة آلاف دينار سوى خرزة كسرى ، وكتب لهم كتابا هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه . إنى عاهدتكم على الجزية والمنعة على كل ذى يد بانقيا وبسما جميعا على عشرة آلاف دينار سوى الخرزة : القوى على قدر قوته ، والمقل على قدر إقلاله فى كل سنة ، وإنك قد نَقَبْت على قومك ، وإن قومك قد رضوا بك . وقد قبلت ومن معى من المسلمين ، ورضيت ورضى قومك فلك الذمة والمنعة ، فإن منعناكم فلنا الجزية ؛ وإلا ، فلا حتى نمنعكم . شهد هشام بن الوليد ، والقعقاع بن عمرو ، وجرير بن عبد الله الحميرى ، وحنظلة بن الربيع . وكتب سنة اثنتى عشرة فى صفر »[١] .

كان الدهاقين يتربصون بخالد ، وينظرون ما يصنع أهل الحيرة ، فلما استقام ما بين أهل الحيرة وبين خالد ، واستقاموا له أتته الدهاقين فصالحوه على ما بين الفلاليج[٢] إلى هُرْمُزْجِرْد على ألفى درهم إلا ما كان لآل كسرى ومن لف لفهم وأبى الدخول فى الصلح فإنه للمسلمين ولا يشمله الصلح . وهاك كتاب صلحهم[٣] :

« بسم الله الرحمن . هذا كتاب من خالد بن الوليد لزاذ بن بهيش وصلوبا ابن نسطونا إن لكم الذمة ، وعليكم الجزية ، وأنتم ضامنون لمن نقبتم عليه من أهل البهقباذ الأسفل والأوسط .... على ألفى ألف تقبل فى كل سنة ، ثم كل ذى يد سوى ما على بانقيا وبسما ، وإنكم قد أرضيتمونى والمسلمين ، وإنا قد أرضيناكم ، وأهل البهقباذ الأسفل ومن دخل معكم من أهل البهقباذ الأوسط على أموالكم ليس فيها ما كان لآل كسرى ومن مال ميلهم .

شهد هشام بن الوليد ، والقعقاع بن عمرو ، وجرير بن عبد الله الحميرى وبشير ابن عبيد الله بن الخصاصية وحنظلة بن الربيع . وكتب سنة اثنتى عشرة فى صفر »[٤]

---

(١) الطبرى جـ ٤ ص ١٦ .

(٢) الفلاليج بالفتح : القرى ، وفلاليج السواد قراها إحداها فلوجة ، معجم البلدان جـ ٦ ص ٣٩١ ، وهرمز جرد ناحية كانت بأطراف العراق ، معجم البلدان جـ ٨ ص ٤٦٠ .

(٣) الطبرى جـ ٤ ص ١٧ .

(٤) يظهر أن تأريخ هذا الكتاب والذى قبله بشهر صفر على غير ما ينبغى لأن كتابتهما كانت بعد فتح الحيرة وهى فتحت فى شهر ربيع الأول ويبدو لنا أن تحديد السنة من وضع الرواة وليس من صلب العقد ، لأن التاريخ لم يكن قد اصطلح عليه بعد .

فتح خالد جانباً كبيراً من العراق ، وغلب الفرس على خير شقى السواد ، وجعل الحيرة مقراً للقيادة العليا ، ومركزاً للأعمال الحربية ، ومعقلا لجيوش المسلمين ، وآن له أن ينظر فيما فتحه نظر تنظيم وتدبير ، ويرتب أمور البلاد التى غلب عليها ، ليوهن عزم الفرس ، ويقضى على أملهم فى استعادة شىء مما فقدوه ، فبث مسالحه وعماله لجباية الخراج ، وحماية الثغور .

عمال خالد وأمراؤه :

كان عمال الخراج فى زمنه هم :

١ — عبد الله بن وثيمة النصرى على الفلاليج .

٢ — وجرير بن عبد الله على بانقيا و بسما .

٣ — و بشير بن الخصاصية على النهرين .

٤ — وسويد بن مقرن المزنى على تستر .

٥ — وأط بن أبى أط على روذمستان[1] .

وأما أمراء الثغور فهم :

١ — ضرار بن الأزور .
٢ — وضرار بن الخطاب .
٣ — والمثنى بن حارثة .
٤ — وضرار بن مقرن .
٥ — والقعقاع بن عمرو .
٦ — و بسر بن أبى رهم .
٧ — وعتيبة بن النهاس ؟

فنزلوا على السيب[2] فى عرض سلطانه .

خطة حكيمة :

أراد خالد أن يتقدم إلى الفرس ، وأن يعذرهم من نفسه بعد ما صدمهم مراراً ، وعرفوا حدته ، و يمن نقيبته ، لعل منهم من يثوب إليه رشده و يعاوده عقله ، فيعطى

(١) وقد حبى الخراج إلى خالد فى خمسين ليلة ، الطبرى ج ٤ ص ١٨ .

(٢) السيب بكسر أوله وسكون ثانيه وأصله مجرى الماء كالنهر ، وهو كورة من سواد الكوفة ، والسيب أيضاً نهر بالبصرة فيه قرية كبيرة ، معجم البلدان ج ٥ ص ١٩٠ .

بيده فيأمن ويأمن قومه ، كما أراد أن يُمِرَّ عيشهم ، ويحل عزائمهم فبعث إليهم بكتابين هما أشد من الصواعق ، وَأَمَرَّ على نفوسهم من كل ما لاقوه منه ، أحدهما للخاصة والآخر للعامة . وقال لمرة الحيرى حين بعثه لملوك فارس : اذهب إليهم فلعل الله أن يمر عيشهم ، أو يسلموا أو ينيبوا . وهذا نص كتاب الخاصة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس . أما بعد فالحمد لله الذى حل نظامكم ، ووهن كيدكم ، وفرق كلمتكم ، ولو لم يفعل ذلك بكم كان شراً لكم ؛ فادخلوا فى أمرنا ندعكم وأرضكم ، ونجوزكم إلى غيركم ، وإلا كان ذلك وأنتم كارهون ، على غلب ، على أيدى قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » .

وقال لهرمز حين وجه به إلى المرازبة : اللهم ازهق روحهم . وهذا نص كتابهم :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من خالد بن الوليد إلى مرازبة فارس أما بعد فأسلموا تسلموا ، وإلا فاعتقدوا منى الذمة وأدوا الجزية ، وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر[1] » .

وفى هذا الوقت الذى كان يمخر فيه المسلمون فيما دون دجلة ، كان أهل فارس — بموت أردشير — مختلفين فى الملك ، مجتمعين على قتال خالد متساندين وكانوا بذلك سنة ، والمسلمون يمخرون ما دون دجلة ، وليس لأهل فارس فيما بين الحيرة ودجلة أمر ، وليس لأحد منهم ذمة إلا الذين كاتبوه واكتتبوا منه ، وسائر أهل السواد جلاء ، ومتحصنون ومحاربون ، واكتتب عمال الخراج ، وكتبوا البراءات لأهل الخراج من نسخة واحدة : « بسم الله الرحمن الرحيم براءة لمن كان من كذا وكذا من الجزية التى صالحهم عليها الأمير خالد بن الوليد ، وقد قبضت الذى صالحهم عليه خالد ، وخالد والمسلمون لكم يد على من بدل صلح خالد ما أقررتم بالجزية وكففتم ، أمانكم أمان ، وصلحكم صلح ، نحن لكم على الوفاء ، وأشهد لهم النفر من الصحابة الذين كان خالد أشهدهم : هشاماً ، والقعقاع ، وجابر بن طارق ،

---

(١) الطبرى جـ ٤ ص ١٨ .

وجريراً ، وبشيراً ، وحنظلة ، وازداذ ، والحجاج بن ذى العنق ، ومالك بن زيد[١] .

ولم يكن لأهل فارس همٌّ إلا المدافعة عن بهرسير[٢] فلما أن جاءتهم كتب خالد أحبوا أن يفرغوا من تنازعهم واختلافهم ، وأن يجمعوا كلمتهم على رجل يختارونه فولوا عليهم الفرخزاذ بن البندوان (ولم يكن من بيت الملك) إلى أن يجدوا من آل كسرى مَن يجتمعون عليه .

ولما استقام لخالد أمره ، واطمأن على الثغور استخلف على الحيرة القعقاع بن عمرو وسار لإغاثة عياض بن غنم الذى بعثه أبو بكر لفتح العراق من أعلاه ، وعلى مقدمته الأقرع بن حابس ، فسلك الفلوجة[٣] حتى نزل بكربلاء[٤] وعلى مسلحتها عاصم بن عمرو ، فأقام بها أيامًا ، ثم نادى بالرحيل حتى انتهى إلى الأنبار .

الأنبار[٥] :

لما بلغ أهل الأنبار نبأ خالد تحصنوا وامتنعوا ، وخندقوا على أنفسهم ، وأشرفوا من حصنهم وعليهم شيرزاذ صاحب ساباط — وكان أعقل أعجمي يومئذ وأسوده وأقنعه فى الناس العرب والعجم — ووافاهم خالد على مقدمة الجيش فأطاف بالخندق وتوًّا أنشب القتال — لأنه كان لا يصبر عن الحرب إذا رآها أو سمع بها — وقال لرماته : « إنى أرى أقوامًا لا علم لهم بالحرب ، فارموا عيونهم ، ولا تَوَخوا غيرها » فأصابوا فيهم ألف عين[٦] ، فتصايح القوم : ذهبَت عيون أهل الأنبار ؛ فراسل شيرزاذ خالدًا فى الصلح على أمر لم يرضه ؛ فرد رسله وعمد إلى الإبل العجاف

---

(١) الطبرى جـ ٤ ص ١٨ .

(٢) من نواحى سواد بغداد قرب المدائن ، معجم البلدان جـ ٢ ص ٣١٤ .

(٣) الفلوجة الأرض المصلحة للزرع ، معجم البلدان جـ ٦ ص ٣٩٨ .

(٤) كربلاء موضع قتل الحسين بن على رضى الله عنهما ، وهى فى طرف البرية قريباً من الكوفة معجم البلد جـ ٧ ص ٢٢٩ .

(٥) الأنبار مدينة على الفرات فى غربى بغداد بينهما عشرة فراسخ ، معجم البلدان جـ ١ ص ٣٤١ .

(٦) ومن ثم سميت هذه الوقعة أيضاً وقعة ذات العيون لكثرة ما فقىء فيها من العيون ، الطبرى جـ ٤ ص ٢٠ .

فى جيشه فنحرها ، ورمى بها فى أضيق مكان فى الخندق فأفعمه ، ثم اقتحمه على جسر من تلك الرذايا[١] وصار معهم داخل الخندق فأرزوا[٢] إلى حصنهم فطلب شيرزاذ الصلح على ما أراد خالد ، على أن يخليه ويلحقه بمأمنه فى جريدة خيل ليس معهم من الأموال والمتاع شىء ، فوفى له خالد ، وانتهى بذلك أمر الأنبار . وجاء من حولها كذلك فصالحوه ، وبدأ بأهل البوازيج ، وبعث إليه كلواذى ليعقد لهم فكاتبهم ، فكانوا عيبته من وراء دجلة[٣] .

وقيادة خالد لمقدمة الجيش ، وطوافه بنفسه حول الخندق لتعرّف مواطن الضعف فيه ، ثم إنشابه للقتال توًّا ، وكونه لا يصبر عن الحرب إذا رآها أو سمع بها ، ثم فراسته فى تعرف قدرة عدوه على الحرب ، وخبرته بها ليتحرى ناحية الضعف فى عدوه فيأتيه منها ، ويحاربه بالسلاح الذى لا يحسنه ، وهو بعد ذلك لا يفوته أن يعمد إلى الحيلة للفكاية بعدوه ؛ كل هذا يكشف لنا عن كثير من نواحى تلك المهارة الحربية التى امتاز بها .

ولما استقام لخالد أمر الأنبار استخلف عليها الزبرقان بن بدر ، وتوجه إلى عين التمر .

عين التمر[٤]

وكان بها يومئذ « مهران بن بهرام جوبين » فى جمع عظيم من العجم ، « وعقة ابن أبى عقة » فى جمع عظيم من العرب : من النمر وتغلب وإياد ومن لافّهم ، وحين سمعوا بمسير خالد إليهم قال عقة لمهران : « إن العرب أعلم بقتال العرب فدعنا وخالداً . قال : صدقت ، لعمرى أنتم أعلم بقتال العرب ، وإنكم لمثلنا فى قتال العجم »

---

(١) العجاف جمع عجفاء وهى الهزيلة ، والرزايا : الضعاف .

(٢) أرزى إليه : التجأ واستند ، القاموس المحيط .

(٣) الطبرى جـ ٤ ص ٢١ .

(٤) عين التمر : بلدة قريبة من الأنبار غربى الكوفة ... وهى على طرف البرية ، معجم البلدان جـ ٦ ص ٢٥٣

فخدعه وورطه واتقى به وقال : « دونكموهم ، وإن احتجتم إلينا أعناكم »[1] .

عز ذلك على مَن معه مِن العجم فقالوا له : « ما حملك على أن تقول هذا القول لهذا الكلب ؟ » ، وكان العجم يحقرون العرب . فقال : دعونى فإنى لم أرد إلا ما هو خير لكم وشر لهم ، إنه قد جاءكم مَن قتل ملوككم ، وفلّ حدكم فاتقيته بهم ، فإن كانت لهم على خالد فهى لكم ، وإن كانت الأخرى لم يبلغوا منهم حتى يهنوا فنقاتلهم ، ونحن أقوياء ، وهم مضعفون » . فحمدوا له رأيه .

نزل عقة خالد على الطريق وصار كالخفير لمهران الذى اعتصم بالحصن ، وبينه وبين عقة مقدار غدوة أو روحة ، وقدم خالد على تعبئة ، وقال لجنبتيه : اكفونى ما عنده فإنى حامل ، ووكل بنفسه حوامى ثم حمل على عقة وهو يعدل صفوفه فاحتضنه وأخذه أسيراً ، وانهزم جنده وأتبعهم المسلمون ، وأمعنوا فى أسرهم .

بلغ الخبر مهران فترك الحصن ، وهرب فى جنده من غير قتال ، والتجأ فُلاّل عقة إلى الحصن فاقتحموه ، واعتصموا به ، ونزل خالد على الحصن وحاصره ، ومعه عقة أسيراً ، وكانوا يرجون أن يكون خالد كغيره ممن كان يغير من العرب ، لا يلبث أن يتركهم متى ظفر بالغنائم والأموال ، فلما رأوه غير تاركهم طلبوا الأمان فأبى إلا على حكمه ، فلبوا ، فدفعهم إلى المسلمين ، وضرب عنق عقة ، وطرحه على الجسر ؛ ليؤيسهم من الحياة ، ثم انثنى عليهم فضرب أعناقهم جميعاً ، وتسلم الحصن وغنم كل ما فيه . ووجد فى بيعتهم أربعين غلاماً يتعلمون الإنجيل فقال : ما أنتم ؟ قالوا : رُهُن ، فقسمهم فى أهل البلاء ، وكان منهم مَن أعقب رجالا عظماء كان لهم شأن يذكر فى دولة الإسلام : منهم نصير أبو موسى بن نصير ، وسيرين أبو محمد ابن سيرين ، وحمران مولى عثمان رضى الله عنه .

أرسل خالد إلى أبى بكر الوليد بن عقبة بالفتح والأخماس ، فوجهه مدداً لعياض

---

(١) الطبرى جـ ٤ ص ٢١

ابن غنم ؛ فقدم عليه وهو محاصر دُومة الجندل ، وأهلها محاصروه ، وقد أخذوا عليه الطريق فقال له : الرأى فى بعض الحالات خير من جند كثيف ، ابعث إلى خالد فاستمده ؛ ففعل ، وقدم رسول عياض على خالد مستغيثاً غِبَّ وقعة العين ؛ فعجل إلى عِياض بكتابه المشهور ونصه : « من خالد إلى عياض إياك أريد :

لبث قليلا تأتك الجلائب يحملن آساداً عليها القاشب

كتائب يتبعها كتائب »

استخلف خالد على عين التمر : عويم بن الكاهل الأسلمى ، وخرج فى تعبئته التى دخل بها العين يريد دُومة الجندل :

دومة الجندل

لما بلغ أهل دومة سير خالد إليهم استنفروا أشياعهم من بهراء وكلب وغسان وتنوخ والضجاعم ، ومن قبل قد أتاهم وديعة فى كلب وبهراء ، ومساندة بن و برة بن رومانس ، وأتاهم ابن الحدرجان فى الضجاعم ، وابن الأيهم فى طوائف من غسان وتنوخ فأشجوا عياضاً ، وشجوا به . وكان عليهم رئيسان : أكيدر بن عبد الملك ، والجودى ابن ربيعة ، فلما دنا منهم خالد اختلفوا ؛ فقال أكيدر : « أنا أعلم الناس بخالد : لا أحد أيمن طائراً منه ، ولا أحد فى حرب ، ولا يرى وجه خالد قوم أبداً قلوا أو كثروا إلا انهزموا عنه ، فأطيعونى وصالحوا القوم » ، فأبوا عليه فقال : لن أمالئكم على حرب خالد فشأنكم فخرج لطيته[1] .

علم خالد بخروج أكيدر فبعث إليه عاصم بن عمرو معارضا له ؛ فأخذه فقال : إنما تلقيت الأمير خالداً ، فلما أتى به خالدا أخذ ما كان معه من شىء ، وضرب عنقه جزاء غدره وخيانته ونقضه العهد ؛ لأنه كان قد عاهد النبى صلى الله عليه وسلم من قبل فغدر .

---

(١) رأى أكيدر هذا رأى صائب مبنى على تجربة وخبرة سابقة ؛ فقد كانت له مع خالد موقعة قبل ذلك .

مضى خالد حتى نزل على أهل دومة وعليهم « الجودى بن ربيعة » « ووديعة الكلبى » « وابن رومانس الكلبى » « وابن الأيهم » « وابن الحدرجان » فجعل خالد دومة بين عسكره ، وعسكر عياض ، وكان الذين أمدوا أهل دومة من نصارى العرب محيطين بالحصن ، لأنه لم يتسع لهم .

— لم يخف على القوم ما حل بهم ؛ فرتبوا أنفسهم ، فنهض الجودى بوديعة لخالد ، وابن الحدرجان وابن الأيهم لعياض ، فأمكن الله المسلمين من الفريقين ؛ فأخذ خالد الجودى أخذا ، وأخذ الأقرع بن حابس وديعة ، وأرز بقية الناس إلى الحصن ، فلم يحملهم ، وأوصده من فيه دونهم ، فظلوا تحت السيف حرداء ، وأجار عاصم بن عمرو ومن معه من تميم حلفاءهم من كلب[1] .

وأعمل خالد السيف فى الذين التجأوا إلى الحصن حتى أفناهم ، وسد بهم بابه ، وضرب عنق الجودى والأسرى ماعدا أسارى كلب ، لأمان عاصم وبنى تميم لهم ، ثم اقتلع باب الحصن ، فاقتحمه المسلمون وقتلوا المقاتلة ، وسبَوا الشرخ[2] فأقاموهم فيمن يريد ؛ فاشترى خالد ابنة الجودى وكانت موصوفة[3] .

— أمر خالد الأقرع بن حابس بالرجوع إلى الأنبار ، وأقام هو بدومة ؛ فكانت إقامته مدعاة لطمع الأعاجم ، وظنهم به الظنون ، وكذلك ظنها عرب الجزيرة فرصة فكاتبوا الأعاجم ، ليكونوا معهم على خالد غضبا لعقة الذى لم ينسوا مصرعه بعد ؛ فخرج زَرْمِهْر[4] من بغداد ومعه « روزبه » يريدان الأنبار واتعدا « حصيدا ، والخنافس » ، فوصل خبرهم الزبرقان بن بدر — وهو على الأنبار — فاستمد القعقاع ابن عمرو خليفة خالد على الحيرة فأمده بأعبد بن فدكى السعدى وأمره بالحصيد ،

---

(١) قال عاصم بن عمرو : « حلفاؤكم كلب آسروهم وأجيروهم فإنكم لا تقدرون لهم على مثلها ففعلوا » الطبرى جـ ٤ ص ٢٣

(٢) الشرخ : هم الشباب أهل الجلد الذين ينتفع بهم فى الخدمة ، أوهم الصغار . لسان العرب .

(٣) الطبرى جـ ٤ ص ٢٣

(٤) هكذا فى الطبرى طبع مصر : زرمهر بزاى مفتوحة ثم راء مكسورة . وفى معجم البلدان جـ ٣ ص ٢٨٨ : روزمهر براء مضمومة بعدها واو ثم زاى مفتوحة وميم ساكنة وهاء مكسورة .

و بعروة بن الجعد البارقي وأمره بالخنافس وقال لهما : إن رأيتما مقدماً فأقدما ؛ فخرجا فحالا بينهما و بين الريف وأغلقاهما ؛ فتربصا بالمسلمين اجتماع مَن كاتبهما من ربيعة ثم يصادمونهم . فلما رجع خالد إلى الحيرة وقد عزم على مصادمة أهل المدائن ، و بلغه الذي كان ، عجل بإرسال القعقاع وأبي ليلى إلى روزبه وزرمهر فسبقاهما إلى عين التمر .

قدم على خالد كتاب امرىء القيس الكلبي أن الهذيل بن عمران قد عسكر بالمصيخ ، وربيعة بن بجير قد عسكر بالثَّنِيِّ و بالبشر غضبا لعقة ، وأنهما يريدان زرمهر ، وروزبة ، فاستخلف على الحيرة عياض بن غنم ، ونهض وعلى مقدمته الأقرع بن حابس ، فأخذ طريق القعقاع ، وأبي ليلى إلى الخنافس حتى قدم عليهما بعين التمر ، فبعث القعقاع إلى الحصيد ، وجعله أميراً على الناس ، وبعث أبا ليلى إلى الخنافس وأمرهما أن يزجوهم و يدفعوهم كى يجتمعوا ، ومن استثارهم فيصدمهم المسلمون صدمة واحدة و يفرغوا منهم . ولكن يظهر أنهم فطنوا لنية المسلمين بهم ، فلم يجتمعوا ولم يمكنوهم من أنفسهم .

رأى القعقاع بن عمر أن زرمهر، وروزبة لم يتحركا فسار يريد الحصيد .

الحصيد[1] :

كان روزبة رئيس من به من العرب والعجم ، فلما علم بقصد القعقاع إليه استمد زرمهر فأمده بنفسه واستخلف على عسكره المهبوذان والتقى الجمان فقتل المسلمون منهم مقتلة عظيمة من بينهم زرمهر وروزبة[2] وغنموا منهم مغانم كثيرة .

قال القعقاع بن عمر :

ألا أبلغا أسماء أن حليلها قضى وطرا من زورمهر الأعاجم

(١) الحصيد بالفتح ثم بالكسر وياء ساكنة ودال مهملة : موضع فى أطراف العراق من جهة الجزيرة — معجم البلدان جـ ٣ ص ٢٨٨

(٢) زرمهر قتله القعقاع ، وروزبه قتله عصمة بن عبد الله الضبي — الطبري جـ ٤ ص ٢٤

obeikandi.com

غداة صبحنا فى حصيد جموعهم بهندية تفرى فراخ الجماجم

وأرز فلال الحصيد إلى الخنافس .

الخنافس :

سار أبو ليلى بمن معه ومن قدم عليه إلى الخنافس ؛ فلما أحس به المهبوذان هرب هو وجنده ، ومن التجأ إليه ، وأرزوا إلى المصيخ ، وبه الهذيل بن عمران ، فاستولى المسلمون على الخنافس بغير قتال ، وبعثوا إلى خالد بالخبر .

المصيخ (١) :

انتهى خبر الحصيد والخنافس إلى خالد فواعد قواده : القعقاع بن عمرو ، وأبا ليلى ، وأعبد ، وعروة ، ليلة وساعة يجتمعون فيها إلى المصيخ ، فتوافوا إليها فى موعدهم ، وبيتوا الهذيل ، ومن أوى إليه من ثلاثة أوجه ، فأناموهم ، وامتلأ الفضاء برمهم كأنهم غنم مصرعة ، وأفلت الهذيل فى نفر قليل من أصحابه .

أصاب جرير بن عبد الله وهو فى المعركة يوم المصيخ رجلين كانا قد أسلما ، ومعهما كتاب من أبى بكر بإسلامهما وهما : عبد العزى بن أبى رهم ، ولبيد بن جرير ، ولما بلغ أبا بكر قول عبد العزى ليلة الغارة :

أقول إذا طرق الصباح بغارة سبحانك اللهم ربّ محمد

سبحان ربى لا إله غيرُه رب البلاد ورب من يتورّد

وداهما وأوصى بأولادهما . وكان عمر يعتد على خالد بقتلهما وقتل مالك

---

(١) المصيخ : قال الطبرى هى بين حوران والقلت وذكره فى بعض رواياته وتابعه ابن الأثير بضاد وفى آخره حاء وهو غلط كما يعلم من معجم البلدان إذ يقول : المصيخ بضم الميم وفتح الصاد المهملة وياء مشددة وخاء معجمة يقال له مصيخ بنى البرشاء وهو بين حوران والقلت وكانت به وقعة هائلة لخالد على بنى تغلب . فقال التغلبى : « يالبلة ما ليلة المصيخ . . » وقال القعقاع بن عمرو :

سائل بنا يوم المصيخ تغلبا وهل عالم شيئاً وآخر جاهل

طرقناهم فيها طروقاً فأصبحوا أحاديث فى أفناء تلك القبائل

معجم البلدان جـ ٨ ص ٧٩

ابن نويرة فيقول أبو بكر : « كذلك يلقى من ساكن أهل الحرب فى ديارهم » .

وفى الحق إنه كان للرجلين متسع من الأرض يأمنان فيه ، وليس بهما من ضرورة تضطرهما إلى المقام فى مستنقع الموت ، وفى صف أعداء دينهم ، والمشاقين لأهل الإسلام . ومن ظن أنه يصنع صنيعهما ، ولا يكون موطنا نفسه على أن يكون طعاماً للسيوف وغرضاً للسهام فقد ظن عجزاً .

الثنى والزميل (١) :

فرغ خالد من أمر المصيخ ، فأمر القعقاع وأبا ليلى أن يرتحلا أمامه ، وواعدهما ليلة ليغيروا على ربيعة بن بجير التغلبى ، وقد نزل الثنى والبشر (الزميل) غضباً لعقة ، ورتب الأغارة عليهما من نواح ثلاث كما فعل بأهل المصيخ ، ثم خرج فبدأ بالثنى ، واجتمع بأصحابه فبيتوا ابن بجير ومن اجتمع له وإليه ، وجرد السيف فلم يفلت منهم مخبر ، واستبى الشرخ وبعث بالخمس إلى أبى بكر مع النعمان بن عوف الشيبانى ، وقسم النهب والسبايا . قال أبو مقرر :

طرقنا بالثنى بنى بجير بياتا قبل تصدية الديوك

فلم نترك بها أرما وعجمى مع النصر المؤزر بالسهوك (٢)

ولما انتهى خالد من الثنى قصد الزميل (البشر) وفيه عتاب بن فلان فى عسكر ضخم ، وقد سبق إليه الخبر عن ربيعة ، وأوى إليه الهذيل حين نجا من المصيخ ، فبيتهم بمثلها غارة شعواء من ثلاث جهات ، فقتل منهم مقتلة عظيمة لم يقتلوا قبلها مثلها ، وأصابوا منهم ما شاءوا — وكانت على خالد يمين ليبغتن تغلب فى دارها — وقسم الفىء فى الناس ، وبعث بالأخماس إلى أبى بكر مع الصباح بن فلان المزنى .

---

(١) الثنى بالفتح ثم بالكسر وياء مشددة بلفظ الثنى من الدواب ... وهو علم لموضع بالجزيرة قرب الشرقى شرقى الرصافة — معجم البلدان جـ ٣ ص ٣٦ ، الطبرى جـ ٤ ص ٢٥

(٢) معجم البلدان جـ ٣ ص ٢٦ واشترى على كرم الله وجهه من السبايا بنت ربيعة بن بجير التغلبى فولدت عمراً ورقية — الطبرى جـ ٤ ص ٢٥

عطف خالد من البشر إلى الرضاب[١] وبها هلال بن عقة ، فارفض عنه أصحابه حين سمعوا بدنو خالد منهم ؛ فانقشع عنها هلال فلم يلق المسلمون بها كيدا .

الفراض[٢] :

بسط خالد سلطانه على سواد العراق ، وأبلى فى عرب الجزيرة ، ونال منهم ثم قصد الفراض (وهى تخوم الشام والعراق والجزيرة) حتى يحفظ ظهره ، ويأمن من أن يكون وراءه عورة ، حتى إذا قدر له أن يجتاز السواد إلى فارس كان آمنا مطمئنا على مافتحه[٣] .

فلما اجتمع المسلمون بالفراض اغتاظت الروم واهتاجت ، واستعانوا بمن يليهم من مسالح الفرس ، فلبوا سراعا ؛ لأنهم حانقون حاقدون على خالد والمسلمين الذين أذلوهم وكسروا شوكتهم ، كما استمدوا العرب من تغلب و إياد والنمر فأمدوهم ؛ لأنهم لم ينسوا بعد مصرع رؤسائهم وأشرافهم ، فاجتمعت جيوش الروم والفرس والعرب على المسلمين فى تلك الموقعة ، ثم ناهدوهم حتى إذا صار الفرات بينهم قالوا : إما أن تعبروا إلينا أو نعبر إليكم ، فلم ير خالد أن يزج بجيش المسلمين فى تلك المخاطرة التى قلما تؤمن؛ فأجابهم : أن اعبروا إلينا ، فقالوا : ابتعدوا حتى نعبر ، فأبى خالد وقال : بل اعبروا أسفل منا ؛ فعبروا أسفل، منهم فلما تتاموا قالت الروم : « امتازوا حتى نعرف اليوم ما كان من حسن أو قبيح من أينا يجىء »[٤] ، فامتازوا ونشبت المعركة فاقتتلوا قتالا شديداً طويلا ، وحقت الهزيمة على جيوش المؤتلفين ؛ فقال خالد لأصحابه : ألحوا عليهم ، ولا ترفهوا عنهم ، فجعل صاحب الخيل يحشر منهم

---

(١) الرضاب موضع الرصافة قبل بناء هشام إياها — معجم البلدان جـ ٤ ص ٢٥٩

(٢) الفراض : تخوم الشام والعراق والجزيرة فى شرقى الفرات — معجم البلدان جـ ٦ ص ٣٥٠

(٣) تلك سياسة حكيمة وهى توافق إرشاد أبى بكر لخالد وعياض حينما بعثهما لفتح العراق . راجع الطبرى جـ ٤ ص ٥

(٤) يشبه هذا ما صنعه خالد فى حربه لمسيلمة الكذاب حيث أمر بأن يمتاز الناس فكان لعمله هذا أثر محمود فى النصر . راجع حربه لمسيلمة .

الزمرة برماح أصحابه فإذا جموهم قتلوهم ؛ فقتلوا منهم فى المعركة وفى الطلب مائة ألف . وكانت هذه الواقعة آخر حروب خالد فى العراق ، وفى هذه الموقعة يقول القعقاع بن عمرو :

لقينا بالفراض جموع روم ... وفرس غمها طول السلام
أبَدْنا جمعهم لما التقينا ... وبيتنا بجمع بنى رزام
فما فتئتْ جُنود السلم حتى ... رأينا القوم كالغنم السوام[1]

أقام خالد على الفراض عشرة أيام بعد الموقعة ، ثم أذَّن بالرحيل إلى الحيرة لخمس بقين من ذى القعدة ، وأمر عاصم بن عمرو أن يسير بالجيش ، وجعل شجرة ابن الأعز ساقة له ، وأظهر هو أنه سائر فى الساقة ، بيد أنه ترك الجيش ومضى إلى الحج .

حج خالد

خرج خالد متكتما فى عدة من أصحابه يعتسف البلاد حتى أتى مكة بالسمت ، فتأتى له من ذلك ما لم يتأت لدليل ولا ريبال ، فقد جاز طريقاً من طرق الجزيرة لم ير أعجب ولا أصعب منه ، فقد استعرض البلاد متعسفاً متسمتاً ؛ فقطع طريق الفراض ، ماء العنبرى ، ثم مثقبا ، ثم انتهى إلى ذات عرق ، فشرق منها فأسلمه إلى عرفات من الفراض ، وسمى هذا الطريق الصُّدّ[2] ؛ فكانت غيبته عن الجند يسيرة ، فما توافى إلى الحيرة آخرهم حتى وافاهم مع صاحب الساقة فقدما معا ، ولا يعلم بحجه إلا من أفضى إليه بذلك من الساقة ، ولم يعلم الجند بحجه حتى رأوه وأصحابه محلقين رؤوسهم ومقصرين .

علم أبو بكر بحجة خالد ، وتركه للجند وهو خبير بأثر ذلك فى نفوس جُنده وجُند أعدائه ، فأكبر ذلك واعتده إعجاباً منه بنفسه وبما أتيح له من الظفر ، واستهانة لأمر عدوّه ، واستضعافاً لشأنه ، فكتب إليه كتاباً قارب فيه وباعده ، وهنأه بحجه

---

(١) معجم البلدان جـ ٦ ص ٣٥١
(٢) الطبرى جـ ٤ ص ٢٦

وعانبه ، وتصادف أنه فى ذلك الحين أرسل أمراء المسلمين الذين وجهوا لفتح الشام إلى أبى بكر يستمدونه ، فرأى أن يصيب غرضين بحجر ، فيعاقب خالداً ويظهر عتبه عليه فى صورة محسة ، كما يرسل نجدة ومدداً للمسلمين ، ويرمى الروم بالأسد الذى رمى به فارس فينسيهم به وساوس الشيطان ، ويقوّض عرشهم ، كما زلزل به عرش الأكاسرة من قبل ، فكتب إليه مع عبد الرحمن بن جميل الجمحى[1] .

« أن سِر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك ، فإنهم قد شجوا وأشجوا ، وإياك أن تعود لمثل ما فعلت ؛ فإنه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجيك ، ولم ينزع الشجى من الناس نزعك ؛ فليهنأك أبا سليمان النية والحظوة ؛ فأتمم يتمم الله لك ، ولا يدخلنّك عجب فتخسر وتذل . وإياك أن تدل بعمل فإن الله له المن وهو ولىّ الجزاء »[2] .

ولما جاءه كتاب أبى بكر بذلك قال : هذا عمل الأعيسر ، يعنى عمر بن الخطاب حسدنى أن يكون فتح العراق على يدى . ولا شك أن أمر أبى بكر هذا كان على غير ما يشتهى خالد ؛ فقد كان يرغب أن يبقى فى العراق ليتم فتحه ، ولكنه وهو الجندى الكريم لم يسعه إلا أن يسارع بالسفر إلى الشام ، ويبادر بامتثال أمر الخليفة فرأىُ أبى بكر عنده يعدل رأى الأمة بأسرها .

والآن بعد أن انتهينا من فتوح العراق ، وقبل أن يسير خالد إلى الشام يحسن أن نُلقى نظرة على تلك الفتوح ؛ لنتبين مدى أثره فيها ، وما كان لها من عائدة مادية وأدبية لجيوش المسلمين .

---

(١) الأخبار الطوال ص ١١٧ .

(٢) الطبرى جـ ٤ ص ٢٦ ، ٤٠ ابن عساكر ص ٧٠٧ والناظر لكتاب أبى بكر هذا يرى فيه من الحكمة وبعد النظر ما ينم عن سداد رأى الخليفة ، ومعرفته بالرجال ، وأن تأديبه لقواده تأديب حازم حكيم لا يشوبه إلا الإخلاص ، وحب المصلحة ، كما أنه اشتمل على وصف لخالد هو والحقيقة عنوان .

أثر خالد فى فتوح العراق

وفائدة ذلك للمسلمين

كان العرب ينظرون إلى الفرس نظر إجلال وتهيب ، مطمح نظر الواحد منهم أن يقف بباب كسرى ، وأن يُؤْذَن له ليسجد بين يدى « شاهنشاه » ، ولقد بلغ من احتقار الفرس للعرب أنهم حتى بعد أن أوقع بهم خالد فى عدة وقائع لم يعنوا بالعرب ، ولم يكترثوا بهم كما حصل منهم فى موقعة أليس ؛ فقد هيأوا طعامهم ، ولم يأبهوا بجيوش العرب أمامهم .

أتاهم خالد فأراهم أن تلك الأمة بعد ما أراد الله بها الخير ما أراد ؛ بإرسال نبيه ، واتباع دينه ، استعدت لتأخذ بدورها وتديل لنفسها ، وأنه يجب أن يذعن الفرس طوعا أو كرها لإرادتها ، وأنه قد آن للفلاحين والمستضعفين أن يعرفوا أنهم من جنس البشر ، وأن لهم حقوقاً ، وعليهم واجبات ، شأنهم فى ذلك شأن أولئك الذين كانوا يظنون فى أنفسهم ، أو يظن لهم غيرهم أنهم — ولو من ناحية الحقوق والواجبات التى يعترف لهم بها المجتمع الذى يعيشون فيه على الأقل — طبقة فوق المستوى العادى لسواد الناس ، فعرفهم خالد بأن الناس كلهم من آدم ، وآدم من تراب .

ولقد كان إرسال خالد لفتح العراق بدء ظهور الدولة الإسلامية فى مصاف الدول العظمى فى ذلك الوقت ، كما كان إيذاناً بتقلص سلطان الأكاسرة ، فزواله فيما بعد . لا جرم فقد اتصلت لها الغزوات والأيام ، ونظمن نظما ، وأتيح لها أن تخلف ملوك الأكاسرة على رقعة فسيحة من أراضيها ، فاقتطعت تحت قيادة خالد حوض نهر الفرات من شمال الأبلة إلى الفراض ، وغلبت الفرس على خير شقى السواد ، وتبحبحت فى ريف العراق .

ظن الفرس فى بادى الأمر أن غارة العرب عليهم ربما كانت تحت تأثير عوامل اقتصادية ومعيشية ، وأنهم سرعان عندما تقع أيديهم على شىء من الغنيمة والسلب

مايرجعون إلى باديتهم ، و يعودون من حيث أتوا ، ولكن تتابع الغزوات ؛ وتوالى الفتوح نبههم إلى خطئهم ، وجعلهم يفتحون أعينهم ، و يخرجون منها القذى ليروا تلك الأمة الناهضة ، وحق على دولة الفرس وقد أتت شيخوختها أن تسلم زمامها ، أو تفنيها أمة العرب يقودها ابن الوليد .

كان خالد فى فتوحه حازماً حكيما ، إذا فتح بلداً لايجوزها إلى غيرها حتى يجعل عليها أميراً لحمايتها و إقامة القسط فيها ، وآخر يجبى خراجها ، وحتى يحفظ ظهره ولا يترك وراءه عورة ، ومن ثم يتقدم لغيرها مطمئناً على مافتحه ، و إذا تم له الفتح أمن الفلاحين ، وشملهم بعطفه ورعايته ومنعهم ممن يريدهم بسوء ؛ فكانوا لذلك يرحبون بقدومه و يسرون له ، ولا يمانعونه و يحاربونه إلا مكرهين ؛ فهم يفضلون حكمه على حكم الفرس الذين أذلوهم واستعبدوهم ، ولم يجدوا منهم إلا غلظة عليهم ، و إعناتاً لهم ، وعلى قدر رأفته بهؤلاء كانت شدته وقسوته على السادة والمحاربين ؛ فإنه كان لا يصبر عن الحرب إذا رآها ، ولا يدع الجيوش متواقفة ينظر بعضها إلى بعض ، فتركد نار الحماس من نفوسهم ، بل سرعان مايظهر بين الصفوف طالباً رئيس القوم فيهتصره ، فيقع الرعب فى قلوب مَن وراءه ، وقل أن يطول أمد الحرب بعد ذلك . و إذا تمكن منهم أفحش فى قتلهم ولم تجد الرأفة بهم إلى قلبه سبيلا ، فكان عمله فى الحالتين مدعاة لابتهاج المستضعفين ، وتنغيصاً ونكداً على المحاربين ، وسبباً فى فشلهم و إلقاء الرعب فى قلوبهم .

كان الواجب على مرازبة فارس ورؤسائها بعد ماعرفوا خالداً فى موقعتين ، أو ثلاث أن يعتبروا و يتعظوا — والعاقل من اتعظ بغيره — ولا ينازلوه وقد تبين لهم حِدَّة سيفه ، ولاسيما وأنه يعطيهم نوعاً من الاختيار يجعلهم بمنجاة من الموت . أفما كان فى الناس رجل رشيد يحثهم على المسالمة ، و بذل مايريده ، يحقن على الناس هذا الدم المهار ؟. إن الابتعاد عن خالد نهاية الحزم ، وليس الانحراف عن طريقه أو إعطائه مايريد ضعفا أو جبناً ، بل إن ملافاته والوقوف فى وجهه تهلكة وتغرير :

على أن القوم الذين كانوا يجمعون له ويرصدونه أو ينهدون إليه كان يكون لهم شبه عذر لو أن الذى يقع فى يده محارباً يجد منفذاً إلى النجاة أو طريقا إلى السلامة ، فيكون القوم قد أقدموا على طمع فى الفوز ، أو أمل فى النجاة ، إن خانهم الظفر لم يخنهم عفو المنتصر .

و يظهر أنهم فعلوا ذلك لما هو عالق بنفوسهم من العزة والكبرياء ، والتهاون بالعرب واحتقارهم مما جعلهم يتمادون فى منازلة خالد ومقاتلته ، واستعظاما لأن يكونوا تحت سلطان العرب ورحمتهم .

هذا وليسطر التاريخ لخالد صفحات من المجد مازال لها فى نفوس المسلمين أثر أى أثر . على أن ماتقدم ليس كل ما استفاده المسلمون من فتوح خالد ، فإنه فضلا عن تلك الأموال والمغانم التى أخذوها — والتى بيناها فى مواضعها — فإن هناك أمراً له خطره وقيمته ، ذلك أن جنود المسلمين الذين فتحوا العراق تحت إمرة خالد قد ضروا وجرؤا على منازلة الفرس ، وأصبحوا لا يتهيبونهم ، ولا يخشون بأسهم ، فكان ذلك تمهيداً للفتوح التى جاءت بعد ، والتى قضت على دولة الأكاسرة ، وقوضت عرشها .

وفضلا عن ذلك فإن جنود المسلمين قد اعتادوا رؤية الجيوش المنظمة ذات العدة والعدد ، وخبروا أساليب الحروب معهم ، فتارة ينازلونهم وهم فى حصونهم ، وأخرى يفصل بينهم نهر ، وآونة يصافحونهم بالسيوف ، ومرة يقضون عليهم بياتا وهم نائمون . كل هذه الأحوال المتغايرة فى ملاقاة الأعداء ، وطرق خالد فى معالجتها ، وما كان يبتكره من أساليب لمدافعتها ، قد أفادتهم و بصرتهم بالحروب وفنون القتال ، وأوجدت منهم جنوداً مدربين ، وقواداً مبرزين يخوضون غمار الحروب على هدى من مواقع خالد ، ويهزمون جحافل الجيوش على قبس من أساليبه .

أقام خالد فى العراق سنة وشهرين من المحرم سنة اثنتى عشرة إلى صفر من سنة ١٣ كان له فيها من الوقائع زهاء خمس عشرة موقعة ، وفى جميعها يصادمه عدوه بأضعاف جيشه ، ومع ذلك فقد نال من عدوه وأثخن فى جنده ، وكان فى كل وقائعه

ظافراً منتصراً لم تهزم له راية ، ولم ينثن سيفه عن ضريبته ، وفعل فى تلك المدة القصيرة ، وفى سنته هذه مالم يفعله أكبر قائد فى مثل عدد جنده ، وفوق عدوه فى عدده ؛ حتى لقد كان اسمه يسبقه إلى كل موقعة أرادها ، وحدة سيفه تعمل عملها فى كل قوم أجمع السير إليهم ؛ فهذا حرقوص بن النعمان النمرى ، وحوله بنوه وامرأته و بينهم جفنة من خمر وهم عليها عكوف ، يقولون له : ومن يشرب هذه الساعة ، وفى أعجاز الليل ؟ فقال : اشربوا شرب وداع ؛ فما أرى أن تشربوا خمرا بعدها . هذا خالد بالعين وجنوده ، بحصيد ، وقد بلغه جمعنا ، وليس بتاركنا ثم قال :

ألا فاشربوا من قبل قاصمة الظهر بُعَيد انتفاخ القوم بالعكر الدثر
وقبل منايانا المصيبة بالقدر لحينٍ لعمرى لايزيد ولايحرى [(١)]

كان ظهوره بين الصفوف بمثابة مدد وسكينة لجيوش المسلمين ، كما كان خورا ورعباً ، وتخلخلا واضطرابا فى صفوف المخالفين :

غزا فأبلى وخيل الله قد عقدت باليمن والنصر والبشرى نواصيها
يرمى الأعادى بآراء مسددة و بالفوارس قد سالت مذاكيها [(٢)]

و يظهر لنا عظيم ماقام به خالد فى سنته ، وما كان لهذه الفتوح من أثر فى نفوس جنده ماقاله ابن الهيثم [(٣)] البكائى عن أبيه : « كان أهل الأيام من أهل الكوفة يوعدون معاوية عند بعض الذى يبلغهم و يقولون : « ماشاء معاوية نحن أصحاب ذات السلاسل — وهى أولى وقائع خالد فى العراق — ويسمون مابينها و بين الفراض مايذكرون ما كان بعد ، احتقاراً لما كان بعد فيما كان قبل » [(٤)] .

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٣٥ .
(٢) عمرية حافظ .
(٣) الطبرى ج ٤ ص ٣٧ ، ٤٠ .
(٤) وهذه الرواية ترشح أيضاً رأينا من أن خالداً ابتدأ فى حرب العراق بذات السلاسل .

فتوحه فى الشام

كان البدء فى فتح الشام متأخراً عن الفتح فى العراق ؛ فإن أول لواء عقده أبو بكر لحرب الشام كان فى أول السنة الثالثة عشرة لخالد بن سعيد ، ثم عزله — بتأثير عمر — قبل أن يسيره وجعله ردءا للناس بتيماء[١] ، ثم اهتم أبو بكر بالشام ، واعتزم الجد فى أمر الروم ، فاستنفر الناس وجند الجنود ، وعقد الألوية لأربعة من كبار القواد وهم : يزيد بن أبى سفيان ، وشرحبيل بن حسنة ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وعمرو بن العاص[٢] وعين لكل واحد منهم طريقه ، والجهة التى يغزوها و يليها بعد الفتح : فجعل ليزيد دمشق ، ولشرحبيل الأردن ، ولأبى عبيدة حمص ، ولعمرو بن العاص فلسطين[٣] .

فصل الأمراء وساروا حتى وصلوا الشام ، فنزل يزيد البلقاء ، وشرحبيل الأردن ، وأبو عبيدة الجابية ، وعمرو العربة . ولما علم الروم بنزول الأمراء كاتبوا « هرقل » وهو بالقدس ، فخرج عنها حتى نزل « حمصا » ، فأعد الجنود وعبى العساكر ، وأراد أن يشغل كل قائد عن أصحابه ، و يضعفه عمن يكون بإزائه ؛ لكثرة جنده ، وفضول رجاله ، فأرسل إلى كل قائد أضعاف ما معه من الجند : أرسل أخاه تذارق فى تسعين ألفاً إلى عمرو ، و بعث الفيقار بن نسطوس فى ستين ألفاً نحو أبى عبيدة ، و بعث جرجه بن توذرا إلى يزيد بن أبى سفيان فى نحو خمسين ألفا ، و بعث الدراقص

---

(١) تيماء بالفتح والمد بليد فى أطراف الشام بين الشام ووادى القرى على طريق حاج الشام ودمشق ، والأبلق الفرد حصن السموأل بن عادياء اليهودى مشرف عليها فلذا كان يقال تيماء اليهودى — معجم البلدان جـ ٢ ص ٤٤٢

(٢) وهم على هذا الترتيب فى خروجهم للشام ؛ فكان يزيد أول الأمراء الذين خرجوا إلى الشام وخرج فى سبعة آلاف — الطبرى جـ ٤ ص ٢٨ ، ٢٩ ، وهؤلاء القوادقرشيون ما عدا شرحبيل فإنه كندى أو أزدى ، وحسنة أمه . راجع الطبرى جـ ٤ ص ٣٩ ، وفتوح البلدان للبلاذرى ص ١١٤ .

(٣) والناظر فى هذا التعيين وتخصيص كل بجهة يتأمر عليها يدرك مقدار وثوق المسلمين بنصر الله لهم ، واعتزازهم بمعونته حتى إن خليفتهم يعين الولاة قبل أن يفصلوا من بلادهم وقبل أن يلاقوا عدوهم .

فاستقبل شرحبيل فى نحو خمسين ألفا ؛ فهابهم المسلمون ، ورأوا التريث حزما ، وفزعوا بالكتب و بالرسل إلى عمرو وأبى بكر — أن ما الرأى ؟ فأجابهم عمرو : « إن الرأى لمثلنا الاجتماع ، وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يغلب من قلة ، و إذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا فى عدد يقرن فيه لأحد ممن استقبلنا ، وأعد لنا لكل طائفة منا [1] » فاتعدوا اليرموك ليجتمعوا به ، ووافاهم كتاب أبى بكر بمثل مشورة عمرو : « بأن اجتمعوا فتكونوا عسكراً واحداً ، وألقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين فإنكم أعوان الله ، والله ناصر من نصره ، وخاذل من كفره ، ولن يؤتى مثلكم من قلة ، و إنما يؤتى العشرة آلاف والزيادة على العشرة آلاف إذا أتوا ، من تلقاء الذنوب ؛ فاحترسوا من الذنوب ، واجتمعوا باليرموك متساندين وليصل كل رجل منكم بأصحابه [2] » .

بلغ ذلك هرقل فكتب إلى قواده و بطارقته : « أن اجتمعوا لهم ، وأنزلوا بالروم منزلا واسع العطن ، واسع المطرد ، ضيق المهرب ، وعلى الناس التذارق وعلى المقدمة جرجه ، وعلى مجنبتيه باهان والدرافص ، وعلى الحرب الفيقار ، وأبشروا فإن باهان فى الأثر مدداً لكم » ، ولم يخف على هرقل أن جيش المسلمين فيه حدهم وجدهم ، وأنهم قد جمعوا فيه كل ما أمكنهم ، وفى طليعتهم أهل القوة والغناء ، وأن المعركة التى ستدور بين جيشه وجيوش المسلمين معركة فاصلة ، إن كانت له لم يفلح العرب بعدها ، ولم يجرؤا على غزو بلاده مرة أخرى ، و إن كانت عليه فسلام على سوريا ؛ ولذا فإنه قد اهتم بهذا الجيش ، وعين له الأمراء والقواد ، و بينهم القسيسون والرهبان يحرضونهم ويذمرونهم ، ونزلوا الواقوصة [3] وهى على ضفة اليرموك ، وصار الوادى خندقاً لهم ، وهو لهب لايدرك ، وأراد قواد الروم أن يستفيق عسكرهم ، ويأنسوا بالمسلمين وترجع إليهم أفئدتهم عن طيرتها حين يروا قلتهم ، وكثرة جموع قومهم ،

(١) الطبرى جـ ٤ ص ٣١ .

(٢) الطبرى جـ ٤ ص ٣١ .

(٣) الواقوصة : واد بالشام فى أرض حوران نزله المسلمون أيام أبى بكر على اليرموك لغزو الروم — معجم البلدان جـ٨ ص ٣٨٩ .

ولما نزلوا منزلهم هذا انتقل المسلمون عن معسكرهم ، فنزلوا عليهم بحذائهم على طريقهم ، وليس لهم طريق إلا عليهم فقال عمرو : « أيها الناس أبشروا حصرت والله الروم ، وقلما جاء محصور بخير » ، فأقاموا بإزائهم وعلى منفذهم صفر وشهرى ربيع من سنة ١٣ لا يقدرون من الروم على شيء . ولا يخلصون إليهم : الواقوصة من ورائهم والخندق من أمامهم ، وكلما خرجوا خرجة نال المسلمون منهم[١] .

كان المسلمون فى مبدأ أمرهم عندما رأوا تلك الجموع الكثيفة استمدوا أبا بكر ، وأعلموه الشأن فقال حين بلغه ذلك : « خالد لها » . « والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد »[٢] فبعث إليه واستحثه فى السير ، وكتب إليه الكتاب الذى قدمنا[٣] لإغاثة المسلمين بالشام ، وأن يخلف على العراق المثنى بن حارثة فى نصف الجيش ، ويسير هو فى النصف الثانى[٤] فإذا فتح الله على المسلمين الشام رجع إلى عمله بالعراق . وحين تهيأ للسير استأثر بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبى المثنى إلا أن يكون الأمر على ما كتب أبو بكر ، فلم يزل به خالد حتى أرضاه من أهل القناعة ممن لم يكن له صحبة فلما رضى المثنى ، وأخذ حاجته انجذب خالد ، فمضى لوجهه ، وشيعه المثنى إلى قراقر ، ثم رجع إلى الحيرة فى المحرم[٥] ، ولقد كان إرسال خالد إلى الشام توفيقاً من الله لأبى بكر ؛ لأنه كان صاحب اليوم الذى حصلت فيه الصدمة الأولى ، وتتابعت الفتوح بعده .

سار خالد من الحيرة إلى دومة ، ثم طعن فى البرية إلى قراقر[٦] فأرادوا التفويز[٧]

---

(١) الطبرى جـ ٤ ص ٣١ .

(٢) الطبرى جـ ٤ ص ٤٠ وهذه القولة من أبى بكر شهادة كبرى لخالد لها قيمتها .

(٣) عقيب حجه ورجوعه إلى الحيرة — انظر صفحة ؟ .

(٤) الطبرى جـ ٤ ص ٤٠ ، ٤٢ .

(٥) الطبرى جـ ٤ ص ٤٢ .

(٦) قراقر : ماء لكلب — الطبرى جـ ٤ ص ٤٤ . وقال ياقوت فى معجمه : واد لكلب بالسماوة من ناحية العراق جـ ٧ ص ٤٤ ، وسوى : ماء لبهراء على الجانب الآخر للغازة مما يلى الشام ، الطبرى جـ ٤ ص ٤١ ، وقال ياقوت سوى : بضم أوله والقصر ... ماء لبهراء من ناحية السماوة جـ ٥ ص ١٥٧ .

(٧) التفويز : سلوك المغازة ، وسميت بذلك تفاؤلا بالسلامة والفوز .

منها إلى سوى ؛ لأنه إن دار مع الطريق المألوفة ، وضرب حول المفازة استقبل الروم فيحبسه ذلك عن غياث المسلمين ، فقال لأصحابه : كيف لى بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم ؛ فإنى إن استقبلتها حبستنى عن غياث المسلمين ؟ فكلهم قال : لا نعرف إلا طريقا لا يحمل الجيوش يأخذه الفذ الراكب ، فإياك أن تغرر بالمسلمين ، فعزم عليه والتمس الأَدِلاَّء ، فدل على رافع بن عميرة الطائى فقال له فى ذلك ، فقال : إنك لن تطيق ذلك بالخيل والأثقال ، والله إن الراكب المفرد ليخافها على نفسه ، وما يسلكها إلا مغرور ، إنها لخمس ليال جياد لا يصاب فيها ماء مع مضلتها فقال له : ويحك إنه والله إن لى بد من ذلك ، إنه قد أتتنى من الأمير عزمة بذلك ، فمر بأمرك ثم قام فيهم فقال : « لا يختلفن هديكم ، ولا يضعفن يقينكم ، واعلموا أن المعونة تأتى على قدر النية ، والأجر على قدر الحسبة ، إن المسلم لا ينبغى له أن يكترث بشىء يقع فيه مع معونة الله . فقالوا له : أنت رجل قد جمع الله لك الخير فشأنك ؛ فطابقوه ، ونووا واحتسبوا ، واشتهوا مثل الذى اشتهى خالد . فقال رافع : استكثروا من الماء ؛ من استطاع منكم أن يصر أذن ناقته على ماء فليفعل ، فإنها المهالك إلا مادفع الله . ابغنى عشرين جزورا عظاما سمانا مسان فأتاه بهن فعمد إليهن رافع فظمأهن حتى إذا أجهدهن عطشا ، أوردهن فشربن حتى إذا تملأن عمد إليهن ، فقطع مشافرهن ثم كمهن لئلا يجترن ، ثم أخلى أدبارهن ثم قال لخالد سر ، فسار خالد معه مغذا بالخيول والأثقال ، فكلما نزل منزلا اقتبط أربعا من تلك الشرف ، فأخذ ما فى أكراشها ، فمزجه بما كان من الألبان ، فسقاه الخيل ، ثم شرب الناس مما حملوا معهم من الماء ، فلما خشى خالد على أصحابه أن يفضحهم حر الشمس فى آخر يوم من المفازة قال لرافع بن عميرة : ويحك يارافع ماعندك ؟ قال : خير أدركت الرى إن شاء ، وشجعهم وهو متحير أرمد ، فلما دنا من العلمين قال للناس انظروا : هل ترون شجيرة من عوسج كقعدة الرجل ؟ قالوا : مانراها ، قال إنا لله وإنا إليه راجعون ، هلكتم والله إذن وهلكت . لا أبا لكم ، انظروا

فطلبوا فوجدوها قد قطعت ، و بقيت منها بقية ، فلما رآها المسلمون كبروا وكبر رافع ثم قال : احفروا فى أصلها ، فحفروا فاستخرجوا عينا فشربوا حتى روى الناس ، فاتصلت بعد ذلك لخالد المنازل . وفى ذلك يقول شاعر المسلمين :

لله عينا رافع أنى اهتدى　　فوّز من قُراقر إلى سُوى
خمسا إذا ماسارها الجيش بكى　　ماسارها قبلك من إنس يرى

انتهى خالد إلى سوى فأغار على أهله (وهم بهراء) قبيل الصبح ، وناس منهم يشربون الخمر ، و بين أيديهم جفنة ، وحرقوص مغنيهم يقول :

ألا عللانى قبل جيش أبى بكر　　لعل منايانا قريب وما ندرى
أظن خيول المسلمين وخالدا　　سيطرقكم قبل الصباح من البشر
فهل لكم فى السير قبل قتالهم　　وقبل خروج المحصنات من الخدر

فما هو إلا أن فرغ من قوله حتى دهمهم خالد قبيل الصبح ، وهم لايظنون أن أحداً يأتيهم من هذه المفازة[١] فى مثل ذلك الوقت ، وشد رجل على مغنيهم ، فضرب عنقه ؛ فإذا رأسه فى الجفنة ، ونال المسلمون منهم ، وأصابوا من أموالهم . ثم أتى أرك[٢] فصالحوه فجازها إلى تَدْمر[٣] فتحصن منه أهلها ثم صالحوه ، فأتى القريتين[٤] وقاتل أهلها وظفر بهم وغنم منهم ، ثم قصد حُوّارين[٥] فقاتل أهلها

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٣٩ ، ٤١ ، ٤٥ ، الأغانى ج ١ ص ١٤٢ ، ١٤٣ ، عيون الأخبار ج ١ ص ١٤٢ ، ١٤٣ ، أسد الغابة ج ٤ ص ١٥٦ .

(٢) أرك بفتحتين ، وضم ابن دريد همزته مدينة صغيرة فى طرف برية حلب قرب تدمر وهى ذات نخل وزيتون ... معجم البلدان ج ١ ص ١٩٥ .

(٣) تدمر بالفتح ثم السكون وضم الميم : مدينة قديمة مشهورة فى برية الشام بينهما وبين حلب خمسة أيام — معجم البلدان ج ٢ ص ٣٦٩ .

(٤) القريتان : اسم لقرية كبيرة من أعمال حمص فى طريق البرية — معجم البلدان ج٧ص ٧٠ .

(٥) حوارين بالضم وتشديد الواو ، ويختلف فى الراء ؛ فنهم من يكسرها ومنهم من يفتحها وياء ساكنة ونون : من قرى حلب — معجم البلدان ج ٣ ص ٣٥٨ .

وهزمهم ، وسبى منهم ، ثم أتى قصم[١] فصالحه بنو مشجعة من قضاعة ثم سار حتى وصل ثنية العقاب[٢] ناشراً راية سوداء كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم تسمى العقاب . ثم أتى مرج راهط[٣] فأغار على غسان وهم فى فصحهم ، فقتل منهم وسبى ، وأرسل سرية إلى كنيسة بالغوطة ، فنالت منهم ، ثم سار حتى وصل بصرى[٤] ، فقاتل من بها ، ثم صالحوه ، فكانت بصرى أول مدينة بالشام فتحت صلحاً على يد خالد ، وجند العراق ، وبعث بالأخماس إلى أبى بكر ، ثم سار فطلع على المسلمين فى ربيع الآخر ، وصادف أن جاء باهان مدداً لجيوش الروم ، ومعه القسيسون والرهبان يذمرون الروم ويحرضونهم على القتال ، فاستبشر المسلمون بخالد ، وفرح الروم بباهانهم .

وقبل البدء فى حروب الشام نرى أن نحدد مركز خالد من حيث القيادة العليا لجيوش الشام ، لنعرف : هل كان أميراً على أمراء الجيوش جميعاً ، أم كان أميراً على جنده الذين جاء بهم من العراق ، فقط مثله مثل غيره من أمراء الأجناد الذين أرسلوا لقتال الروم .

---

(١) موضع بالبادية قرب الشام من نواحى العراق مر به خالد بن الوليد رضى الله عنه لما سار من العراق إلى الشام فصالحه بنو مشجعة بن التيم بن النمر — معجم البلدان جـ ٧ ص ١١٣ .

(٢) ثنية العقاب بالضم : ثنية مشرفة على غوطة دمشق يطؤها القاصد من دمشق الى حمص معجم البلدان جـ ٣ ص ٢٤ .

(٣) مرج راهط : موضع فى الغوطة من دمشق فى شرقيه ، معجم البلدان جـ ٤ ص ٢١٧ ، جـ ٨ ص ١٦ .

(٤) بصرى من أعمال دمشق وهى قصبة كورة حوران — معجم البلدان جـ ٢ ص ٢٠٨ ، وبعض الرواة يذكر أن خالداً وجد بها أبا عبيدة وشرحبيل ويزيد ففتحوها معاً ثم ساروا منها إلى فلسطين مدداً لعمرو بن العاص ، ونحن قد اخترنا أن خالدا وحده فى جند العراق هو الذى تولى فتحها لما هو مشهور من أن خالداً هبط على جند المسلمين باليرموك وكما يعلم من كتب أبى بكر وغيرها وفى ذلك يقول شاعر جند العراق :

بدأنا بجمع الصفرين فلم ندع ... لغسان أنفاً فوق تلك المناخر
صبيحة صاح الحارثان ومن به ... سوى نفر تجتذهم بالبواتر
وجئنا إلى بصرى وبصرى مقيمة ... فألقت إلينا بالحشا والمعاذر
فضضنا بها أبوابها ثم قابلت ... بنا العيس فى اليرموك جمع العشائر

معجم البلدان جـ ٨ ص ١٥٠ .

هل ولى خالد القيادة العامة لجنود الشـــام

اختلفت رواية المؤرخين فى ذلك ؛ فذكر الطبرى فى بعض رواياته أن أبا بكر ولاه القيادة العليا لجيوش الشام ، ومن ذلك قوله : « فوجه أبو بكر خالد بن الوليد أميراً على الأمراء الذين بالشام ضمهم إليه »[١] ، وقوله فى موضع آخر : « وكان بالشام أبو عبيدة ، وشرحبيل ، ويزيد ، وعمرو ، كل رجل منهم على جند ، وعليهم خالد بن الوليد »[٢] . وقال المقدسى : « ثم بعثه إلى الشام وأمره على جميع من بها من المسلمين » .

وفى قول للبلاذرى و بعض المؤرخين أنه لما قدم خالد بن الوليد على المسلمين بصرى اجتمعوا عليها وأمروا خالداً فى حربها ، وهو صريح فى أنه لم يكن رئيساً على الأمراء من قِبَلِ أبى بكر ، ولكن الأمراء هم الذين أمروه عليهم[٣] لعرفانهم بمقدرته وخبرته بالحروب ، وهو الذى نرجحه لأمور منها :

١ — أن خالداً إنما جاء مدداً لأمراء الشام ، ومعيناً لهم لا أميراً عليهم .

٢ — ذكر الطبرى وغيره أنه حينما اجتمع الأمراء ، وتساندوا لقتال الروم كان كل أمير يصلى بجنده اتباعاً لأمر أبى بكر ، وربما صلى البعض خلف البعض ، فلما جاء خالد نزل بناحية ، وصلى بجنده على حدة ، ولو كان أميراً على الأمراء لصلى بهم و بجندهم .

٣ — خطابه المشهور للأمراء بأن يتناوبوا الإمارة ، وأن يدعوه يتأمر عليهم فى غده ، معناه أنه لم يكن أميراً عاماً ، وإلا فلا معنى لخطابه واستشارته الأمراء فى تناوب الإمارة ، وطلبه أن يرتضوه أميراً عليهم .

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٣٩ .

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٥١ .

(٣) يقول البلاذرى ص ١١٥ — كتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد المخزومى وهو بالعراق يأمره بالمسير إلى الشام ، فيقال أنه جعله أميراً على الأمراء فى الحرب ، وقال قوم : كان خالد أميراً على أصحابه الذين شخصوا معه ، وكان المسلمون إذا اجتمعوا لحرب أمره الأمراء فيها لبأسه وكيده ويمن نقيبته — ا هـ .

ملاحظة : معظم المصورات « الجغرافية » الموجود بكتابنا هذا أصلها لأستاذنا الشيخ محمد خفي الدين الأستاذ بكلية دار العلوم سابقاً .

obeikandi.com

موقعة اليرموك (١)

كان المسلمون يقاتلون الروم وهم على تساند كل أمير يلى قتال من وجه إليه ، وهى خطة فى مثل عدد جيش المسلمين لا تنيلهم من عدوهم نيلا ؛ فقد كان كل أمير لا يقرن بمن بإزائه وأعدله ؛ فجموع الروم كانت متكاثفة عظيمة بلغت أربعين ومائتى ألف على ما رواه الطبرى ، بينما جموع المسلمين كانت تبلغ ستة وثلاثين ألفاً ، والمكثر من المؤرخين يقول : إنها ستة وأربعين ألفاً ، ومهما يكن أمر الاختلاف فى عدد الجمعين فإن جنود المسلمين كانوا فى قلة بالنسبة للروم .

جاء خالد فوجد أمراء المسلمين يقاتلون الروم على تساند ؛ يصلى كل أمير بجنده على حدة ، فعسكر هو أيضاً على حدة ، وصلى بجنده ، كما وجد المسلمين متضايقين والروم نشاط بمدد باهان ، ولما أن جاءهم خالد نازلوهم ، فنالوا منهم وألجأوهم إلى خنادقهم فلزموها عامة شهر ، يحضضهم القسيسون والرهبان ، وينهون لهم النصرانية حتى استبصروا ، وحَربوا المسلمين ؛ فخرجوا بعد الشهر فى جمادى الآخرة فى تعبئة لم ير الراؤون مثلها قط ، ولكن إلى حتوفهم وإلى القتال الذى لم يكن بعده ما يشبهه .

أحس المسلمون بخروجهم فخردوا وأرادوا الخروج متساندين ؛ فلم يرق ذلك فى نظر خالد ، ورأى أن تلك خطة أجدى على الروم من أمدادهم ، وأشد على المسلمين من عدوهم ؛ إذ كيف يقاتلون قوماً مجتمعين على رأى ، وفى نظام وتعبئة ، وهم على تساند ؛ لأن فى ذلك من الوهن واختلاف الرأى وتجزىء قوة المسلمين بتعدد الأمراء ما يطيل أمد القتال ، ولا ينيلهم من عدوهم ، خصوصاً وأنه أدرك

---

(١) اليرموك : واد بناحية الشام فى طريق الغور يصب فى نهر الأردن ثم يمضى إلى البحيرة المنتنة — معجم البلدان جـ ٨ ص ٥٠٥ وهو نهر معقد وهبته الطبيعة أسرارا وألغازا ينبع من مرتفعات حوران ويصب فى الأردن جنوبى بحيرة طبرية بأميال قليلة وعلى نحو ثلاثين ميلا من التقائه بالأردن يكون فى الطرف الشمالى فتحة على شكل نصف دائرة تحيط بسهل متسع صالح لمعسكر جيش كبير . وضفاف هذا النهر وعرة منحدرة وعند مضيق هذه الفتحة عنق يكون مدخل هذه الأرض المنبسطة التى فى الداخل . وهـذه البقعة تسمى الواقوصة ذات الشهرة العظيمة فى الوقائع الإسلامية — أمير على ص ٣٧ .

ما فيه الروم من نظام ، ومقدار تحمسهم وتحرقهم لقتال المسلمين ، وأن ما فيه المسلمون أمر يقتضى الحزم والتدبر واجتماع الكلمة ، والقبض على أَزِمَّةِ الجيش كله ، وترتيبه ترتيباً مغايراً لما ألفه العرب يتكافأ مع النظام الذى تهيأ لهم فيه عدوهم ؛ فالتفت إلى قواد المسلمين ، ثم قال : « هل لكم يا معشر الرؤساء فى أمر يعز الله به الدين ، ولا يدخل عليكم معه ولا منه نقيصة ولا مكروه[1] » ، فقالوا : نعم . فقام فيهم خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى ، أخلصوا جهادكم ، وأريدوا الله بعملكم ؛ فإن هذا يوم له ما بعده ، ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبئة ، على تساند وانتشار ، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغى وإن من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا ، فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون أنه الرأى من واليكم ومحبته » . قالوا : هات فما الرأى؟ قال : « إن أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أننا سنتياسر ، ولو علم بالذى كان ويكون لقد جمعكم ، إن الذى أنتم فيه أشد على المسلمين مما غشيهم ، وأنفع للمشركين من أمدادهم ، ولقد علمت أن الدنيا قد فرقت بينكم فالله الله ، فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لا ينتقصه منه إن دان لأحد من أمراء الجند ، ولا يزيده عليه إن دانوا له . إن تأمير بعضكم لا ينتقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هلموا فإن هؤلاء قد تهيأوا ، وهذا يوم له ما بعده إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم ، وإن هزمونا لم نفلح بعدها ، فهلموا فلنتعاور الإمارة فليكن عليها بعضنا اليوم ، والآخر غداً ، والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم ، ودعونى أليكم اليوم » فأمروه وهم يرون أنها لخرجاتهم ، وأن الأمر أطول مما صاروا إليه[2] .

عبى خالد الجيش تعبئة لم تعبها العرب قبل ذلك . فجعله ٣٨ إلى ٤٠ كردوساً[3]

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٣٢ .

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٣٣ .

(٣) وقد فصل الطبرى فى صفحتى ٣٣ ، ٣٤ من ج ٤ رؤساء هذه الكراديس تفصيلا واضحاً . والكردوس : القطعة من الخيش ، وكان الكردوس يزيد قليلا عن الألف .

وقال : « إن عدوكم قد كثر وطغى وليس من التعبئة تعبئة أكثر فى رأى العين من الكراديس ؛ فجعل القلب ١٨ كردوساً ، وعليه أبو عبيدة ، وفيه عكرمة بن أبى جهل والقعقاع بن عمرو ، وجعل الميمنة ١٠ كراديس ، وعليها عمرو بن العاص ، وفيها شرحبيل بن حسنة ، وجعل الميسرة ١٠ كراديس ، وعليها يزيد بن أبى سفيان ، وجعل على كل كردوس رجلا يأتمر بأمر من فوقه : رئيس الميمنة أو الميسرة أو القلب وكان رؤساء الكراديس من أهل النجدة والغناء أمثال القعقاع بن عمرو ، وعكرمة ابن أبى جهل ، وعياض بن غنم ، وهاشم بن عتبة ، وعبد الرحمن بن سيف الله[١] إلى أمثالهم ممن عرف بالشجاعة والإقدام .

لم يكتف هذا النظام البديع خالداً بل جعل للجيش طليعة[٢] وعليها قباث بن أشيم ، وقاضياً وهو أبو الدرداء ، وقارئاً وهو المقداد (كان يقرأ عليهم سورة الجهاد « الأنفال » كما كان يفعل النبى صلى الله عليه وسلم من بعد بدر عند لقاء العدو) ، وصاحب أقباض (ميرة) وهو عبد الله بن مسعود ، وواعظاً وهو أبو سفيان ، فكان يسير فى الجيش ، ويقف على الكراديس فيقول : « الله الله إنكم زادة العرب وأنصار الإسلام ، وإنهم زادة الروم وأنصار الشرك . اللهم إن هذا يوم من أيامك اللهم أنزل نصرك على عبادك[٣] » . فنحن نرى أن خالداً لما تولى إمرة الجيش لم يدع أمراً يزيد فى قوة المسلمين ، ويوقظ فيهم الحماس ، ويذمرهم ويلهبهم للقاء عدوهم ، كما أنه من الناحية الأخرى يوقع الرعب فى قلوب أعدائه ، ويحلل عزائمهم إلا فكر فيه ، وفعله فى ذلك اليوم .

أمر خالد مجنبتى القلب أن ينشبا القتال ، وكان عليهما القعقاع وعكرمة فخرجا فى حماس وأنشبا القتال والقعقاع يرتجز .

---

(١) وكان عمره إذذاك ثمانى عشرة سنة — الطبرى ج ٤ ص ٣٣ .

(٢) والناظر إلى هذا الترتيب يرى أنه لا يبعد كثيرا عما عليه حال الجيوش فى زماننا إذا تغاضينا عن أنواع الأسلحة التى استحدثت .

(٣) السيرة الحلبية ج ٣ ص ١٦٣ ، الطبرى ج ٤ ص ص ٣٤ .

يا ليتني ألقاك في الطراد قبل اعترام الجحفل الوراد
وأنت في حلبتك الوراد

وعكرمة يجاوبه بقوله :

قد علمت بهكنة الجوارى أنى على مكرمة أحامى[١]

التحم الناس وتطارد الفرسان وخرست الأألسن ، وَصُمَّتِ الآذان إلا عن قعقعة السيوف وزئير الفرسان . ثم خرج قائد القلب من جيش الروم وهو « جرجة » حتى كان بين الصفين ، ونادى ليخرج إلَىَّ خالد ، فخرج إليه وأقام أبا عبيدة مكانه فواقفه بين الصفين حتى اختلفت أعناق دابتيهما ، وقد أمن أحدهما صاحبه فقال جرجة : « ياخالد أصدقنى ولا تكذبنى فإن الحر لا يكذب ، ولا تخادعنى فإن الكريم لا يخادع المسترسل . بالله هل أنزل الله على نبيكم سيفاً[٢] من السماء فأعطاكه فلا تسله على قوم إلا هزمتهم قال : لا . قال فبم سميت سيف الله ؟ قال : « إن الله عز وجل بعث فينا نبيه صلى الله عليه وسلم ، فدعانا فنفرنا عنه ونأينا عنه جميعاً ، ثم إن بعضنا صدقه وتابعه ، و بعضنا باعده وكذبه ، فكنت فيمن كذبه و باعده وقاتله ، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتابعناه ، فقال أنت سيف من سيوف الله سله الله على المشركين ، ودعا لى بالنصر ، فسميت سيف الله بذلك ؛ فأنا من أشد المسلمين على المشركين » قال صدقتنى ثم أعاد عليه جرجة ياخالد : أخبرنى إلى ما تدعونى قال : « إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، والإقرار بما جاء به من عند الله » . قال فمن لم يجبكم ، قال فالجزية ، ونمنعهم . قال : فإن لم يعطها قال نؤذنه بحرب ثم نقاتله قال : فما منزلة الذى يدخل فيكم ويجيبكم إلى هذا الأمر اليوم قال :

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٣٤ — وكانت هذه الأراجيز تفعل فعلها في النفوس فتثير حماسهم وتهيج كامن وجدانهم ، وكانت تقوم عندهم مقام الموسيقى فى استثارة النفوس وتشجيع القلوب .

(٢) لعل بعض القوم أشاعوا فى بلاد الشام أن خالدا فى يده سيف نزل من السماء يهزم به أعداءه ، أعطاه له رسول الله ، وأخذوا ذلك مما اشتهر به بين المسلمين أنه سيف الله ، ويظهر أن ذلك القائد — ويسميه الطبرى جرجه بن توذر ولعله جورج بن تيودر — كان يعرف العربية لأنه كلم خالدا بدون ترجمان « تاريخ الإسلام » لأستاذنا المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار ص ٩٩

منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا شريفنا ووضيعنا وأولنا وآخرنا ، ثم أعاد عليه جرجة : هل لمن دخل فيكم اليوم يا خالد مثل مالكم من الأجر والذخر ؟ قال : نعم وأفضل قال : وكيف يساويكم وقد سبقتموه ؟ قال : «إنا دخلنا فى هذا الأمر وبايعنا نبينا صلى الله عليه وسلم ، وهو حى بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء ، ويخبرنا بالكتب ويرينا الآيات ، وحق لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا أن يسلم ويبايع ، وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا ، ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج ؛ فمن دخل فى هذا الأمر منكم بحقيقة ونية كان أفضل منا» . قال جرجة : بالله لقد صدقتنى ولم تخادعنى ولم تألفنى قال : « بالله لقد صدقتك وما بى إليك ولا إلى أحد منكم وحشة ، وإن الله لولى ما سألت عنه » . فقال :صدقتنى ، وقلب الترس ومال مع خالد ، وقال : علمنى الإسلام ، فمال به خالد إلى فسطاطه فشن عليه قربة من ماء ثم صلى ركعتين .

ولما مال ذلك القائد مع خالد ظن الروم أنها من قائدهم حملة فحملوا ، فأزالوا المسلمين عن مواقفهم إلا المحامية وعليهم عكرمة والحارث بن هشام ، فحرب عكرمة فقال : قاتلت رسول الله فى كل موضع وأفر اليوم ! ثم نادى : من يبايع على الموت ؟ فبايعه الحارث بن هشام ، وضرار بن الأزور فى أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم ، فقاتلوا قدام فسطاط خالد ، حتى أثبتوا جميعاً جراحاً وقتلوا إلا من برأ . وركب خالد ومعه جرجه — والروم خلال المسلمين — فتنادى الناس فثابوا ، وتراجعت الروم إلى مواقفهم وحَرِبَ المسلمون وظهرت العزائم من أهل العزم ، وزحف بهم خالد حتى تصافحوا بالسيوف ، فضرب فيهم خالد وجرجه من لدن ارتفاع النهار إلى جنوح الشمس للغروب ، ثم أصيب جرجه ولم يصل صلاة سجد فيها إلا الركعتين اللتين أسلم عليهما ، وصلى الناس الأولى والعصر إيماء ثم أخروا الصلاة حتى صلوا بعد الفتح[1] وتضعضع الروم ونهد خالد بالقلب كان بين خيلهم ورجلهم ، وكان مقاتلهم واسع المطرد ضيق المهرب ، فلما وجدت خيلهم مذهبا ذهبت تشتد بهم فى الصحراء ، وأفرج

(١) الطبرى جـ ٤ ص ٣٥ ، ٣٦

أخذنا هذا المصور عن مصور لمحاضرة العسكرية التي ألقاها القائم مقام أحمد بك اللحام في نادي الضباط القدماء بدمشق .

لها المسلمون ، ولم يحرجوها فذهبت وتفرقت فى البلاد ، وتركوا رَجلهم فى مصافهم ؛ فأقبل خالد والمسلمون على الرجل ففضوهم ، فكأنما هدم بهم حائط فاقتحموا فى خندقهم فاقتحمه عليهم ، فعمدوا إلى الواقوصة حتى هوى فيها المقترنون وغيرهم ؛ فمن صبر من المقترنين للقتال هوى به من جشعت به نفسه ، فيهوى الواحد بالعشرة لايطيقونه . كلما هوى اثنان كانت البقية أضعف ، فهوى فيها عشرون ومائة ألف : ثمانون ألف مقترن وأربعون ألف مطلق سوى من قتل فى المعركة من الخيل والرجل ، وقد استمر القتال النهار كله ، ومعظم الليل ، ولم يطلع الصبح إلا وخالد فى رواق رئيس الروم ؛ وقضى المسلمون على صناديدهم ورؤسائهم ، وأصابوا كل ما فى العسكر وقد بلغ سهم الفارس فيها ألفا وخمسمائة درهم .

أرسل أبو عبيدة بن الجراح أبا جندل إلى عمر رضى الله عنه يبشره بالفتح ، وكانت هذه الموقعة أول فتح أتاه بعد وفاة أبى بكر بعشرين ليلة[1]

عظم على قواد الروم ورؤسائهم أن يروا هزيمتهم بأعينهم ففضلوا أن يريحوا أنفسهم من عار الهزيمة والذل فتجللوا برانسهم ينتظرون الموت وقالوا : لا نحب أن نرى يوم السوء إذ لم نستطع أن نرى يوم السرور ، وإذ لم نستطع أن نمنع النصرانية فأصيبوا فى تذملهم[2] .

كان لكثير من شجعان المسلمين وفرسانهم أثر يذكر فى تحمس المسلمين وإقدامهم ، وصبرهم وثباتهم ؛ فهذا الزبير بن العوام كان أفضل من شهدها ؛ فقد اخترق صفوف الروم مرتين لم يصب فيهما إلا بضربتين فى قفاه[3] .

---

(١) الطبرى جـ ٤ ص ٦٣ ، السيرة الحلبية جـ ٣ ص ١٦٣ ، وقيل إن الرسول هو حرير بن عبد الله الحميرى ، راجع أسد الغابة جـ ١ ص ٢٧٩ ، ومع أنها فتحت فى زمن عمر فقد ذكرناها ضمن فتوح خالد فى زمن أبى بكر لأنها تهيأت فى عهده .

(٢) الطبرى جـ ٤ ص ٣٦ وهذه العادة لم تزل إلى اليوم فى بعض القبائل العربية إذا هزم الجيش عمد الرؤساء إلى التذمل و انتظروا الموت ليريحوا أنفسهم من عار الهزيمة .

(٣) ابن كثير جـ ٥ ص ٣٤٤ .

أتى خالد بعد ما أصبحوا بعكرمة جريحاً فوضع رأسه على فخذه ، وبولده عمرو ابن عكرمة فوضع رأسه على ساقه ، وجعل يمسح عن وجوههما ويقطر فى حلوقهما الماء ويقول : « كلا زعم ابن الحنتمة أنا لا نستشهد[١] » .

وكما كان للشجعان والفرسان نصيب يذكر فى هذا اليوم ، كان أيضاً للنساء نصيب غير منزور ، فكنّ يقمنَ بسقى الماء ، وخرز السقاء ومداواة الجرحى والمرضى ، واستنهاض الهمم ، واستثارة الحماس فى قلوب الرّجال بل وقاتلنَ فى جولة ، وممن قاتلن فى ذلك اليوم خطيبة النساء أسماء بنت يزيد الأشهلية ؛ فقد قتلت تسعاً بعمود خبائها ؛ فأدّين ما عليهن وفعلن ما فى مكنتهن[٢] .

استشهد من المسلمين فى هذه الموقعة نحو ثلاثة آلاف بينهم كثير من أهل النجدة والغناء ، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد شهد اليرموك منهم ألف بينهم نحو مائة ممن شهد بدرا . وممن استشهد فى هذه الموقعة الحارث بن هشام وعِكرمة بن أبى جهل ، وعياش بن أبى ربيعة (وهم من أبناء عمومة خالد) فلما أثبتوا دعا الحارث بن هشام بماء ليشربه فنظر إليه عكرمة فقال : ادفعه إلى عكرمة ، فلما أخذه عكرمة نظر إليه عياش فقال: ادفعه إلى عياش ، فما وصل إلى عياش حتى مات ، ولا وصل إلى واحد منهم حتى ماتوا[٣] .

فى أثناء الموقعة قدم البريد[٤] بوفاة أبى بكر ، وعزل خالد عن الإمارة ، وتولية أبى عبيدة ؛ وحين رأى الناس رسول عمر سألوه عما وراءه فأخبرهم بالسلامة والإمداد ، وأسر إلى خالد بالخبر ، وبما قاله للجند ، فحمد له رأيه واستحسنه ، وأخذ الكتاب منه فوضعه فى كنانته ، ولم يذعه والناس فيما هم فيه لئلا تهن قوتهم ، حتى إذا ما انتهت الموقعة سلم الكتاب لأبى عبيدة وسلم عليه بالإمارة[٥] .

---

(١) يريد بابن الحنتمة عمر بن الخطاب .

(٢) الطبرى جـ ٤ ص ٣٦ ، خلاصة تذهيب الكمال ص ٤٢٠ .

(٣) الطبرى جـ ٤ ص ٣٤ ، ابن الأثير جـ ٢ ص ٢٨١ ، أسد الغابة جـ ١ ص ٣٥٢ .

(٤) قيل اسمه محمية بن زنيم ، وقيل غير ذلك راجع الطبرى جـ ٤ ص ٣٥ — ٥٥ .

(٥) السيرة الحلبية جـ ٣ ص ١٦٣ .

انتهى خبر الهزيمة إلى هرقل وهو دون حمص ، فارتحل عنها وجعلها بينه وبين المسلمين ، وأمّر عليها أميراً وخلفه فيها ، كما أمّر علَى دمشق أميراً ، وودّع سوريا الوداع الأخير ، فقال : « سلاماً عليك يا سوريا سلاماً لا لقاء بعده » .

وقد أكثر الشعراء القول فى هذه الموقعة . فمن ذلك قول القعقاع بن عمرو :

ألم ترنا علَى اليرموك فزنا   كما فزنا بأيام العراق
قتلنا الرّوم حتى ما تُساوى   علَى اليرموك مفروق الوِراق
فضضْنا جمعهم لما استحالوا   على الواقوصة البتر الرقاق
غداة تهافتوا فيها فصارُوا   إلى أمر تعضّل بالذّواق[1]

كانت هذه الموقعة من المواقع الفاصلة فى تاريخ الشرق ، وبعبارة أدق بين المسلمين والروم ؛ فقد تقلص سلطان القياصرة عن رقعة فسيحة ، وظهر سلطان الإسلام ، وتتابعت بعدها فتوح المسلمين فى بلاد بنى الأصفر .

وبانتهاء هذه الموقعة تنتهى الأعمال الجليلة والفتوح العظيمة التى تمت فى عهد أبى بكر رضى الله عنه علَى يد خالد ، وكان فى جميعها موفقاً مسدداً موضع ثقة الخليفة ، ويفتتح عصراً جديداً يبتدىء بتولية عمر وعزل خالد عن الإمارة ، ويظهر فيه خالد بمظهر الجندى الكريم الذى وهب نفسه وحياته لدينه وأمته .

(١) معجم البلدان ج ٨ ص ٣٨٩ .

الباب الرابع

أعمال خالد وفتوحه

زمن عمر رضى الله عنه

(١) فتح دمشق (٢) فحل (٣) مرج الروم
(٤) حمص (٥) الحاضر (٦) قنسرين (٧) مرعش
(٨) مهارته فى تعبئة الجيوش وتزجيتها (٩) الخلاف
بينه وبين عمر وما آل إليه (١٠) الناحية الدينية له
(١١) صفته وأخلاقه (١٢) بيته (١٣) وفاته

دمشق: (١)

انتهت موقعة اليرموك بهزيمة الروم، وتهافتهم فى الواقوصة، وبعزل خالد، وتأمير أبى عبيدة، وحين انتهى أبو عبيدة من أمر اليرموك، وقسم الأنفال وبعث بالأخماس والوفود إلى المدينة استخلف عليها بشير بن كعب الحميرى حتى لا يغتال بردة ولا تقطع الروم عليه موارده (٢)، وسار حتى نزل بالصفر وهو يريد اتباع الفالة، فأتاه الخبر بأنهم اجتمعوا بفحل، وأن مدداً من حمص أتى أهل دمشق، فكتب إلى عمر يستطلع رأيه فى البداءة بأى الناحيتين: فحل أو دمشق. وأقام بالصفر ينتظر رأى عمر فأتاه جوابه يقول: «أما بعد فابدأوا بدمشق فانهدوا لها؛ فإنها حصن الشام، وبيت ملكهم، واشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بإزائهم فى نحورهم».

صدع أبو عبيدة بالأمر وأرسل إلى فحل عشرة قواد عليهم عمارة بن مخشى، وبعث ذا الكلاع حتى كان بين دمشق وحمص وجعله رداً، كذلك سرح

---

(١) دمشق بكسر أوله وفتح ثانيه: هكذا رواه الجمهور — والكسر لغة — وشين معجمة وآخره قاف. البلد المشهورة قصبة الشام — معجم البلدان جـ ٤ ص ٧٢.

(٢) الطبرى جـ ٤ ص ٣٨، ٥٦.

علقمة بن حكيم ، ومسروقا حتى كانا بين دمشق وفاسطين ، وبذلك أمن أبو عبيدة من وصول المدد إلى دمشق فسار إليها بمن معه حتى حاصروها ونزلوا على أبوابها : فنزل عمرو بن العاص بباب « الفراديس » ونزل شرحبيل بباب « توما » وقيس ابن هبيرة بباب « الفرج » وأبو عبيدة بباب « الجابية » ونزل خالد بالباب الشرقى ،

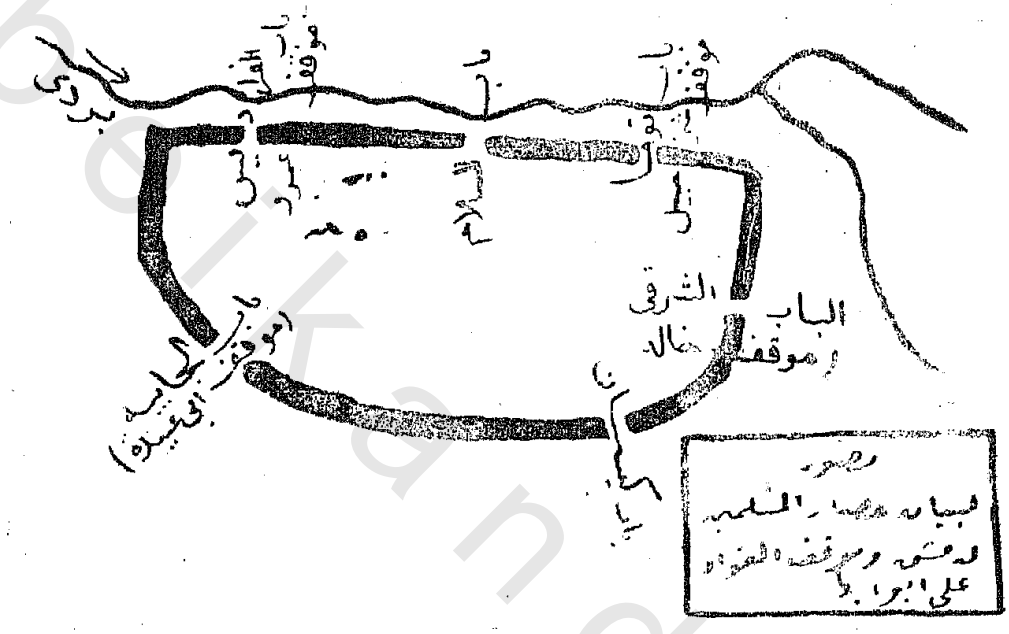

وشدد المسلمون الحصار عليها ، واستمروا على ذلك نحواً من سبعين ليلة ، وهم يحاولون فتحها بالزحوف والترامى والمجانيق ، وأهلها معتصمون بها يرجون الغياث ، ويأملون فى نجدة هرقل فلما يئسوا من الغياث ، وأيقنوا أن الأمداد لا تصل إليهم سُقِط فى أيديهم وأُبْلِسوا فى أمرهم ، وزاد فى وهنهم أنهم كانوا يظنون قفول المسلمين إذا نزل البرد ، ولكن خاب ظنهم وانقطع رجاؤهم .

كان خالد لاينام ولاينيم ولا يبيت إلا على تعبئة ، ولا يخفى عليه من أمر عدوه شىء ، عيونه ذاكية ؛ وهو معْنِى بمن يليهم ، فبلغه أنه ولد لبطريقهم مولود ، وأنه صنع طعاماً ودعى القوم يأكلون ويشربون ، وهم غافلون عن مواقفهم ، وكان قد اتخذ أوهاقاً وأحبالا كهيئة السلاليم ، فلما أمسى ذلك اليوم انتهز هذه الفرصة ونهض فيمن معه من جُنده الذين قدم بهم من العراق ، وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذعور بن عدى فى أمثالهم وقالوا : إذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا إلينا وانهدوا

للباب ، فلما انتهى إلى الباب الذى يليه فيمن معه من أصحابه رموا بالحبال الشرف — وكان على ظهورهم القرب التى قطعوا بها الخندق — فما أن ثبت لهم وهقان[1] حتى تسلق فيهما القعقاع ومذعور ، ولم يدعا أحبولة إلا أثبتاها — وكان المكان الذى اقتحموا منه أحصن مكان يحيط بدمشق : أكثره ماء ، وأشده مدخلا — وتوافوا لذلك حتى إذا استووا على السور حدّر خالد عامة أصحابه ، وانحدر معهم ، وخلف من يحمى المرتقى لمن يرتقى ، وأمرهم بالتكبير فكبّر الذين على رأس السور فهد المسلمون ومال إلى الحبال بشر كثير منهم ، فوثبوا فيها ، وانتهى خالد إلى أول من يليه فقتلهم ، وانحدر إلى الباب فقتل البوّابين ، وثار أهل المدينة ، وفزع الناس ، فأخذوا مواقفهم ولا يدرون ما الشأن ، وتشاغل أهل كل ناحية بمن يليهم ، وقطع خالد ومن معه أغلاق الباب بالسيوف ، وفتحوا المسلمين ، وأعملوا السيف فى المقاتلة حتى لم يبق مما يلى باب خالد مقاتل ، والتجأ من أملت إلى أهل الأبواب التى تلى غيره .

كان المسلمون قد دعوا أهل دمشق إلى المشاطرة فأبوا وأبعدوا ، فلما استجر فيهم سيف خالد عرضوا ما رفضوا ، وبذلوا الصلح ، فأجابهم المسلمون وقبلوا منهم ، وفتح الروم الأبواب للمسلمين ، وقالوا لهم : ادخلوا وامنعونا من أهل ذلك الباب ، فدخل أهل كل باب بصلح مما يليهم ، ودخل خالد مما يليه عنوة ، فالتقى خالد والقواد فى وسطها . هذا استعراضا وانتهاباً ، وهذا صلحاً وتسكيناً ، فأجروا ناحية خالد مجرى الصلح فصارت صلحاً ، وكان صلحهم على المقاسمة : الدينار والعقار ، وعلى كل رأس دينار واقتسم المسلمون أسلابهم فكان أصحاب خالد فيها كأصحاب بقية القوّاد ، وجعلوا على كل جريب أرض جريباً إلا ما كان للملوك ومن صوب إليهم فوقف فيئاً[2] .

---

(١) الوهق محركة ويسكن : الحبل يرمى فى أنشوطة فتؤخذ به الدابة والإنسان (خطاف) .

(٢) الطبرى جـ ٤ ص ٥٨ وهذه الموقعة تعد من ضمن المواقع التى يتجلى فيها نبوغ خالد وفوقه فى الحروب وخدعها .

غزوة فحل :

انتهى المسلمون من أمر دمشق وتبعاً لرأى الخليفة وما يوجبه الحزم قصدوا فحل ، إذ من الخرق أن يتجهوا إلى حِمْص ، أو غيرها من بلاد الروم ووراءهم تلك القوة العظيمة التى يقول عنها المؤرّخون : إنها ثمانون ألفاً[١] ، خصوصاً وأن من بفحل جنّة الروم ، وإليهم ينظرون ، وأن الشام بعدهم سلم .

خلف أبو عبيدة يزيد بن أبى سفيان على دمشق وسار يريد فحل وأمير الناس شرحبيل بن حسنة — إذ هو صاحب السلطان فى تلك المنطقة من قبل أبى بكر — وهو ممن سبقت له حروب تحت إمرة خالد ، فهو خبير به ، عارف بمقدرته الحربية ، ولذا فقد جعله على مقدمته حين قصدوا فحل ، وهذا من غير شك تكريم لخالد — وهو رئيسه القديم وأستاذه فى الحروب — وعرفان لفضله عليه .

كان الروم قد بثقوا عليهم المياه حينما وجه أبو عبيدة القوّاد إليهم وهم فى مرج الصفر فأردغت الأرض ثم وحلت واغتم المسلمون لذلك فى بادىء الأمر ، ولكن تبين أن ذلك فى مصلحتهم ، إذ قد حبسوا عن المسلمين بها ثمانين ألف فارس[٢] : « وعلى نفسها جنت براقش » وبعد حصار دام طويلاً ظنوا بالمسلمين غرة فهجموا عليهم واقتتلوا أشد قتال ليلتهم ويومهم إلى الليل ، فلما جنّ الليل عليهم حاروا وانهزموا وهم حيارى ، وضلوا الطريق وأسلمتهم هزيمتهم إلى الوحل وركبهم المسلمون فلم يفلت منهم إلا الشريد ، وانصرف أبو عبيدة بخالد يريد حمص .

موقعة مرج الروم

لما وصل إلى هرقل خبر هزيمة جنده فى دمشق والأردن ، وأن نية المسلمين اتجهت لقصد حمص أرسل إلى المسلمين جيشاً تحت قيادة توذر البطريق ، وأردفه بآخر مثله وعليه شنس الرومى مدداً له ، ورداءاً لأهل حمص .

(١) الطبرى ج ٤ ص ٥٩ .

(٢) وجعل أبا عبيده وعمراً على مجنبته ، وعلى الخيل ضرار بن الأزور ، وعلى الرجل عياض الطبرى ج ٤ ص ٥٧ ، ٥٩ .

التقى المسلمون بالجيش الرومى فى مرج الروم غربى دمشق ، فكان أبو عبيدة بإزاء شنس ، وخالد بإزاء توذر وأصبح المسلمون وأمامهم شنس والأرض خلو من توذر[١] .

أتى خالد الخبر بأن توذراً فيمن معه قد سار نحو دمشق ، فأجمع رأيه ورأى أبى عبيدة على أن يتبعه ، فاقتفى أثره ، وقد ظن ذلك الغر أنه سوف لايلقى إلاحامية دمشق ، وأنه سيقتنص للروم ، ويكيد للمسلمين ، ويضع يده على دمشق ، ولم يدر أن خالداً من ورائه ، وفى أثره وأنه يتحرق لملاقاته ، فما أن نشبت المعركة بينه وبين يزيد بن أبى سفيان — الذى خرج لملاقاته حين بلغه مسيره إليه — حتى لحقهم خالد وطلع عليهم من خلفهم ، فأخذتهم رماح يزيد من أمامهم ، وسيوف خالد من خلفهم ؛ فلم يفلت منهم إلا الشريد وقتل خالد توذرا وفى ذلك يقول :

نحن قتلنا توذرا وشوذرا وقبله ما قد قتلنا حيدراً
نحن أزرنا الغيضة الأكيدرا

وقسم فىء هذه الموقعة بين أصحاب خالد ويزيد ، وانصرف خالد راجعاً إلى أبى عبيدة ، وكانت هذه الموقعة فى السنة الخامسة عشرة للهجرة[٢] .

حمص[٣] :

بلغ هرقل ما صنع المسلمون بجنده فسار عن حمص ، وأمر عامله عليها بالتحصن ، وأن لا ينازل المسلمين إلا فى كل يوم بارد رجاء أن يهلكهم البرد .

قصد أبو عبيدة حمص عن طريق بعلبك ، وقدم إليها السمط بن الأسود الكندى ، وأرسل خالداً إلى البقاع فسار إليها خالد وافتتحها وسار أبو عبيدة حتى نزل على حمص وجاء بعده خالد فنزل عليها — بعد أن فتح البقاع — وحاصرها المسلمون وشددوا عليها الحصار فلما ذهب الشتاء وانقطع الرجاء طلبوا الصلح فصالحهم المسلمون .

---

(١) يظهر أن تلك مكيدة دبرت بين قائدى الروم للنيل من المسلمين .

(٢) راجع الطبرى جـ ٤ ص ١٥٣ .

(٣) بالكسر ثم بالسكون والصاد مهملة بلد مشهور قديم كبير مسور ... وهى بين دمشق وحلب فى نصف الطريق ... معجم البلدان جـ ٣ ص ٣٤٠ .

الحاضر :

بعد أن فتحت حمص أرسل أبو عبيدة خالداً إلى قنسرين ، فلما نزل الحاضر التقى بجيش للروم عليه ميناس — وهو أعظمهم بعد هرقل — فقاتلهم ، قتالا شديداً وقتل ميناس وتساقط الروم عليه حتى هلكوا عن آخرهم .

أرسل أهل الحاضر إلى خالد يعتذرون إليه بأنهم حشروا كرها ، ولم يكن من رأيهم حرب فقبل منهم وتركهم .

قنسرين[١]

لما انتهى خالد من الحاضر سار حتى نزل على قنسرين فتحصن أهلها منه فقال لهم : « لو كنتم فى السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا[٢] » ؛ فنظروا فى أمرهم ، وذكروا ما لقى أهل حمص وغيرها من البلدان ، فطلبوا الصلح على مثل صلح حمص ، فأبى إلا على خراب المدينة ، وكان ما أراد فأخربها .

كان هرقل قد ترك حمص إلى الرها[٣] فلما أباد خالد الروم بالحاضر وأخرب قنسرين يئس من بقاء الشام فى يده فودع سوريا وداع الحزين فقال : « عليك السلام يا سورية سلاماً لا اجتماع بعده ولا يعود إليك رومى أبداً » .

وكانت وقعة خالد بالروم فى الحاضر وقنسرين مدعاة لأن يغير عمر رأيه فيه ويرضى عنه . قال الطبرى : « فلما كان من أمره وأمر قنسرين ما كان رجع عن رأيه » . وقال فيه قولته المشهورة : « أمر خالد نفسه يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال منى[٤] » . وهذا رجوع صريح من عمر عن رأيه فى خالد ؛ وشهادة تعتبر بحق أكبر مدح له لصدورها من عمر .

---

(١) بكسر أوله وفتح ثانيه وتشديده — وقد كسره قوم — ثم سين مهملة ... كورة بالشام منها حلب بينهما مرحلة من جهة حمص — معجم البلدان ج ٧ ص ١٦٩ .

(٢) ثقة هائلة بنصر الله ، وهى تكشف لنا عن نفس خالد العبقرية .

(٣) الرها بضم أوله والمد والقصر : مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ معجم البلدان ج ٤ ص ٢٤٠

(٤) الطبري ج ٤ ص ١٥٥ ابن الأثير ج ٢ ص ٣٤٤ .

مرعش[1] :

بعد أن فتحت قنسرين وجه أبو عبيدة وهو بمنبج خالداً إلى مرعش ففتحها وأجلى أهلها وأخربها وفتح حصن الحدث[2].

مهارته فى تعبئة الجيوش وتزجيتها[3] :

أشرنا فى أثناء الكلام على المواقع الحربية إلى ما كان يدبره خالد من خطط ليظفر بخصمه ، وما كان يبتكره من أساليب لينتصر على عدوه . غير أن هذه الإشارات قد لا يستطيع بعض القراء أن يكون منها وحدة توضح فوق خالد فى تزجية الجيوش وتعبئتها ، ومهارته فى سوقها وقيادتها .

لهذا كان الواجب يحتم علينا أن نجمع بعض ماتفرق من هذه الإشارات فنجعل منه فصلا مستقلا يمكن القارىء من أن يلم بنواحى العظمة الحربية والاستعداد العظيم الذى منحه الله لهذا القائد المظفر الذى لم يهزم قط .

وقد يكون مفيداً أن نستمد مانكتبه هنا مما أسلفناه فى حروبه ومواقعه ، ولعل أول ماظهر من مهارته الحربية انتهازه الفرصة يوم أحد لما ترك رماة المسلمين مواقفهم واشتغلوا بجمع الغنائم ، فقد كرَّ على ميمنة المسلمين ، وأتاهم من خلفهم فألحق بجموعهم الاضطراب ، فالهزيمة . ولولاه لكان يوم أحد أنكى على قريش من بدر

---

(١) مرعش بالفتح ثم بالسكون والعين مهملة مفتوحة وشين معجمة مدينة فى الثغور بين الشام وبلاد الروم — معجم البلدان ج ١ ص ٢٥ .

(٢) تاريخ أبى الفداء ج ١ ص ١٦٠ ، فتوح البلدان للبلاذرى ص ١٩٦ .

(٣) هممت أن أثبت هذا الفصل فى الطبعات السابقة ولكن وجدتنى بحاجة إلى مراجعة بعض رجال الحرب ، ومباحثتهم فى بعض الخطط والأوضاع الحربية التى تدق على رجل مثلى بعيد عن الحرب ومكائدها ، فرأيت التريث حزماً ، والتمهل واجباً ، حتى لاأضل فى طريق لم أسلكها ، ولم أك من أهلها وإن الخير كله فى أن أستعين بأبناء بجدتها وأهل الرأى فيها .

وكم كان سرورى عظيما حينما اطلعت فى صحيفة الرسالة الغراء على ما كتبه الضابط العظيم طه باشا الهاشمى رئيس أركان حرب الجيش العراقى ، وعلى تلك المحاضرة العسكرية التى ألقاها فى نادى الضباط القدماء القائم مقام أركان الحرب أحمد بك اللحام فقد كفيانى مؤنة الاستفسار عما دق على وخفى سره على مثلى فجزاهما الله عن سيف الله خير الجزاء وأكثر الله فى المسلمين من أمثالهما .

obeikandi.com

ثم نراه فى غزوة مؤتة — بعد أن شرح الله صدره للإسلام — يتسلم قيادة جيش منهزم قليل العدد والعدد ، وقد قتل قواده الثلاثة ، وفقد الروح المعنوية أو كاد ، ثم هو بعد ذلك يدير رحى القتال بحزم وبراعة ، ويحدث فى أوضاع جيشه ما جعل ذلك الخميس الكثير العدد والعدد يخشاه ، ويرجع عن ملاحقته ، ولا نعرف من رجال الحرب إلا القليل ممن كان فى مثل موقف خالد وعرف الطريق إلى النجاة .

ثم انظر إليه فى موقعة اليمامة وقد وقف أمام جيش فيه من العدد أضعاف ما عنده ، والروح المعنوية فيه على أحسنها ، وقد انتصر على جيشين من جيوش المسلمين كان عليهما قائدان من أمهر القواد ، فنشوة الظفر تدفعهم أن يضيفوا نصراً جديداً . فلما دارت رحى الحرب ، واشتد القتال ، وحرب الفريقان ، وترامیا على الموت ، ونزل بالناس مالم يروا مثله قط ، وخشى أن ينهزم أحلاط العرب فيوهنوا أهل النجدة والغناء من المهاجرين والأنصار فيختل نظام جيشه ، وتكون الهزيمة ، لم تنفتح أوداجه ، ولم يذهل عما يجب أن يفعله ، بل ساعفه استعداده الحربى ، فنادى فى الناس قائلا : « امتازوا أيها الناس لنعلم بلاء كل حى ، ولنعلم من أين نؤتى » . فلما امتازوا قال بعضهم لبعض : « اليوم يستحى من الفرار » فما رؤى يوم كان أعظم نكاية من ذلك اليوم .

وغنى عن البيان أن هذا التدبير السريع لا يتم إلا لقائد خبير بنفوس جنده عليم بما يلهبهم ، ويذكى فيهم نار الحماس ، فليس أشد على نفس العربى من أن ينسب إليه جبن ، أو يتهم بالفرار من الموت .

ولما اطمأن إلى هذا التدبير ، وعرف أثره فى نفوس جنده عمد إلى تدبير آخر يجعل حداً للمعركة : ذلك أنه طلب من مسيلمة أن يبارزه ، لأنه يعرف أنه روح الجيش ، وأن منه تنبعث القوة المعنوية فيه فلما برز له انتهز منه نهزة فركبه وصاح فى الناس : « دونكم لا نقيلوهم » ، فحقت الهزيمة على مسيلمة وجنده .

تدبر أولى وقائعه بالفرس تلك الدولة العظيمة التى كانت تسود شطر العالم فى زمانها والتى كانت تنظر إلى العرب نظرة احتقار وازدراء ، لا تقيم لهم وزنا ولا تفرق

لهم وجوداً يعتد به ، والعرب من جانبهم يتهيبونها ، ويتقدمون بالطاعة إليها فإنك لن تجد مثل هذا التوفيق الذى لازمه فى كل حروبه معها قد ظفر به قائد سبقه ، أو جاء بعده .

جاءه أمر الخليفة بأن يسير إلى العراق ليفتحه ، وينشر عليه راية الإسلام والسلام ، فكتب إلى هرمز (صاحب ثغر الأبلة الذى كان معروفاً بخبثه ودهائه وسوء جواره للعرب) كتاب إنذار يقول فيه : « أما بعد فأسلم تسلم ، أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة ، وأقرر بالجزية ، وإلا فلا تلومن إلا نفسك ، فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » .

وهو إنذار لا تحتمله نفس رجل كالهرمزان كمل شرفه فى قومه ، وينتسب إلى دولة عظيمة كدولة الفرس .

من هذا الإنذار ندرك مبلغ الثقة التى كانت عند خالد بالنصر مهما كان العدو .

لو كان هذا الإنذار وجه من خالد إلى قائد عربى مثله عاش وإياه فى بيئة واحدة ، ولا يعرف من طرق القتال غير المبارزة ، والكر والفر ، لسهل الأمر وقلنا قائدان متكافئان ينذر أحدهما صاحبه ثم يتغلب عليه . أما إنه يبعث بإنذاره لقائد له منزلته ، ومن ورائه دولة له قيمتها ، عندها من الجيوش والعدد ما ليس عند خالد ، ثم هى إلى جانب ذلك عريقة فى تعبئة الجيوش ، وقيادتها فأمر يسترعى النظر ، ويجعلنا نجزم بأن خالداً قائد على غير مثال .

سار يريد خصمه لكنه لم يسلك بجيشه طريقاً واحداً ؛ لأنه قد لا يجد فى الصحراء عيناً من الماء تكفى لسقياه ؛ فقسمه إلى ثلاث فرق سلكت كل فرقة طريقاً إلى مكان تواعدوا عليه .

تواعد خالد وقواده « الحفير » وتعجل هرمز يريد الكواظم ، وقد جمع الجموع وأرسل إلى كسرى يعلمه بما كان ، ولما علم أن المسلمين قصدوا الحفير بادرهم إليه ، وتخير المكان الملائم لجيشه ، وعبأ جنده واستعد لملاقاة المسلمين .

علم خالد بصنيع هرمز فلم ير من الرأى أن يلاقيه فى الحفير ؛ لأن قرنه قد تخير المكان المناسب ، وأراح جنده وهيأهم لملاقاة عدوهم ، فكان من الحزم الحربى أن يعدل عن هذا المكان إلى غيره ، فقصد « كاظمة » ، فسبقه هرمز إليها وأحرز المكان الذى فيه الماء ، ونزل خالد على غير ماء .

لا شك أن هرمز كان يذكى أمامه العيون ، ويعرف وجهة المسلمين ، فكان دائما يسبقهم إلى ما قصدوا ليقابلهم على غير نظام وتعبئة . فيكون النصر فى جانبه ، ولكن خالداً ما كان يغيب عنه ذلك ؛ ومن ثم ندرك السر جيداً فى عدوله عن الحفير إلى كاظمة ، ولم يعدل عن كاظمة إلى مكان آخر لئلا يسرى الوهن فى صفوف جنده ، ومن الناحية الأخرى يكون ذلك بمثابة المدد لعدوه ، فيزداد قوة على قوته ، ولذا نراه يصر على عدم العدول عن هذا المكان رغم نزوله فيه على غير ماء ، وفى ذلك ما فيه من خطر على جيشه .

ولقد أدرك بعض جنده خطورة منزلهم هذا فقالوا له فى ذلك فقال : « حطوا أثقالكم ، ثم جالدوهم على الماء ، فلعمرى ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين » .

يا لها من ثقة عظيمة بالنفس . جيشان متواقفان وأحدهما يمتاز بعدده وقوته ، وسلاحه وكثرته ، وهو إلى جانب ذلك ينزل المكان الذى يلائمه ، وعنده من الماء ما يزيد عن حاجته والآخر على النقيض من ذلك ؛ فيشعر بعض رجاله بعدم ملائمة موقفهم للقتال وينبه قائده إلى ذلك ، فيأتى القائد ، فيهدىء من روع ذلك المتخوف ، ثم يبعث فيه جذوة الحماس ، ويقرب إليه النصر ويبشره به .

التقى الجمعان فدعاه خصمه للمبارزة ، فبرز إليه واحتضنه ، وقتله وكأنه الأسد الهصور ، فانهزم مَن وراءه لا يلوون على شىء ، وهكذا يضرب خالد المثل لجنده بنفسه .

ولو ذهبنا نعدد ما كان منه فى كل مواقعه لطال بنا الأمر ، ولغلبنا على ما نريد

ولكننا نكتفي من ذلك بتلك الموقعة الفاصلة ، موقعة اليرموك التي تقلص ظل الروم بعدها عن سورية ، والتي كانت سبباً فيما كان بعدها من فتوح .

فنراه حينما سار لإغاثة المسلمين قد سلك طريقاً لا يسلكها إلا رجل قوي الجنان مستهين بالمخاطر ، عظيم الثقة بالله ، و بنصره لأوليائه ، وقد ابتغى من وراء ذلك اختصار المسافة ليغيث المسلمين قبل أن يفنيهم العدو ، كما ابتغى أن يسلك طريقاً لا يستقبل فيها الروم ، وليس لهم فيها معاقل أو حصون حتى لا يضطر لمنازلتهم فيحبسه ذلك عن غياث المسلمين .

وصل خالد اليرموك فوجد المسلمين يقاتلون عدوهم على تساند في حين أنه موحد القيادة يرجع إلى رأي واحد ، وهو كبير العدد هائل العدد لديه من ذلك أضعاف ما عند المسلمين ، وفي نظام وتعبئة لا قبل لجيوش المسلمين بها ما داموا على تساندهم ، فلم تعجبه هذه الخطة ، ورأى أنها أشد على المسلمين مما غشيهم ، وأنفع للروم من أمدادهم . وهنا ظهرت مواهبه واستعداده الفطري للحروب يساعفه تلك المهارة والخبرة الحربية التي استفادها من بيئته وطول ممارسته لملاقاة الأعداء ، فالتفت إلى الأمراء وقال قولته المشهورة : « هل لكم يا معشر الرؤساء في أمر يعز الله به الدين ولا يدخل عليكم منه نقيصة ولا مكروه » فلما آنس منهم الميل إلى موافقته على الخطة التي ابتكرها ، والتي تنيلهم من عدوهم قام فيهم خطيباً فحمد الله ، وأثنى عليه وقال قولته الخالدة التي يعتبرها رجال الحرب اليوم من أهم القواعد الحربية التي توصل إلى النصر . قال لهم : « إن هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي أخلصوا جهادكم وأريدوا الله بعملكم . . هلموا فإن هؤلاء قد تهيأوا ، وهذا يوم له ما بعده ، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم ، و إن هزمونا لم نفلح بعدها ؛ فهلموا فلنتعاور الإمارة ، فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غداً ، والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم ، ودعوني أليكم اليوم ؛ فأمروه . . . [1] »

---

(١) راجع نص الخطبة في صفحة ١٥٨ من هذا الكتاب ، والطبري ج ٤ ص ٣٢ .

بين لهم فى خطبته خطأ قتالهم على تساند ، وأن حالهم فى مثل موقفهم لا يصلحها إلا توحيد القيادة ، ورجع الأمر إلى رئيس واحـد يصدر الجيش كله عن رأيه ؛ ليتكافأ حالهم إلى حد ما مع حال عدوهم ؛ فاستجابوا لدعوته وأمروه عليهم ، فعبأ الجيش تعبئة خالدية لا عهد للعرب بها ، فما هو إلا قتال يوم حتى فض تلك الجموع المتكاثفة ، وقضى على هذا الجيش العرمرم ، واحتل رواق رئيسه ، وكان صاحب اليوم المشهود .

لم يفته وهو يطلب من أمراء الأجناد الموافقة على خطته فى توحيد القيادة أن يفكر فيما يعتور هذه الخطة من صعوبات أهمها : عدم ارتياح بعض القواد لأن يدينوا لغيرهم . ولتطيب نفوسهم فيعانوه بقلوبهم ، ويخلصوا معه لله فى جهادهم ، جعل الإمارة العامة بالتناوب .

وما أشبه حال المسلمين فى تساندهم بحال جيوش الحلفاء فى الحرب العظمى ، كل دولة لها قائدها يصدر أمره لجنده تبعاً لرأيه ، فلما عضتهم الحرب ، ونال منهم الألمان ابتدأوا يفكرون فى إنقاذ موقفهم ، وأخيراً تأسوا بخالد ووحدوا قيادتهم ونسوا أنفسهم فى سبيل غايتهم ، فكان النصر فى جانبهم .

على أن هناك فرقاً بين الحالتين ؛ فخالد اضطلع بهذا الأمر وحده ، والحلفاء لم يستطيعوا ذلك إلا بعد أن عقدوا المجالس العسكرية ، واجتمع رجال حربهم مرات عدة ، ودامت المفاوضة بينهم فى ذلك أكثر من سنتين (١) ، وخالد لم يترب فى مدرسة للحربية والحلفاء تخرج رجالهم من أرقى مدارس الحربية فى العالم ، وخالد رأى هذا الرأى منذ ثلاثة عشر قرناً مضت ، والحلفاء عرفوا ذلك بعد مضى هذا الوقت الطويل ، ولولا أن الحلفاء كانوا مختلفى الأغراض والغايات ، وخالد والمسلمون من أمة واحدة وغايتهم واحدة لقلنا : إن المستوى الفكرى الحربى لخالد والمسلمين — ولو فى هذه الموقعة على الأقل — أرقى وأسبق من المستوى الفكرى للحلفاء .

---

(١) صحيفة الجهاد العدد ١٤٦ .

نظر رجل يومئذ إلى الروم فقال : ما أكثر الروم وأقل المسلمين ، فقال خالد : « ما أقل الروم وأكثر المسلمين ، إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان ، لا بعدد الرجال ، والله لوددت أن الأشقر بَرَاء من تَوَجِّيه وأنهم أضعفوا فى العدد[1] .

ولعمرى إن الإنسان ليحار فى وصف هذه النفس الكبيرة ، وثقتها بالنصر حتى فى أشد الأهوال وأحرج المواقف . ما هذا اليقين وما هذه القوة النفسية ؟ قائد يرى أنه لا يقرن لعدوه فى عدده ، ويبصر نظامه وبديع ترتيبه وتعبئته ، ثم يستهين به إلى هذا الحد ويقول : إنما تكثر الجنود بالنصر . اللهم إن هذا نور الإيمان وهدى الإسلام ، يهدى به اللهُ مَنِ اتَّبع رِضْوانه سُبُل السَّلام .

لم يشأ خالد وقد خرج إليه قائد من قواد الرّوم يسأله عن سبب تسميته « سيف الله » أن يعمى عليه الأمر ، أو يخدعه ويكذب عليه — وكان فى مكنته ذلك — أبت نفسه إلا أن يصارحه ويعلمه بالواقع ، ولم يفته أن يحبب إليه الإسلام ويدعوه إليه — رغم ما هو فيه من شدة — فكان ذلك سبباً فى إسلام الرجل وهدايته . وهكذا يضرب لنا خالد مثلاً أعلى من أمثلة الصراحة والحق ، والدعوة إلى الدين .

كان منزل الروم واسع العطن واسع المطرد ضيق المهرب ، والواقوصة وراءهم والوادى أمامهم خندقاً لهم ، وكان المسلمون قد مكثوا ثلاثة أشهر ، لا يقدرون منهم على شىء ، ولا يَخْلصون إليهم ؛ فلما جاء خالد ، وتولى قيادة الجيش ، والْتقى الجمعان نهد بقلب الجيش ، حتى كان بين خيل الروم ورجلهم ؛ فتضايقت خيلهم ؛ ولما رأى المسلمون ذلك أفرجوا لها ولم يحرجوها ؛ فذهبت تشتد بهم فى الصحراء ، وتركوا رجلهم فى مصافهم ؛ وبذلك انفصل الفِرسان عن الرَّجْل ؛ وخلا جيش العدو من الفِرسان ؛ فأحاط القائد الماهر عمرو بن العاص — وكان عَلَى ميمنة المسلمين — بالجناح الأيسر للعدو فحقت الهزيمة الشنيعة بالروم .

---

(١) الأشقر اسم فرسه وكان قد حفى فى مسيره ونفويزه من قراقر إلى سوى ، راجع الطبرى جـ ٤ ص ٣٤

يقول الضابط العظيم اللحام بك : « كان من الأنسب الأوفق لقواعد الحرب ألا يسمح لهذه الخيالة بالهرب ، بل يحمل عليها لإبادتها أو أسرها بدلا من الإفراج لها وتركها تذهب وشأنها . وقد حدثت فى الحرب العامة الأخيرة حركة إفراجية مماثلة لهذه الحركة . ولعلّ السبب الباعث على الحركتين واحد مع تطاول العهد وتطور أصول الحرب تطوراً يكاد يكون غير قابل للقياس مع ما سبقه . . .

فى شهر إيار من عام ١٩١٨ م استولت فرقة خيّالة للجيش الإنكليزى فى جبهة فلسطين على موقع الصلت عنوة ، وطردت الحامية التركية منه ، ولما كان هذا الموقع شديد التأثير على جبهة الحرب التركية بأسرها قرر قائد جبهة فلسطين التركية ، وهو الجنرال الألمانى المعروف فون ساندرس ليمان باشا أن يستردّه فوراً ، مهما كلفه الأمر ؛ فأوعز إلى الجيش الرابع ، و إلى فرقة الخيالة الثالثة فى مهاجمة الصلت وأشرف هو على حركة الهجوم ، و بدلا من أن يجعل نقطة الهجوم الأصلى جناح الفرقة الانكليزية وخلفها ليحيط بها و يأسرها كلها اكتفى بتوجيه الهجوم عليها من الشمال ، مستهدفاً جبهتها فقط ، وخالف بذلك رأى أركان حربه التى كانت لاتنفك ترجو منه تطويق الفرقة الانكليزية من جناحها الأيسر ، وقطع خط رجعتها عليها . وحُجة القائد الألمانى فى ذلك أن القطعات التركية كانت تَعِبَةً جداً منهوكة القوى إلى حد يخشى معه ألا تقوى على رد حملات الفرقة الانكليزية العنيفة التى ستضطر إليها هذه الفرقة عند ما تصبح مهدّدة بالأسر عرضة لنقمة الترك وغضبهم ، لاسيما وأن العناد فى الثبات مشهور عن العقل السكسونى فى المواقف الحرجة ؛ فلهذه الأسباب لم يشأ القائد الألمانى إحراج الفرقة الإنكليزية ففرج لها وتركها تذهب بالسلامة من حيث أتت » .

وهكذا قلد القائد الألمانى فى القرن العشرين حركة القائد العربى فى القرن السابع .

و إذا أردت أكثر من هذا فاستمع إلى درس التضحية والجهاد ، ففى الوقت الذى ينتظر الناس له أعظم المثوبة والجزاء ، وأسمى مراتب التقدير والرضا فاجأه أمر الخليفة بالعزل — والمعركة فى أشدها — فما غضب ولا حقد ، ولكنه بقى على وفائه

من النجدة والإقدام ، والجد فى الجهاد ، والبأس فى مناضلة العدو ، لم تضعف حميته ، ولم تخمد جذوة إخلاصه لدينه ، بل ظل « جُنديا فى نفس قائد ، وقائداً فى صورة جُندى » ، يقود الجيش ، ويمده برأيه وتدبيره ، ويفعل الأعاجيب فى قتال الروم وهو يعلم أنه معزول ونتيجة الحرب قد ألقيت على عاتق سواه حتى هزم عدوّه وظفر به :

أتاه أمر أبى حفص فقبـله ... كما يقبل آى الله تاليها
واستقبل العزل فى إبان سطوته ... ومجده مستريح النفس هاديها
ألقَىٰ القياد إلى الجراح ممتثلا ... وعزة النفس لم تجرح حواشيها
وانضم للجند يمشى تحت رايته ... وبالحياة إذا مالت يفديها[(١)]

لو كان هذا العزل لقائد من قُوّاد زماننا لخبثت نفسه وفسدت سريرته ، وعمل على أن يخذل من يخلفه ، وربما تربص الدوائر بتلك الأمة التى لم تعرف له حقه .

تلك نفس لا تعد فى الصفوف المألوفة من نفوس البشر ، تلك هى نفس خالد ابن الوليد الذى لم يكن فى يوم من الأيام إلا قائداً يعزله عمر بن الخطاب ، ويصبح جُندياً مجرداً من صفات الرياسة والأمارة ، فما ونى ولا وهن ولا خان ولا غضب ، ولم يلتفت لحبه لأبى بكر ولا لبغضه لعمر ، ولكنه التفت لدينه وإمامه ، فقال : « الحمد لله الذى قضى على أبى بكر الموت وكان أحب إلىّ من عمر ، والحمد لله الذى وَلّىٰ عمر ، وكان أبغض إلىّ من أبى بكر ثم ألزمنى حبه »[(٢)]

وما عرته شكوك فى خليفته ... ولا ارتضى إمرة الجراح تمويها[(٣)]

والذين يذكرون ماصنع مستر « تشرشل » حين عزل من وزارة الحربية أيام الحرب الكبرى ، وأنه ذهب إلى ميدان القتال جندياً فرداً يعرفون اليوم أنه إنما كان يتمثل بخالد ، وأن هذه العظمة التى تظهر فى أفراد الأمم العظيمة كانت للإسلام

---

(١) عمرية حافظ
(٢) الطبرى جـ ٤ ص ٣٧
(٣) عمرية حافظ .

قبل الإنجليز بأربعة عشر قرناً ، وهى هى سر نجاح أولئك ونجاح هؤلاء ، ونجاح من يوهبها من الأمم[١] .

ولقد عرف الضابط العظيم المرحوم سليم بك الجزائرى[٢] (مدرس فن السوقيات فى مدرسة أركان الحرب فى الآستانة بعد سنة ١٩٠٨) لخالد فضله فى الحروب وخبرته بأساليبها ، فكان دائماً يقرر القاعدة فى فن تعبئة الجيوش ، ويضرب لذلك المثل بفعل خالد بن الوليد فى إحدى وقائعه ، ثم بغيره من قواد أوروبا ذوى المهارة الحربية .

ويقول فيه القائد الألمانى غولتس باشا : إنه أستاذى الأكبر فى فن الحرب[٣] .

لاجرم أن ماحصل فى تلك الموقعة يصلح تطبيقاً عملياً على فنون القتال وقيادة الجيوش ، وهو درس جليل لمن يريد أن يمهر فى فن التعبئة وملاقاة الأعداء ؛ فرحمك الله أبا سليمان ، فقد كنت ماهراً متفرداً فى قيادة الجيوش فى حياتك ، وغدوت مفخرة من مفاخر الإسلام الخالدة بعد مماتك .

اللهم إن نفساً تحمل هذا الإخلاص لدينها ، وتبقى على ماعرف عنها من بأس وقوة لهى النفس المؤمنة التى تطلب رضوان الله وكفى ، وسواء عليها أن تجاهد فى الله تحت لواء غير لوائها أو تغزو ولها السلطان ، تلك هى النفس المطمئنة الراضية المرضية التى يقول الله فيها . فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى » .

---

(١) افتتاحية صحيفة الأهرام العدد ١٦٦٨٨٠ — مقال للمرحوم الأستاذ الشيخ محمد سليمان نائب المحكمة العليا الشرعية سابقاً .

(٢) سليم بك الجزائرى : ضابط عظيم من أبناء مهاجرى الجزائر الذين نزلوا الشام مع الأمير عبد القادر الجزائرى المجاهد الشهير ، وقد تعين مدرساً لفن السوقيات بمدرسة أركان حرب الدولة العثمانية ، وكان من ضحايا جمال باشا السفاح المشهور فى أيام الحرب العظمى — ا هـ . عن أستاذنا المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار .

(٣) راجع محاضرة اللحام بك .

شبهة مغرضة :

الآن وقد انتهينا من فتوح خالد وأعماله ، لا يفوتنا أن نعرض بكلمة عما يردده بعض المغرضين الذين فى أعينهم قذى ، وران على قلوبهم كراهة الإسلام وأهله من أن انتصار خالد على دولتى الفرس والروم واقتطاعه جانباً كبيراً من أراضيهما فى ذلك الوقت الوجيز لم يكن لثقة المسلمين بإحدى الحسنيين ، ولا بتأييد الله لهم لإظهار دينه ، ولا لكفاية قوادهم ودربة جنودهم وتآلف قلوبهم ، وإنما كان لأمر عارض تصادف وجوده والعرب فى بدء نهضتهم ؛ ذلك هو ما كانت فيه الدولتان من اختلاف واضطراب فى الداخل . وهو كلام يبدو صحيحاً لكن لمن ينظر فى بعض من حقائق التاريخ ، ويأبى إلا أن يغمض عينيه عن بعض ؛ لأنا رأينا كلتا الدولتين تحشد لجموع المسلمين جيوشاً جرارة متصلة المدد ، وفوق ذلك فلهما عهد وخبرة طويلة بتسيير الجيوش وتعبئتها ، ولقد رأينا فى بعض المواقع أنهم لم يأبهوا بالعرب ولم يشكوا فى القضاء عليهم ، وكانوا يعتقدون أن العرب إذا مادارت رحى الحرب انكفأوا راجعين إلى باديتهم ليتواروا فيها .

هذه هى الحقيقة التاريخية التى لا مرية فيها ، وحسب المنصف أن ينظر إلى موقعة اليرموك والأعداد التى حشدها الروم لملاقاة المسلمين ، والتعبئة التى خرجوا فيها ، والتى لم ير الراؤون مثلها قط ؛ فإنه لا يختلجه شك فى صحة هذه الحقيقة ، ولكن بعض المرضى بكراهة المسلمين الذين يعز عليهم أن يكون فيهم أمثال خالد ، لما لم يروا بدا من الاعتراف بغلبة المسلمين وانتصاراتهم المتوالية ، وزلزلة الدولتين على أيديهم فى تلك المدة الوجيزة ذهبوا يتلمسون المعاذير ، ويتبردون بكؤوس الباطل ، وهى معاذير كما ترى أوهى من باطلهم ، ولابد للحق أن يعلو ولو كره المبطلون .

هذا ولا يفوتنا أن نقول إن هذه الوقائع التى حصلت بين المسلمين والروم فى بلاد الشام قد اتفق المؤرخون على حدوثها ، ولكنهم اختلفوا فى ترتيبها وأزمان حدوثها .

ترتيب الوقائع وأزمنة حدوثها :[١]

وسنذكر فيما يلى رواية بعض المؤرخين فى ترتيبها ، وما اخترناه نحن مع توجيه هذا الاختيار :

ذكر البلاذرى[٢] أن خالدا اجتمع مع المسلمين فى بصرى وأنهم أمروه فى حربها ، ثم ذكر موقعة أجنادين ، وأنها كانت فى جمادى الأولى أو جمادى الآخرة من سنة ١٣ ، وأن ممن قتل بها عكرمة بن أبى جهل ، وهبار بن سفيان ، وسلمة بن هشام ، وعمرو بن سعيد بن العاصى ، وأخيه أبان ، وجندب بن عمرو الدوسى الخ ، ثم ذكر بعدها موقعة سماها الياقوصة انتصر فيها المسلمون ، وأتاهم فى هذه الموقعة نعى أبى بكر ، وبعدها كانت فحل « ٢٨ من القعدة سنة ١٣ » ، ثم مرج الصفر « محرم سنة ١٤ » ، وأن دمشق كانت فى رجب من سنة ١٥ . وقد وافقه فى معظم كلامه هذا صاحب أسد الغابة[٣] .

واليعقوبى[٤] يقول : وافاهم « يعنى خالداً » فافتتحوا بصرى وفحل وأجنادين من فلسطين . . . وكانت أجنادين يوم السبت لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ١٣ ثم مرج الصفر ثم دمشق فى رجب سنة ١٤ ثم فحل ثم حمص ، وتراجع أبو عبيدة فعسكر بالمسلمين على اليرموك لما بلغه ما جمع هرقل ، وكانت وقعة اليرموك سنة ١٥ وبعدها رجع أبو عبيدة إلى حمص .

ورتبها الطبرى فيما عدا روايته عن ابن إسحاق على الوجه الذى ذكرناه ، وتبعه بعض المؤرخين ، وسنبدى ملاحظاتنا على هذا الترتيب ، مبينين وجه اختيارنا للطريق الذى سلكناه .

---

(١) هذا الفصل وإن كان أنسب وله قيمته فى تاريخ الفتوح إلا أنا قد رأينا أن إثباته فى تاريخ خالد له من الفائدة ما يبرره .

(٢) ص ١١٩ وما بعدها .

(٣) راجع جـ ١ ص ١١٧ ، جـ ٢ ص ٢٥٠ ، ٣٤١ ، وراجع أيضا ابن كثير جـ ٥ ص ٣٤٠

(٤) جـ ٢ ص ١٦٠ .

obeikandl.com

١ — ذكر البلاذرى وقعة فحل قبل دمشق ، وهذا يتنافى مع كتاب عمر المتقدم الذى يأمر فيه أبا عبيدة بأن يبدأ بدمشق لأن فيها قوة الروم .

واليعقوبى اضطرب ؛ فذكرها مرة قبل أجنادين ومرة بعد دمشق ، ولم نر من وافق اليعقوبى على هذا الرأى .

والطبرى ذكرها بعد دمشق وهو يوافق رأى اليعقوبى فى أحد موضعيه ، كما يوافق كتاب عمر لأبى عبيدة ، وهو الأوفق من الوجهة الحربية ؛ لأن فى ذلك قصد القوة الكبرى للعدو[1]

٢ — ذكر البلاذرى موقعتين سمى إحداها الياقوصة ، وقال : إنها التى جاء المسلمون فيها نعى أبى بكر ، وسمى الثانية اليرموك ، وقد رجعنا لمعجم البلدان وكتب التاريخ التى بين أيدينا فلم نجد فرقاً بينهما ، فالياقوصة ضفة اليرموك ، ولم نر من المؤرخين من ذكر أن هـذا المكان قد حصلت فيه موقعتان . على أنا قد رأينا كلاماً لبعض المؤرخين المحدثين يتضمن أن اليرموك يطلق على مكانين ، فإن صح ذلك فلا مانع من أن يكون هناك موقعتان فى كل مكان موقعة ، ولـكنه كلام يعوزه الإثبات .

٣ — ذكر البلاذرى واليعقوبى والطبرى فى روايته عن ابن إسحق : واقعة أجنادين قبل دمشق ، وأنها كانت فى جمادى الأولى ، أو الآخرة سنة ١٣ ، وأن اليرموك كانت سنة ١٥

والطبرى فيما عدا روايته السابقة عن ابن إسحاق ذكر أن اليرموك كانت سنة ١٣ ، واجنادين كانت سنة ١٥ .

وقبل الحـكم برجحان إحدى الروايتين نقرر :

(ا) إن القتلى الذين ذكرهم البلاذرى فى أجنادين هم بعينهم الذين ذكرهم الطبرى فى اليرموك ، وأن السبب الحامل لاجتماع المسلمين باليرموك على رأى البلاذرى واليعقوبى هو بعينه الحامل على اجتماعهم فى أجنادين على رأى الطبرى .

---

(١) وكذلك فعل الألمان فى الحرب العالمية الأولى ، إذ وجهوا قواتهم الرئيسية إلى الميدان الغربى ، ووضعوا فى الميدان الشرقى قوة تقف فى وجه العدو .

(ب) إن المؤرخين اتفقوا على حدوث هاتين الموقعتين إحداهما قبل فتح دمشق والأخرى بعدها .

(حـ) إن اليرموك وأجنادين مكانين مختلفين : فاليرموك واد بناحية الشام فى طرف الغور يصب فى نهر الأردن ، وأجنادين من الرملة من كورة جبرين .

ويمكن تلخيص الخلاف بين المؤرخين فى أى الواقعتين كانت قبل دمشق ونحن نميل إلى أن اليرموك هى التى كانت قبل دمشق ، وأن أجنادين بعدها وذلك :

١ — لأن كتاب أبى بكر لخالد الذى يأمره فيه بالمسير إلى الشام لإغاثة المسلمين صريح فى ذلك إذ يقول فيه : « أن سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك . . . . »

٢ — صرح بذلك ياقوت فى معجمه[١] .

٣ — الأبيات التى قالها القعقاع بن عمرو حينما سار جيش العراق لنجدة المسلمين بالشام تصرح بذلك وأنهم اجتمعوا مع المسلمين باليرموك ومنها :

وجئنا إلى بصرى وبصرى مقيمة — فألقت إلينا بالحشـــا والمعاذر

فضضنا بهـا أبوابها ثم قابلت — بنا العيس فى اليرموك جمع العشائر

٤ — الطبرى فيما عدا روايته عن ابن إسحق ذكر أن اليرموك قبل دمشق .

٥ — أبو الفداء يقول : « وقعة اليرموك وهى الوقعة العظيمة التى كانت سبب فتوح الشام وكانت سنة ثلاث عشرة للهجرة[٢] » .

٦ — ضعف الطبرى[٣] رواية الواقدى التى تقول : بأن اليرموك سنة ١٥ إذ يقول مانصه : « وزعم — يعنى الواقدى — أن واقعة اليرموك كانت فى سنة خمسة عشر ؛ فقد رواها بلفظ زعم التى تشعر بالضعف .

٧ — كان أول فتح أتى عمر اليرموك على عشرين ليلة من متوفى أبى بكر[٤]

---

(١) جـ ٨ ص ٥٠٤ .

(٢) جـ ١ ص ١٥٨

(٣) الطبرى جـ ٤ ص ٥٩

(٤) الطبرى جـ ٤ ص ٦٣

٨ — ويقول الطبرى أيضاً فى أثناء كلامه عن اليرموك : « وتوفى (يعنى أبا بكر » للنصف من جمادى الآخرة قبل الفتح بعشرة ليال »[١] .

على أن روايته عن ابن إسحاق التى تقول بأن أجنادين سنة ١٣ ، ودمشق سنة ١٤ ، واليرموك سنة ١٥ يرتد آخرها بالمنافاة على أولها ، فقد صرح فى أولها بأن عزل خالد كان والمسلمون على دمشق سنة ١٤ ، وفى نهايتها يقول : « ولم يزل عمر عليه (يعنى خالدا) ساخطاً ولأمره كارهاً فى زمان أبى بكر كله ؛ لوقعته بابن نويرة ، وما كان يعمل فى حربه ، فلما استخلف عمر كان أول ماتكلم به عزله » . وهذا صريح فى أن العزل كان فى بدء خلافة عمر يعنى فى منتصف سنة ١٣ مع أنه فى صدر روايته يقول : إن عزله كان وهم على دمشق سنة ١٤ .

٩ — ويقول ابن برهان الدين[٢] : « فإن الصديق رضى الله تعالى عنه توفى وهم فى الاستعداد للقتال باليرموك » .

١٠ — إن اليرموك من إقليم الأردن وأجنادين من فلسطين ، والمسلمون بعد فتح دمشق كانت أقدامهم قد ثبتت فى إقليم الأردن بأكمله بينما كان إقليم فلسطين لا يزال الكثير من مدنه كبيت المقدس ، وغيره تحت حكم الرومان ، وفيه كثير من جنودهم ، ولما يفتحه المسلمون بعد ؛ فالمعقول إذن أن جيوش الروم حينما سار بها هرقل يريد المسلمين تجتمع فى بلد خاضع لها ، وبين أقوام ينصرونها ، ليكون ذلك أسلم عاقبة ، وأضمن للنصر ، ولا يعقل أن يخاطر الروم بجيوشهم ، فيقصدوا المسلمين بالأردن ؛ وعلى هذا فالموقعة فى فلسطين لا الأردن ، وبعبارة أخرى فى أجنادين لا فى اليرموك .

ولهذا فقد اخترنا أن اليرموك قبل دمشق وأن أجنادين بعد دمشق . ولا يبعد أن يكون قد حدث بأجنادين موقعتان : إحداها قبل اليرموك والثانية بعد دمشق فى سنة ١٥ ، ويكون البلاذرى واليعقوبى قد ذكرا الأولى ، ولم يلتفتا للثانية رغم أنها

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٣٢ .

(٢) السيرة الحلبية ج ٣ ص ١٦٣ .

كانت من المواقع الهامة ، وهى التى كان لعمرو بن العاص فيها القدح المعلى ، وفيها يقول عمر : « قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب » . ويرشح هذا أن الطبرى فى بعض رواياته ذكر أجنادين قبل اليرموك ، ثم عقد لها فصلا خاصا وذكرها ثانية بعد دمشق .

هذا ولعل اختلاف روايات المؤرخين ، واضطرابهم فى ترتيب الحوادث مرده تتابع الغزوات والوقائع فى سنى ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، وربما كانت واقعتان فى وقت واحد فيذكر أحد الرواة إحدى الواقعتين قبل الأخرى ، ويعكس راو آخر ، ثم يأتى من يروى عن كل عنهما فيرتبهما ترتيباً زمنياً مختلفا ، وربما انتقضت بلد ، فأعاد المسلمون فتحها ، فيذكر راو الفتح الأول ، ويعتمد آخر الفتح الثانى ؛ فلا بدع إذن أن ينشأ الاختلاف والاضطراب . قال صاحب أسد الغابة . « يقع الاختلاف كثيراً فيمن قتل باليرموك وأجنادين والصفر وكلها بالشام . وكذلك اختلفوا فى أى هذه الأيام قبل الآخر ، وسبب هذا الاختلاف قرب بعضها من بعض »[1]

(١) أسد الغابة جـ ١ ص ٣٧ ، جـ ٢ ص ٣٠٤ .

النفور بين عمر وخالد

وما آل إليه

أسباب العزل ، متى كان ؟ أثر العزل فى نفس عمر ، أثره فى نفس خالد . أثره فى نفوس الأمراء . أثره فى نفوس الجند ، أثره فى نفوس كبار الصحابة . أثره فى نفوس بنى مخزوم ، ما آل إليه الخلاف بينهما .

أسبابه :

قبل الكلام على الأسباب التى أدت إلى هذا النفور ، والأحوال التى زادته ورشحته ، نرى أن نلم إلمامة خفيفة بأخلاق كل منهما ، وفى ضوء ذلك نسير لنعرف أسباب هذا البغض .

من أبرز أوصاف عمر :

١ — حب الحق للحق تحت كل العوامل والمؤثرات ، ولا يعدل ذلك عنده أى شىء مهما جل .

٢ — مصلحة المسلمين عنده فى المقام الأول ، ورِضَى العامة عنده هو المهم ، وسواء لديه أَرَضِيَ عماله أم سَخِطوا .

٣ — الشدة على عماله ومراقبتهم مراقبة شديدةد قيقة ، حتى إنه كان لا يخفى عليه شىء من أمورهم .

٤ — يرى أنه لا يحق للعمال التصرف فى شىء إلا بأمره ، ولا سيما ما كان خاصاً بالأمور المالية ؛ فقد أثر عنه أنه كان يقول : « أنا تاجر المسلمين » .

٥ — كان رجلا متقشفاً ، و يعجبه من عماله أن يكونوا على مثاله ، ومن رأيه

أن تظل الأمة العربية على تقشفها و بداوتها ، ولا يرغب فى أن تنغمس فى نعيم الدنيا حتى لا تركن إلى الراحة فالخمول[١]

ومن أخص أوصاف خالد :

١ — حب الحق للحق إلا أنه ربما تساهل فى ساعات الحرب فى بعض أمور صغيرة إذا رأى مصلحة المسلمين فى ذلك ، وهو تساهل الحكيم الذى أيدته الشريعة الإسلامية حين رأت ألا تقام الحدود فى الحرب .

٢ — يرى أن العمال والأمراء يحسن أن يكون لهم بعض الحرية والاختيار ، و بالتالى ليس أمر الخليفة ، واستطلاع رأيه أمراً لازماً فى كل الأحوال ؛ فلا مانع عنده أن يعمل الأمير برأيه فى بعض الأمور التى ربما فاتت فرصتها انتظاراً لأمر الخليفة .

٣ — لا بأس عنده من التنعم والرفاهة مادام ذلك فى حدود الدين[٢] .

٤ — كان رجل حرب ، وهذا يستلزم أن يكون فى طباعه شىء من الشدة والقسوة ، والنصر على الأعداء عنده هو الغاية ، وهى لديه تبرر أى وسيلة كانت .

من هذا التمهيد المجمل يمكن أن نقول : إن الرجلين و إن اتفقا فى حب الحق ، وتقديم مصلحة المسلمين لكن لكل منهما وجهة تغاير وجهة الآخر ، ومبررات تبرر رأيه ، وفى طباع كل منهما نوع من الشدة ؛فالمعقول إذن أن يصطدما تبعاً لأخلاقهما واختلاف وجهتى نظريهما فى بعض الأمور .

ولم يظهر لوجهتى نظريهما أثر فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه لم يكن فى زمنه عليه السلام رجل كائن من كان يطمع فى أن يكون له رأى يقرن برأيه صلى الله عليه وسلم ، وإنما غاية أحدهم أن يسأل عما لا يعرف .

---

(١) وفى الحق لو استمرت الأمة الإسلامية على هذه الخطة التى كان يريدها لها عمر لما نالها ما نالها من الضعف والوهن .

(٢) وقد أثر عنه دخول الحمام وإجازة الأشعث بعشرة آلاف .

فلما جاء زمن أبي بكر ابتدأ أجلاء الصحابة ، وأهل السابقة والفقه منهم يدلون برأيهم فيما يجد من أمور ، وكان عمر كالوزير لأبي بكر يستشيره ، وكثيراً مايعمل برأيه. ومن هذا الوقت ابتدأ دور البغض والخلاف بين عمر وخالد يظهر فى صورة محسة عندما تعرض مناسبة لذلك ، بيد أنه لم يتمكن من عزله زمن أبي بكر ؛ لأن أبا بكر كان سهلا ليناً مرناً لا يقيد من عماله ، ويرى أن يتغاضى عن بعض الشيء من خطئهم فى سبيل المصلحة العامة التى تعود على المسلمين من أعمالهم ، وكان كلما ألحّ عليه عمر فى عزله يقول له : « مه يا عمر لا أشيم شيفاً سله الله » . وفى الحق أن أبا بكر كان فى حاجة لسيف خالد ؛ لأنه الذى فقأ عين الردة وزلزل عروش الأكاسرة والقياصرة ، ومهد السبيل للفتوح العظيمة التى تمت بعد ؛ فليس من السياسة فى شيء عزله فى زمن أبي بكر بل ولا فى زمن عمر . ومن رأينا أن عمر رضى الله عنه كان متحاملا على خالد ، وقد اعترف عمر بسداد نظر أبي بكر فى خالد إذ يقول : « رحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال منى » .

ولما تولى عمر بادر بعزله ، وسنذكر فيما يلى بعض ما قاله المؤرخون فى أصل العداوة بينهما مما كان له أثر فى عزله .

أصل العداوة بين عمر وخالد :

ذكر ابن عساكر[1] وابن برهان الدين أن السبب فى هذا البغض هو تصارعهما وهما غلامان ، وكسر خالد ساق عمر ، وأن البغض ما زال بينهما حتى تولى عمر فعزله . ونحن مع اعترافنا بحصول هذا الصراع لو سلمنا بأن له أثراً ولو ضئيلا فى نفسيهما ، وهما غلامان ، فلا نسلم ببقاء هذا الأثر عند انتهاء زمن الغلومة ، ولو سلمنا جدلا أن هذا الأثر لازمهما بعد الكبر ، فلا نسلم بحال ببقاء ذلك بعد إسلامهما ، ولا يمكن أن يعقل هذا رجل رشيد عرف الإسلام وأثره فى نفوس الصحابة ، وإذا كانت

---

(١) ابن عساكر ص ٧١٠ ، السيرة الحلبية ج ٣ ص ٢٧٦

ثارات الجاهلية ، وما كانت تحمله نفوس العرب من حب الثأر والانتقام امّحى أثره بالإسلام ؛ أفلا يَمَّحِي صراع بين اثنين؟ بيد أنه كان بينهما وهما غلامان ، ورغم أنهما قريبان . وإذا كان الرجل بعد الإسلام يلقى قاتل أبيه أو أخيه ، ولا يحمل له غِلاًّ فى نفسه أفيجمل بعمر أن يحمل غِلاًّ لخالد وهو قريب القرابة ، وفى منزلة خاله وبعد إسلامهما لصراع كان بينهما وهما غلامان . اللهم إنا لا نعقل ذلك . على أن قولة عمر فى خالد حين عزله عن قنسرين فقدم عليه المدينة التى يقول فيها : « . . . يا خالد والله إنك على لكريم ، وإنك إلى لحبيب ، ولن تعاتبنى بعد اليوم على شىء »[١] يدل صراحة على أن عمر لا يحمل فى نفسه حقداً لخالد وهو إليه حبيب .

ولكن الأسباب الحقيقية التى يؤيدها الواقع وينطق بها التاريخ ، وتنطبق على خلق الرجلين هى :

١ — قتل خالد مالك بن نويرة وتزوجه بامرأته الأمر الذى أدى أن يطلب عمر من أبى بكر أن يقيده ، أو يعزله ، وما كان فى نفسه قبل ذلك منذ أوقع ببنى جذيمة فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم يضاف إلى هذا قتله الرجلين اللذين كانا يحملان كتاباً من أبى بكر بإسلامهما ، وذلك فى موقعة المصيخ[٢] .

٢ — كان فيه تقدم على رأى أبى بكر فلما تولى عمر لم يعجبه ذلك منه[٣] .

٣ — كان لا يرفع حساباً لأبى بكر ، ويفعل أشياء لا يراها ، وكان يغفر له ذلك ، وعمر على خلاف هذا ، حتى إنه قال لأبى بكر : اكتب لخالد لا يعطى شيئاً إلا بأمرك ، فكتب إليه بذلك ، فأجابه خالد إما أن تدعنى وعملى ، وإلا فشأنك بعملك ، فأشار عليه عمر بعزله ، ولكن أبا بكر لم ينفذ مشورة عمر فلما تولى عمر عزله[٤] .

٤ — افتتان الناس به واستماتتهم تحت لوائه ، وحبهم للقتال تحت رايته ؛

---

(١) الطبرى ج ٤ ص ٢٠٥
(٢) راجع الطبرى ج ٤ ص ٥٦ ، والأصابة ج ١ ص ٩٩
(٣) راجع بن عساكر ص ٧١٣ ، والأصابة ج ١ ص ٩٩
(٤) أسد الغابة ج ١ ص ٥٣ ، الأصابة ج ٢ ص ٣١٣

فخاف عمر أن يوكل الناس إليه ، فعزله ليعلموا أن الله ينصر دينه سواء أكان القائد خالداً أم سواه . وقد صرح بذلك عمر وكتب إلى الأمصار : « إني لم أعزل خالداً عن سخط ، ولا عن خيانة ولكن الناس فتنوا به ، ففقت أن يوكلوا ويبتلوا به ؛ فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وألا يكونوا بعرض فتنة[١] » .

وقيـــل خالفت يا فاروق صاحبنا فيه ، وقد كان أعطى القوس باريها

فقال خفت افتتان المسلمين به وفتنة النفس أعيت من يداويها[٢]

ويقول صاحب السيرة الحلبية[٣] لم يعزله « أبو بكر لكونه كان شديداً على الكفار لرجحان المصلحة على المفسدة ، وسيدنا عمر عزله لخوف افتتان الناس به . كان الصديق رضى الله عنه لينا ، وخالد بن الوليد شديدا ، وعمر رضى الله عنه كان شديداً وأبو عبيدة ليناً ، فكان الأصلح لكل منهما أن يولى من ولاه ليحصل التعادل » .

متى كان العزل ؟

اختلف المؤرخون فى عزله ، متى كان ؟ فالبعض يقول[٤] : إن عزله كان والمسلمون على حصار دمشق ، وفريق يرى أن عزله حصل فى أثناء موقعة اليرموك[٥] .

فمن قال بأنه عزل والمسلمون على حصار دمشق يتعلل بأن خالداً كان أمير القتال ، وأن كتاب الصلح مذيل بإمضائه ، وهو دليل غير مقنع كما ترى ؛ لأن إمرة القتال وإمضاء الكتاب ربما كانا لكفاءته فى القتال ، ومرانه على كتابة العهود ، وفضلا عن ذلك ، فإن فى هذا الفريق من يقول : إن المسلمين حاصروا دمشق قبل وفاة أبى بكر بأربعة أيام ، وهو رأى غريب ، ومنهم من يروى العزل بصيغة تشعر بالضعف كالبلاذرى حيث يقول : « وقوم يقولون إن ولاية أبى عبيدة

---

(١) الطبرى جـ ٤ ص ٢٠٦ ، السيرة الحلبية ٣ ص ٢٧٧

(٢) عمرية حافظ (٣) جـ ٣ ص ٣٧٧ .

(٤) رواية الطبرى عن ابن إسحاق جـ ٤ ص ٥٥ ، البلاذرى ص ١٢١

(٥) وعلى هذا الرأى معظم روايات الطبرى وهو مذكره ابن الأثير .

الشام أتته والناس محاصرون دمشق ؛ فكتمها خالداً » . ومنهم من آخر روايته يتنافى مع أولها ؛ فبينما يقول إن عزل خالد كان والمسلمون على دمشق سنة ١٤ نراه فى نهاية روايته يصرح بأن أول ما بدأ به عمر هو عزل خالد ، وعلى هذا لم يسلم لهذا الفريق رأى صحيح ، على أن كل دليل يؤيد الرأى الذى نختاره ينقض هذا الرأى .

والفريق الذى قال إنه عزل والمسلمون على اليرموك هو الفريق الذى نرى رأيه ونؤيده ، وطريقنا فى تأييده أمران :

(ا) نصوص تاريخية صريحة منها :

١ — ما ذكره الطبرى فى عدة روايات نكتفى منها بقوله : « وكانوا بالياقوصة ، فأخبروا أبا عبيدة بوفاة أبى بكر ، وولايته حرب الشام ، وضم عمر الأمراء إليه ، وعزل خالد بن الوليد » .

وقوله : « إن البريد قدم على المسلمين من المدينة بموت أبى بكر ، وتأمير أبى عبيدة وهم باليرموك ، وقد التحم القتال بينهم و بين الروم[١] » .

٢ — وقول ابن الأثير فى أثناء كلامه عن اليرموك : « و إنما جاء (يعنى البريد) بموت أبى بكر وتأمير أبى عبيدة[٢] » .

٣ — وقول معجم البلدان فى صدد كلامه عن اليرموك : « وجاء البريد يومئذ بموت أبى بكر وخلافة عمر ، وتأمير أبى عبيدة على الشام كله وعزل خالد[٣] » .

٤ — ما قاله صاحب السيرة الحلبية من : « أن الصديق رضى الله عنه توفى وهم فى الاستعداد للقتال باليرموك ، ولما ولى سيدنا عمر أرسل البريد بعزل خالد ، وتولية أبى عبيدة بن الجراح على العسكر ، فجاء البريد وقد التحم القتال بين المسلمين والروم[٤] » .

---

(١) راجع الطبرى جـ ٤ ص ٣٨ ، ٤٦ ، ٥٥

(٢) ابن الأثير جـ ٢ ص ٢٨٣

(٣) جـ ٨ ص ٥٠٤

(٤) جـ ٣ ص ١٦٣

(ب) أدلة تاريخية تعتمد على شيء من التدبر ، منها :

١ — كان أول ما بدأ به عمر عزل خالد ، وتولية أبي عبيدة مكانه ، وقد روى البداءة بالعزل جمهرة[١] المؤرخين مما لا يدع مجالا للشك ، وإذا كان العزل أول ما بدأ به عمر ، وكانت اليرموك — كما تقدم — هي فاتحة الوقائع في زمن عمر ؛ فإذن يكون العزل الذي هو أول الأعمال في أول الوقائع أعني اليرموك .

٢ — ذكر اليعقوبي[٢] : « أن عمر كتب لأبي عبيدة بخبر وفاة أبي بكر مع يرفأ مولاه ، وكتب بعقده وولايته الشام مكان خالد بن الوليد مع شداد بن أوس ، وصير خالداً موضع أبي عبيدة ، وقد ذكر أن الموقعة التي تهيأت زمن أبي بكر ، وتمت في عهد عمر هي اليرموك ، فعلى هذا يكون العزل باليرموك » .

٣ — قول ابن الأثير : « وكان أول كتاب كتبه إلى أبي عبيدة بتوليته جند خالد و بعزل خالد . . وأول ما تكلم به عزل خالد وقال : « لا يلي لي عملا أبداً[٣] » .

٤ — كتاب أبي بكر لخالد الذي يأمره فيه بالمسير إلى الشام لإغاثة المسلمين باليرموك الذي يقول فيه : « أن سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك . . . » صريح في أن سير خالد كان لإغاثة المسلمين باليرموك ، واليرموك فاتحة عهد عمر ، والعزل أول ما بدأ به ، فالعزل إذن في اليرموك .

ويبدو لنا أن عمر عزل خالداً أكثر من مرة ، وأن العزل الذي كان والمسلمون على اليرموك عزل عن القيادة ، وجعل خالد خاضعاً لأبي عبيدة الذي عين قائداً عاماً لجيوش المسلمين ، وأميراً للأمراء الذين بالشام ، ولما فتحت قنسرين عين خالد عليها تحت يدي أبي عبيدة ، وما زال عليها حتى غزا غزوته التي أصاب فيها ، وقسم فيها ما أصاب لنفسه ، فعزله عمر . و بيان ذلك : —

---

(١) يراجع الطبري جـ ٤ ص ٥٤ و ٥٦ ، واليعقوبي جـ ٢ ص ١٥٨ ، وابن الأثير جـ ٢ ص ٢٩٣ ، السيرة الحلبية جـ ٣ ص ٢٧٦

(٢) جـ ٢ ص ١٥٨

(٣) جـ ٢ ص ٢٩٣ ، والسيرة الحلبية جـ ٣ ص ٢٧٦

أنه فى السنة السابعة عشرة ، بعد مارجع عمر رضى الله عنه من الشام ، أدرب خالد وعياض بن غنم من الجابية ، وأصابا أموالا عظيمة ، ولما قفل خالد وبلغ الناس ما أصابت تلك الصائفة ؛ انتجعه رجال من أهل الآفاق ؛ فكان الأشعث بن قيس ممن انتجعه بقنسرين ، فأجازه بعشرة آلاف ، وكان عمر لا يخفى عليه شىء فى عمله ، كتب إليه من العراق بخروج من خرج ، ومن الشام بجائزة من أجيز فيها ، فدعا البريد وكتب معه إلى أبى عبيدة أن يقيم خالداً ويعقله بعمامته ، وينزع عنه قلنسوته حتى يعلمهم من أين إجازة الأشعث ؟ أمن ماله أم من إصابة أصابها ؟ فإن زعم أنها من إصابة أصابها فقد أقر بخيانة ، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف واعزله على كل حال ، واضمم إليك عمله ؛ فكتب أبو عبيدة إلى خالد ، فقدم عليه ثم جمع الناس ، وجلس لهم على المنبر فقام البريد فقال : ياخالد أمن مالك أجزت بعشرة آلاف أم من إصابة ؟ فلم يجبه حتى أكثر عليه ، وأبو عبيدة ساكت لايقول شيئًا . فقام بلال إليه فقال : إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا ، ثم تناول قلنسوته فعقله بعمامته وقال : ماتقول ؟ أمن مالك أم من إصابة . قال لا بل من مالى ؛ فأطلقه وأعاد قلنسوته ثم عممه بيده ثم قال : نسمع ونطيع لولاتنا ، ونفخم ونخدم موالينا ، وأقام خالد متحيراً لا يدرى أمعزول أم غير معزول ، وجعل أبو عبيدة لا يخبره حتى إذا طال على عمر أن يقدم ظن الذى قد كان ، فكتب إليه بالإقبال ؛ فأتى خالد أباعبيدة فقال : رحمك الله ما أردت إلى ما صنعت ؟ كتمتنى أمراً كنت أحب أن أعلمه قبل اليوم ، فقال أبوعبيدة : إنى والله ما كنت لأروعك ماوجدت لذلك بُدًّا ، وقد علمت أن ذلك يروعك ؛ فرجع خالد إلى قنسرين ، فخطب أهل عمله وودعهم وتحمل ، ثم أقبل إلى حمص فخطبهم وودعهم ، ثم خرج نحو المدينة حتى قدم على عمر ، وقال : لقد شكوتك إلى المسلمين وبالله إنك فى أمرى غير مجمل يا عمر : فقال عمر : من أين هذا الثرى[1] ؟ قال : من الأنفال والسهمان . ما زاد على الستين ألفًا فلك ؛ فقوم عمر عروضه فخرجت إليه عشرون ألفًا فأدخلها بيت المال . ثم قال له : « ياخالد والله

---

(١) الثرى بالقصر : الخير — القاموس

إنك على لكريم ، و إنك إلى لحبيب ، ولن تعاتبنى بعد اليوم على شىء[١] » ، وكتب عمر إلى الأمصار ليعذره عندهم وليبصرهم : « إنى لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ولكن الناس فتنوا به ، فخفت أن يوكلوا إليه و يبتلوا به فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وألا يكونوا بعرض فتنة » .

ولما قدم خالد على عمر قال عمر متمثلا :

صنعت فلم يصنع كصنعك صانع وما يصنع الأقوام فالله يصنع[٢]

ولم يسر خالد تحت لواء أحد بعد أبى عبيدة ، ورجع إلى حمص وجعلها مقامه واعتزل فيها مرابطاً بها حتى توفى[٣] .

أثر العزل فى نفس عمر

مهما يكن السبب الذى من أجله عزل عمر خالداً ، فإن عمر كان يرى أنه فعل ما يوافق دينه و يرضى ربه ، وما هو الأوفق لمصلحة المسلمين ، و يرى أن عزله إياه وقسوته عليه ، ومشاطرته ماله ، صلاح له وتهذيب لطبائعه وتقويم لها :

تالله لم يتبع فى ابن الوليد هوى ولا شفى غلة فى الصدر يطويها
لم يرع فى طاعة المولى خؤولته ولا رعى غيرها فيما ينافيها[٤]

أثر العزل فى نفس خالد

أما خالد فإن العزل لم يغير من عزمه ، ولم يوهن من قوته ، وحرصه على نصرة الدين ، و إذلال الشرك وأهله ، و إعزاز الإسلام وجنده ، و إذا كانت نفسه لم تخبث ولم تحمل حقداً ولا غلا لعمر ، ولا منعه العزل من أن يطعن فى نحور الأعداء ، و يترامى على الموت فى اللحظة التى بلغه فيها العزل ، فإنه بعد أن هدأت نفسه ، وخف وقع

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٢٠٥ ، وابن عساكر ص ٧١٠ ، السيرة الحلبية ج ٣ ص ٢٧٧
(٢) الطبرى ج ٤ ص ٢٠٦
(٣) ابن عساكر ص ٧١٢ و ٧١٤ ، البلاذرى ص ١٨٠
(٤) عمرية حافظ

العزل عليه أولى بالتضحية والتفانى والرضى عن عمر . ولا أدل على ذلك من حروبه التى شهدها بعد العزل ، وهو جندى وتحت إمرة غيره ، والتى فعل فيها الأعاجيب ، مما أدى إلى اعتراف عمر له بالتفوق الحربى ، والتأهل للإمارة ، فقال : « أمر خالد نفسه . . . » وهو اعتراف يعتبر بحق أحسن مدح لخالد .

أثر العزل فى نفوس الأمراء

لم يكن عزل خالد بالذى يحط من قدره ، أو يحقر من شأنه فى نفوس الأمراء والقواد ، بل مازال بعد العزل كما كان قبله غير مجهول القدر ولا خامل الذكر ، معظماً موقراً من كل الأمراء ، إذا جـد الجد وتواقفت الجنود ورخصت الأرواح ، ظهر خالد وهرع إليه الأمراء ؛ ليستطلعوا رأيه وليأخذوا عنه أحزم الخطط للنيل من العدو ، ولئن تخطاه مركز الإمارة والتولية من الخليفة ، ومظهر ذلك فى الظاهر ، فلم يفته أثرها والغرض منها فى الواقع .

أثر العزل فى نفوس الجند :

أما الجند فكانوا أحرص على القتال تحت لوائه ، سواء منهم من قاتل تحت رايته بالأمس ، ومن لم يقاتل . يتسابقون لطاعته ، ويستميتون للقتال بين يديه ، ويحرصون على أن يكونوا فى كردوسه . يعرفون يمن نقيبته وحسن تدبيره وأصالة رأيه ، ومهارته فى القيادة والتبعئة ، والوصول بهم إلى النصر والفوز .

أثر العزل فى نفوس كبار الصحابة

كان أجلاء الصحابة وكبراؤهم من غير شك يودون أن لو بقى خالد أميراً ، ويرغبون فى أن يظل متمتعاً برضاء الخليفة ، كما كان فى زمن أبى بكر ، فهم يعرفون خالداً وعزماته ، وخبرته بالحروب وأساليبها ، والكثير منهم عجمه جاهلية وإسلاماً ، وبودهم لو يظل سيف الله شاهراً سيف الإمارة مسدداً سهم القيادة فى صدور الأعداء

أثر العزل فى نفوس بنى مخزوم :

لا ريب فى أن بنى مخزوم قد تألموا لعزل خالد ؛ فهو سيدهم وابن سيدهم ، وكانوا يرغبون أن يظل أمير الجيش ، يذعن المسلمون لرأيه فى الحروب ، ويذعن الكفار لسيفه فى المواقع ، ولا أدل على تألمهم مما اعترض به عمرو بن حفص على عمر ، وهو يخطب الناس معتذراً عن عزل خالد ، إذ قال له : « والله ماعدلت ياعمر ؛ لقد نزعت عاملا استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وغمدت سيفاً سله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولقد قطعت الرحم ، وجفوت ابن العم » فقال عمر رضى الله عنه : « إنك قريب القرابة حدث السن غضبت لابن عمك »[1] .

ما آل إليه البغض بينهما :

انتهى هذا البغض الشديد بينهما بمحبة وإخلاص من كليهما ، ورضاء كل عن الآخر ، واعتراف كل منهما بأن الحق فى جانب صاحبه . وهذا يشعرنا بأن البغض بينهما لم يكن لغرض دنيوى أو شخصى ، وإنما هو بغض للدين ولمصلحة المسلمين ؛ فقد ندم عمر على ماصنع مع خالد ، وقال فيه حين مات ولم يوجد له إلا فرسه وسلاحه وغلامه وقد حبسهم فى سبيل الله : « رحم الله أبا سليمان أن كنا لنظنه على غير هذا[2] » ويتجلى لنا ذلك حين قدم خالد المدينة على عمر ، وشكاه للمسلمين فقال : « ياخالد والله إنك على لكريم ، وإنك إلى لحبيب ، ولن تعاتبنى بعد اليوم على شىء . »

ياله من اعتراف وترضية ، تصدر من خليفة المسلمين لكبير قواد المسلمين . لم يكف عمر أن خالداً عليه كريم ، وإليه حبيب بل يَعِده بأنه لن يعاتبه بعد اليوم على شىء .

وإذا أردت أكثر من هذا ، فانظر إليه حين طعن وعرف أنه سيموت ، وقد قيل له لو عهدت ياأمير المؤمنين فقال : « .. ولو أدركت خالد بن الوليد ، ثم وليته ثم

---

(١) أسد الغابة جـ ١ ص ٥٣ ، والسيرة الحلبية جـ ٣ ص ٢٦٤ ، ابن عساكر ص ٧٠٨

(٢) ابن عساكر ص ٧١٤ و ٧١٦ ، أسد الغابة جـ ٢ ص ١٠٤

قدمت على ربى ، فقال لى : من استخلفت على أمة محمد ؟ لقد سمعت عبدك وخليلك يقول : لخالد سيف من سيوف الله سله الله على المشركين [١] » .

عمر فى آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة يتمنى أن لو كان خالد حياً ليوليه الخلافة ، ويرى أنه بذلك يدافع عن نفسه إذا ماسأله مولاه عمن خلف على أمة محمد . وعمر هو الذى قال متمثلا حين قدم عليه خالد :

صنعت فلم يصنع كصنعك صانع وما يصنع الأقوام فالله يصنع

لله أنت يا عمر حين تقول : وقد ذكر خالد وموته : « قد ثلم فى الإسلام ثلمة لا ترتق » . وأنت أنت الذى حزنت وأكثرت من الترحم عليه حين مات ، وقلت فيه : « كان والله سداداً لثغور العدو ميمون النقيبة » . وأنت الذى تتمنى أن لو مد الله فى عمره فتقول : « ليته بقى ما بقى بالحمى حجر » [٢] . وأخيراً تقول : وقد دخل عليك هشام بن البحترى فى ناس من بنى مخزوم ، فطلبت منه أن ينشدك من شعره فى خالد فلما أنشدك رأيت أن هذا الشاعر رغم إجادته لم يوفه حقه ، فقلت له : « قصرت فى الثناء على أبى سليمان رحمه الله ، أن كان ليحب أن يذل الشرك وأهله ، وأن كان الشامت به لمتعرضاً لمقت الله ، وتمثلت بقول أخى بنى تميم :

فقل للذى يبغى خلاف الذى مضى تهيأ لأخرى مثلها فكأن قد

فما عيش من قد عاش بعدى بنافعى ولا موت من قد مات يوماً بمخلد

ثم قلت : « رحم الله أبا سليمان ما عند الله خير له مما كان فيه ، ولقد مات فقيداً وعاش حميداً ، ولكن رأيت الدهر ليس بقابل » [٣] .

وكما ندم عمر على صنيعه مع خالد واعترف بفضله ، كذلك اعترف خالد بأن صنيع عمر معه وتحامله عليه ، وتشدده فى محاسبته ، ما كان يريد به عمر إلا وجه الله ومصلحة المسلمين ، فيحدثنا خالد عن نفسه حين دخل عليه أبو الدرداء ليعوده وهو

---

(١) ابن عساكر ص ٦٩٧ ، الأمامة والسياسة ص ٢٧

(٢) ابن عساكر ص ٧١٤

(٣) ابن عساكر ص ٧١٦

فى مرضه وكان مرابطاً بحمص . «والله ياأبا الدرداء لئن مات عمر لترن أموراً تنكرها» وقال أبو الدرداء : وأنا والله أرى ذلك . قال خالد : قد كنت وجدت عليه فى نفسى فى أمور لما تدبرتها فى مرضى هذا ، وحضرنى من الله حاضر ، عرفت أن عمر كان يريد الله بكل ما فعل : كنت وجدت عليه فى نفسى حين بعث إلى من يقاسمنى مالى ، حتى أخذ فردنعل وأخذت فردنعل ، فرأيته فعل ذلك بغيرى من أهل السابقة[١] ومن شهد بدراً ، وكان يغلظ عَلَىّ وكانت غلظته على غيرى نحوا من غلظته على ، وكنت أدل عليه بقرابة ، فرأيته لا يبالى قريباً ، ولا لوم لائم فى غير الله ، فذلك الذى أذهب ما كنت أجد عليه ، وكان يكثر على عنده ، وما كان ذلك إلا على النظر ، كنت فى حرب ومكابدة ، وكنت شاهداً وكان غائباً ، فكنت أعطى على ذلك فخالفه ذلك من أمرى[٢] . ولقد شرح لنا خالد فى كلامه هذا تصويبه لرأى عمر ، والسر الذى جعله يرضى عنه ، بل وزاد فى رضاه حتى إنه اعتذر عنه ، واعترف بأنه ليس هو الرجل الذى يحابى قريباً لقرابته ، أو يخشى لومة لائم فى غير الله ، وإنه « نعم العون هو على الإسلام »[٣] .

فخالد كان يدرى أن صاحبه قد وجه النفس نحو الله توجيها[٤]

وليس أدل على رضاه وعرفانه بأنه رجل الحق والعدل ، من أنه حينما فارق الدنيا جعل خاتمة علاقته به ، أن جعل وصيته إليه بعد موته : « وقد جعلت وصيتى وتركتى وإنفاذ عهدى إلى عمر بن الخطاب »[٥] ، وتولى عمر تنفيذ وصيته ثم تزوج امرأته .

لذاك أوصى بأولاد له عمرا لما دعاه إلى الفردوس داعيها[٦]

---

(١) وقد شاطر عمر سعد بن أبى وقاص ، وأبا موسى الأشعرى ، وأبا هريرة ، وعمرو بن العاص مالهم — العقد الفريد ج ١ ص ١٥ ، ١٦ المطبعة الأزهرية

(٢) ابن عساكر ص ٧١٢

(٣) ابن عساكر ص ٧١٢

(٤) عمرية حافظ

(٥) ابن عساكر ص ٧١٢ ، الاستيعاب ج ١ ص ١٥٧ ، ابن الأثير ج ٢ ص ١٠٤ ، الإصابة ج ١ ص ١٠٠ ، أسد الغابة ج ٢ ص ١٠٤

(٦) عمرية حافظ

وسمع عمر راجزاً يذكر خالداً فقال : رحم الله خالداً ! فقال له طلحة بن عبيد الله :

لأعرفنك بعد الموت تندبنى وفى حياتى ما زودتنى زادى

فقال عمر : إنى ماعتبت على خالد إلا فى تقدمه ، وما كان يصنع فى المال[1] .

ولعمرى إن رضاء كل من الرجلين عن الآخر وتقدير كل منهما صاحبه لمن المثل العليا لحب الحق والإنصاف والعدالة ؛ فهكذا يكون أهل الإسلام ، وهكذا تكون أخلاق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فرضى الله تعالى عن عمر وخالد ، وجزاهما عن الإسلام خير الجزاء .

* * *

وإذ انتهينا من أعماله وفتوحه والكلام عليه من الناحية الحربية ، فيحسن أن نقول كلمة عنه من الناحية الدينية :

الناحية الدينية

كان خالد منذ إسلامه حريصاً على أن يعز الإسلام ، وأن يذل الشرك ، وهب نفسه فى سبيل الله ، وفى إعزاز الدين ، ونصرة المسلمين ، كذلك كان يحرص على تعلم الدين ، وتعرف الحلال والحرام ؛ فقد روى ابن عباس عن خالد : أنه دخل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت ميمونة ، فأتى بضب محنوذ ، فأهوى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يأكل منه ، فقالوا : يارسول الله هو ضب ، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده ، فقلت : أحرام ؟ قال : لا ، ولكنه لم يكن بأرض قومى فأجدنى أعافه . قال خالد : فاجتززته فأكلته ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر »[2]

وهو إلى جانب ذلك أمين فى دينه ، موثوق به من الرسول صلى الله عليه وسلم

---

(١) الإصابة جـ ٢ ص ٤١٥ ، ابن عساكر ص ٧١٣

(٢) ابن عساكر ص ٦٨٧ ، أسد الغابة جـ ٢ ص ١٠٣

حتى إنه كان فى بعض الأحيان يكتب له الوحى ، غير أن تأخره فى إسلامه واشتغاله بالحروب والجهاد عاقه عن التفرُّغ للنظر والبحث فى الدين والتبحر فيه ، وحفظ الكثير من الحديث الشريف والقرآن الكريم . روى ابن عساكر[١] : « أن خالد بن الوليد أَمَّ الناس بالحيرة فقرأ من سورشتى ، ثم التفت إلى الناس حين انصرف ، فقال : شغلنى عن تعليم القرآن الجهاد » . ويقول ابن حجر فى الأصابة : « لقد شغلنى الجهاد عن تعليم كثير من القرآن[٢] » .

على أن حروبه المتوالية لم تمنعه من رواية الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد ذكر فى الخلاصة : أنه روى له ثمانية عشر حديثاً اتفق البخارى ومسلم على واحد ، وانفرد البخارى بحديث موقوف عليه ، وذكر ابن حجر فى كتابيه (الأصابة) و (تهذيب التهذيب) : أن ممن روى عنه ابن عباس ، وجابر بن عبدالله ، والمقدام بن معديكرب ، وقيس بن أبى حازم ، والأشتر النخعى ، وعلقمة بن قيس ، وجبير وأبو العالية وغيرهم[٣] .

أما فقهه فقد روى المؤرخون أن خالداً دخل الحمام فتدلك بعد النورة بشخين عصفر معجون بخمر ، فبلغ ذلك عمر فكتب إليه : « بلغنى أنك تدلكت بخمر ، وإن الله قد حرم ظاهر الخمر وباطنها ، كما حرم ظاهر الإثم وباطنه ، وقد حرم مس الخمر ، إلا أن تغسل كما حرم شربها ، فلا تمسوها أجسادكم ، فإنها نجس ، وإن فعلتم فلا تعودوا » . فكتب إليه خالد : « إنا قتلناها فعادت غسولا[٤] غير خمر . . . » وقال فى ذلك خالد مخاطباً عمر :

مهل أبا حفص فإن لدينا ... شرائع لا يشقى بهن المسهل
أنجست بالخمر الغسول ولا نرى ... من الخمر تثقيف المحيل المحلل

---

(١) ص ٢٠٢ ، وفى رواية أخرى له : « قال خالد بن الوليد : لقد منعنى كثيراً من القراءة الجهاد فى سبيل الله »

(٢) الإصابة جـ ١ ص ٤١٤

(٣) وذكر قريبا من ذلك ابن الأثير فى أسد الغابة جـ ٢ ص ١٠٣ .

(٤) أى ماء يغتسل به .

وهل يشبهن طعم الغسول وذوقه حميا الخمور ، والخمور تسلسل[1]

فمراجعته لعمر ، وتفرقته بين الخمر وهى فى شدتها وتخمرها ، و بينها بعد أن زالت عنها هذه الصفة ، وصارت غسولا غير خمر ، تبين أنه كان ذا نظر وفقه فى الدين ، و إن كان لم يبلغ فى ذلك ما بلغه ابن عباس أو ابن مسعود ، أو غيرهما من الحفاظ وأهل الفقه . وليس أدل على أنه كان صاحب فقه ونظر ، من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أرسله إلى بنى الحارث بن كعب بنجران يدعوهم إلى الإسلام ، حتى إذا ما أجابوه أقام فيهم يعلمهم شرائع الإسلام و يفقههم فى الدين ، ولا يمكن أن يرسل النبى صلى الله عليه وسلم رجلا ينوب عنه فى إرشاد الناس ، وتبصرتهم بأمور دينهم إلا أن يكون أهلا لهذا المركز العظيم .

وقد يكون من الحسن أن نختم بحثنا فى خالد بذكر شىء عن صفته وأخلاقه مستمدين ما سنذكره مما سبق من سيرته :

صفته وأخلاقه :

نصدر كلامنا فى ذلك بذكر بعض أقوال مأثورة قالها فيه عظماء الرجال الذين شاهدوه وخبروه فقدروه ؛ إذ أن أقوال أولئك العظماء أصدق صورة توضح لنا أخلاقه ظاهرة جلية تتفق والواقع ؛ فهم الذين عاصروه ، وعن علم يقولون ، فقولهم فيه أصدق حكم عليه ، وعلى ما نال من شهرة وعظمة خالدة ؛ فهو حكم لا مرية فيه ولا تخمين :

فيقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تؤذوا خالداً فإنه سيف من سيوف الله صبه الله على الكفار » .

ويقول فيه أيضاً : « نعم عبد الله وأخو العشيرة ، وسيف من سيوف الله سله الله على الكفار والمنافقين[2] » .

---

(١) الطبرى جـ ٤ ص ٢٠٤ ، ابن عساكر ص ٧٠٩ .

(٢) الطبرى جـ ٣ ص ٣٠٩ ، جـ ٤ ص ٣٥ ، الاستيعاب جـ ١ ص ١٥٨ ، ابن عساكر ص ٦٩٩ ، شرح العينى للبخارى جـ ١٦ ص ٢٤٥ ، السيرة الحلبية جـ ٣ ص ٢٧٦ ، صفة الصفوة لابن الجوزى جـ ١ ص ٢٦٩ .

وقال فيه أبو بكر : حين بلغه ما صنع بالفرس فى موقعتى أليس وأمغيشيا « يا معشر قريش . . . . عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله ، أعجزت النساء أن ينشئن مثل خالد[١] » .

وقال فيه : « والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » .

وقال فيه أيضاً حين ألح عليه عمر فى عزله : « لا أشيم سيفا سله الله على الكفار[٢] » .

وقال فيه أيضاً : « وددت أنى حيث وجهت خالداً إلى الشام ، وجهت عمر ابن الخطاب إلى العراق ، فأكون قد بسطت يمينى وشمالى جميعاً فى سبيل الله[٣] » .

وقال فيه عمر حينما فتح قنسرين : « أمر خالد نفسه ، رحم الله أبا بكر ، هو كان أعلم بالرجال منى[٤] » .

وقال فيه أيضاً حين بلغه موته : « قد ثلم فى الإسلام ثلمة لا ترتق » .

وقال فيه حين بلغه موته أيضاً : « كان والله سداداً لنحور العدو ميمون النقيبة[٥] » .

ويقول فيه عمرو بن العاص : حينما سأله أبو بكر عن رأيه فيه « يسوس الحرب ، نصير الموت ، له أناة القطاة ، ووثوب الأسد[٦] » .

وقال فيه أكيدر ملك دومة : « لا أحد أيمن طائراً منه ولا أحد فى حرب ، ولا يرى وجه خالد قوم أبدا قلوا أو كثروا إلا انهزموا[٧] » .

ويقول فيه المارشال الألمانى غولتس باشا : إنه أستاذى الأكبر فى فن الحرب .

ويقول لنا خالد عن نفسه : « ما كان رسول الله يوم أسلمت يعدل بى أحداً من أصحابه فيما حزبه[٨] » .

---

(١) السيرة الحلبية جـ ٣ ص ٢٧٦ ، الطبرى جـ ٤ ص ١١ .
(٢) الطبرى جـ ٤ ص ٣٠ ، ٤٠ .
(٣) فتوح البلدان للبلاذرى ص ١١٠ .
(٤) الطبرى جـ ٤ ص ١٥٥ ، ابن الأثير جـ ٢ ص ٣٤٤ .
(٥) ابن عساكر ص ٧١٤ .
(٦) اليعقوبى جـ ٢ ص ١٤٤ .
(٧) الطبرى جـ ٤ ص ٢٢ .
(٨) ابن عساكر ص ٦٩١ ، السيرة الحلبية جـ ٣ ص ٨٨ .

وفى ضوء تلك الأقوال المأثورة التى تنطق عن صفة خالد ، وتصور لنا أخلاقه ومواهبه تصويراً صحيحاً ، نتقدم نحن لبيان أخلاقه ، وإن شئت فقل لبسط هذه الأقوال وإيضاحها ، وقد سبق أن كتبنا كلمة فى الباب الأول تبين السر فى مهارته فى الحروب وفوقه فيها . وسنتكلم الآن عليه من النواحى الآتية : —

١ — سياسته فى الحروب وخبرته بفنون القتال :

كان رحمه الله ميمون النقيبة ، موفقاً للنصر مثال القائد الحازم ، عارفاً بأصول الحرب وأساليبها ، يعرف موضع الكر والفر ، حائزاً لصفات الجندى الكريم ، له فى الحرب رأى الشيخ وجلد الشاب ، وأناة القطاة ، ووثوب الأسد ، ينتهز الفرصة ويذكى العيون ، ويحتفظ من البيات لا يفتح بلداً أو يجوزها إلى غيرها حتى يترك فيها حامية ، ويأمن من أن يؤتى من ظهره ، أحكم معرفة الحروب بطول تجربته ، وكثرة ملاقاته للكتائب ومقاساة الجيوش ، وحصار الحصون ، حريصاً على الموت فى صفوف القتال[1] لا ينام ولا ينيم ، ولا يخفى عليه شىء من أمر عدوه . يرى عدوه منه نجوم الليل والشمس حية ، ولا يرى وجهه قوم قلوا أو كثروا إلا انهزموا ، وكان يقول : « ما أدرى من أى يومى أفر ؟ من يوم أراد الله عز وجل أن يهدى لى فيه شهادة ، أو من يوم أراد الله عز وجل أن يهدى لى فيه كرامة[2] » .

سياسته لجنده وحبه لهم :

كان خالد شديد الحب لجنده ينصفهم من نفسه ، ويعرف لهم حقهم وينزلهم منازلهم ، يقودهم إلى حيث النصر ، ولا يوردهم موارد الهلكة ، سخيا فى الأنفال والأعطيات لهم . كان لا يدع فرصة تمر دون أن يستفيد منها لتشجيع جنده

---

(١) عملا بوصية أبى بكر له التى يقول فيها : « احرص على الموت توهب لك الحياة » راجع عيون الأخبار ج ١ ص ١٢٥ ، العقد الفريد ج ١ ص ٣١ ، وفى هذا المعنى يقول صاحب العقد الفريد : « وكم من منية علتها طلب الحياة ، وحياة سببها التعرض للموت » ج ١ ص ٣١ .

(٢) صفة الصفوة لابن الجوزى ج ١ ص ٢٧٠ .

وتذميرهم للقتال ؛ فتراه مرة يضرب المثل بنفسه حين يهتصر قواد عدوه ، وآونة يهيجهم بما يحمسهم حين يمر بين الصفوف فيقول : « يأهل الإسلام إن الصبر عز وإن الفشل عجز وإن النصر مع الصبر » . وتارة يجعلهم يترامون على الموت ، ويستحيون من الفرار حين يميز بينهم . كانت صفاته هذه ومعاملته لجنده مدعاة لحبهم له وتهافتهم للانضواء تحت لوائه . هذا إلى أنهم يعتقدون يمن نقيبته وطول دربته فى الحروب . ولقد بلغ من اعتقادهم فى توفيقه وإلهامه الصواب أنه حينما أراد الذهاب إلى الشام مُفَوِّزا بهم خطبهم مرغباً لهم فى التفويز — وهو من غير شك مخاطرة ومهالك — فكان جوابهم أن قالوا : « أنت رجل قد جمع الله لك الخير فشأنك » .

وكان لهذا الاعتقاد من الجند فيه وتسليمهم له ، وترامهم على الموت تحت لوائه أثر كبير فى انتصاره ، كما أنه كان من الأسباب التى حملت عمر على عزله . هذا ولقد كان لأهل السابقة والفضل فى الإسلام عنده منزلة خاصة ، فكان يجلهم ويعظمهم ، ويعرف لهم فضلهم فى الإسلام ، ويعتقد أن النصر يواتيه بسببهم ، يدل إلى ذلك ما حصل منه فى موقعة مؤتة فقد أبى أخذ اللواء من ذلك الصحابى الذى قال : « خذه فأنت أعلم بالقتال منى » . فقال له : « لا آخـــذه فأنت أحق به منى لأنك ممن شهد بدرا » ، وما كان منه حين عزم عليه أبو بكر بالمسير إلى الشام لنجدة جيوش المسلمين باليرموك فقد استأثر بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعلهم فى جنده .

حبه للغزو والجهاد :

كان رحمه الله سداداً لنحور العدو ، يحب أن يذل الشرك وأهله ؛ فتراه من يوم أن أسلم قد وهب نفسه وماله وراحته فى سبيل الله ، وكان الجهاد أحب شىء إلى نفسه ، ومقاتلة العدو كل همه فى الدنيا ، ولقد أثر عنه أنه قال : « ما كان فى الأرض من ليلة أحب إلى من ليلة شديدة الجليد فى سرية من المهاجرين أصبح بهم العدو فعليكم بالجهاد » ، وما كان لمثله أن يموت إلا تحت ظلال السيوف ، وأسنة الرماح ،

ولقد بلغ به الحزن ونال منه الألم ، وبكى واستعبر حينما عرف أنه سيموت على فراشه ، فقال متحسراً أن حرم الشهادة : « لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها ، وما فى بدنى موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف ، أو رمية بسهم ، أو طعنة برمح ، وها أنا ذا أموت على فراشى حتف أنفى كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء وما من عمل أرجى من لا إله إلا الله وأنا متترس بها [١] » وفى رواية : لما حضرته الوفاة قال : « لقد طلبت القتل فى مظانه فلم يقدر لى إلا أن أموت على فراشى وما من عملى شىء أرجى عندى بعد أن لا إله إلا الله من ليلة بتُّها وأنا متترس والسماء تهلنى تمطر إلى صبح حتى نغير على الكفار [٢] .

بيت خالد

كان لخالد بن الوليد أكثر من زوجة أنجب منهن أكثر من واحد ، ومن أشهرهن أسماء بنت أسد (وقيل أنس) بن مدرك الخثعمى ، وهى أم أولاده المهاجر وعبد الله وعبد الرحمن [٣] .

وكان له من الولد سليمان وبه يكنى وعبدالله [٤] الذى قتل بالعراق ، وعبدالرحمن والمهاجر وكانا غلامين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما وقعت الفتنة بين على ومعاوية انضم عبد الرحمن إلى معاوية وتشيع المهاجر لعلى . ويذكر بعض الرواة أن المهاجر هذا قتل بصفين [٥] .

وكان عبد الرحمن من فرسان العرب ومن أهل النجدة والغناء والكرم والهَدْى « ومن يشابه أباه فما ظلم » .. وكان فى زمن عثمان رضى الله عنه والياً على حمص

---

(١) أسد الغابة جـ ٢ ص ١٠٤ ، المعارف لابن قتيبة ص ٩٠ ، العقد الفريد جـ ١ ص ٤٣ ، صفة الصفوه لابن الجوزى جـ ١ ص ٢٧٠ .

(٢) الإصابة جـ ٢ ص ٤١٤ .

(٣) أسد الغابة جـ ٣ ص ٢٨٩ ، الأصابة جـ ٨ ص ٦ .

(٤) أنساب القرشيين جـ ٢ ص ٤٣٢ .

(٥) أنساب القرشيين جـ ٢ ص ٢٤٠ .

تحت إمرة معاوية ، ولما قدم المشاغبون لعثمان من أهل البصرة على معاوية ثم خرجوا عنه ، ومالوا إلى الجزيرة ، سمع بهم عبدالرحمن بن خالد ، فطلبهم وقال لهم : « يا أنة الشيطان لا مرحباً بكم ولا أهلا ، قد رجع الشيطان محسوراً ، وأنتم بعد نشاط خسر الله عبد الله إن لم يؤدبكم حتى يحسركم ، يا معشر من لا أدرى أعرب أم عجم ؟ لا تقولوا لى ما يبلغنى أنكم تقولون لمعاوية ، أنا ابن خالد بن الوليد أنا ابن من عجمته العاجمات ، أنا ابن فاقىء الردة ، والله لئن بلغنى ياصعصعة بن ذل أن أحداً ممن معى دق أنفك ثم أمصك لأطيرن بك طيرة بعيدة المهوى .. يا ابن الخطيئة ، أعلمت أن من لم يصلحه الخير أصلحه الشر . مالك لا تقول ما كان يبلغنى أنك تقول لسعيد ومعاوية . فيقول ويقولون : نتوب إلى الله أقلنا أقالك الله » .

ولقد عظم شأنه فى الشام ومال إليه أهلها لما كان عندهم من آثار أبيه خالد بن الوليد ولغنائه عن المسلمين ، وشدة بأسه ، حتى خافه معاوية ، وخشى على نفسه منه لميل الناس إليه ، فإنه حينما أراد البيعة لابنه يزيد خطب الناس فقال : « قد كبرت سنى وقرب أجلى وأردت أن أعقد لرجل يكون نظامكم فاختاروا لأنفسكم ، فإنما أنا رجل منكم » فاجتمعوا وقالوا رضينا عبد الرحمن بن خالد ؛ فشق ذلك على معاوية ودبر له أمر موته ؛ فأمر ابن أثّال أن يحتال فى قتله ، وضمن له إن هو فعل ذلك أن يضع عنه خراجه ما عاش وأن يوليه جباية خراج حمص ، فلما قدم عبد الرحمن حمص منصرفاً من الروم دس له ابن أثال شربة مسمومة مع بعض مماليكه فمات بحمص . وثأر له من هذا اليهودى ابنه خالد بن عبد الرحمن وقال فى ذلك :

أنا ابن سيف الله فاعرفونى لم يبق إلا حسبى ودينى
وصارم أصابه يمينى[1]

أو خالد ابن أخيه المهاجر على خلاف فى ذلك . وقال ابن المهاجر حين ثأر لعمه من اليهودى[2] .

---

(٢) ابن عساكر ص ٦٦٢ .
(٣) ابن عساكر ص ٦٦٢ ، ٦٨٣ ، أسد الغابة جـ ٤ ص٤٢٣ ، أبو الفداء جـ١ ص١٨٦

قضى لابن سيف الله بالحق سيفه وعرى من حمل الدخول رواحله
فإن كان حقاً فهو حق أصابه وإن كان ظناً فهو بالظن فاعله

وحين مات عبد الرحمن بن خالد رثاه كعب بن جعيل بقوله :

ألا تبكى وما ظلمت قريش بأعوال البكاء على فتاها
ولو سئلت دمشق وبعلبك وحمص من أباح لكم حماها
فسيف الله أدخلها المنايا وهدم حصنها ؛ وحوى قراها
وأنزلها معاوية بن صخر وكانت أرضه أرضاً سواها[١]

وكان لخالد بن الوليد من الولد عدا من ذكرنا كثير غيرهم . يقول ابن قتيبة[٢] : « وكان له بالشام من الولد عدد كثير فقتل الطاعون منهم أربعين رجلا فبادوا » . وقد انقرض ولده فلم يبق منهم أحد ، وورث أيوب بن سلمة بن عبد الله[٣] (الوليد) ابن الوليد بن الوليد بن المغيرة دورهم . قال ابن عساكر وصاحب أسد الغابة[٤] : « وقد انقرض ولد خالد بن الوليد فلم يبق منهم أحد وورث أيوب بن سلمة دورهم بالمدينة » . وقال صاحب نهاية الأرب[٥] : « وقد انقرض ولد خالد بن الوليد فلم يبق منهم أحد شرقاً ولا غروبا وأن من انتمى إليهم فهو مبطل فى انتمائه ، وكل من ادعى إليه فقد كذب » . وقال فى صبح الأعشى : « وقد أجمع أهل العلم بالنسب على انقراض عقبه . فما ذكره الحمدانى ومن وافقه من « أن من بنى مخزوم جماعة تعرف بخالد حمص وخالد الحجاز ، ومنهم جماعة بصعيد مصر بالأشمونين وفيهم بأس وشدة كلام لا يعتد به ، ولعلهم من سواه من بنى مخزوم ، فهم أكثر قريش بقية وأشرفهم جاهلية[٦] » » .

---

(١) أسد الغابة جـ ٣ ص ٢٨٩ .
(٢) المعارف ص ٩٠ .
(٣) كان اسمه الوليد فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله وقال فى ذلك : لقد كادت بنو المغيرة أن تجعل الوليد ربا . من أنساب القرشيين جـ ٢ ص ٣٤٤ ، الاستيعاب جـ ١ ص ٣٩٩
(٤) أسد الغابة جـ ٢ ص ١٠٤ ، ابن عساكر المجلد الثالث ص ٦٨٥ .
(٥) نهاية الأرب جـ ٢ ص ٣٥٦ .
(٦) جـ ١ ص ٣٥٥ .

وفاته :

لم تتفق كلمة المؤرخين فى تعيين المكان الذى توفى فيه خالد ، كما لم تتفق على سنة وفاته ، على أن الاختلاف فى سنة الوفاة يكاد لا يكون اختلافاً . وسنعرض بعض الروايات فى ذلك لنختار منها ما نراه الأرجح .

١ — قال ابن قتيبة . « ومات بحمص سنة إحدى وعشرين »(١)

٢ — وذكر الطبرى نقلا عن الواقدى أنه مات بحمص سنة ٢١(٢) .

٣ — وقال ابن عساكر : « وقبره بحمص ، فأخبرنى من غسله وحضره ونظر إلى ما تحت ثيابه ما فيه مصبح »(٣)

٤ — وقال أيضاً : « فاعتزل خالد إلى ثغر حمص ؛ فكان فيه وحبس خيلا وسلاحا ، فلم يزل مقيما مرابطاً بحمص حتى نزل به(٤) »

٥ — ويقول أيضاً : « قدم خالد بن الوليد بعد أن عزله عمر بن الخطاب معتمراً فمر بالمدينة فلقى عمر ، ثم رجع إلى الشام فانقطع إلى حمص ، فلم يزل بها حتى توفى بها سنة إحدى وعشرين »(٥) .

٦ — وقال البلاذرى : « ويقال أن خالداً لم يسر تحت لواء أحد بعد أبى عبيدة ولزم حمص حتى توفى بها سنة ٢١ وأوصى إلى عمر ، وبعضهم يزعم أنه مات بالمدينة وموته بحمص أثبت(٦)

٧ — وقال فى أسد الغابة : وتوفى بحمص من الشام ، وقيل بل توفى بالمدينة سنة إحدى وعشرين(٧) .

٨ — ويقول ابن حجر فى تهذيب التهذيب : « قال محمد بن سعد وابن نمير ، وغير واحد مات بحمص سنة ٢١ ، وقال دحيم وغيره : مات بالمدينة وقيل : مات سنة ٢٢

---

(١) المعارف ص ٩٠ .
(٢) راجع الطبرى جـ ٤ فى حوادث سنة ٢١ .
(٣) ص ٦٩٥ .
(٤) ص ٧١٢ .
(٥) ص ٧١٤ وراجعه أيضاً ص ٦٨٧ .
(٦) فتوح البلدان ص ١٨٠ .
(٧) جـ ٢ ص ١٠٤ .

٩ — ويقول فى الإصابة [١] : « مات خالد بن الوليد بمدينة حمص سنة ٢١ وقيل توفى بالمدينة النبوية . . . . ولكن الأكثر على أنه مات بحمص » .

١٠ — وقال البدر العينى [٢] : ومات على فراشه بحمص ، وقيل بالمدينة والأول أصح سنة إحدى وعشرين .

١١ — ويقول صاحب معجم البلدان : «وحمص بها دار خالد بن الوليد وقبره وقبر زوجته وقبر ابنه عبد الرحمن » [٣]

١٢ — وذكر مثل ذلك فى تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى وصفة الصفوة لابن الجوزى وكثير غيرهما .

هذه بعض روايات المؤرخين وإذا نحن عرضناها أمامنا تبين لنا أنه مات بحمص سنة إحدى وعشرين هجرية (٦٤٢ م) ؛ لأن من هذه الروايات من لم يذكر موته بالمدينة أصلا ، كما لم يتعرض لموته سنة ٢٢ ، ومن ذكر ذلك إنما ذكره بصيغة تشعر بالضعف .

وكانت سنه حين توفى ستين سنة ، كما قال صاحب شذرات الذهب .

ولما توفى اجتمعت نساء بنى المغيرة فى دار خالد يبكين عليه ، حتى إنه قيل لم تبق امرأة من بنى المغيرة إلا وضعت لمتها على قبره (يعنى حلقت رأسها) . ولما بلغ عمر ذلك قال : « ما عليهن أن يبكين أبا سليمان ما لم يكن نقع أو لقلقة [٤] » .

وما نهى عمر فى يوم مصرعه نساء مخزوم أن تبكى بواكيها [٥]

رحمك الله أبا سليمان فقد أصيب الإسلام بوفاتك ، وثلم فيه ثلمة لا ترتق ، وليتك بقيت ما بقى بالحمى حجر ؛ فقد كنت تحب أن يذل الشرك وأهله ، ولقد عشت سعيداً ومت حميداً وما عند الله خير لك وأبقى ؟

---

(١) جـ ١ ص ١٠٠ .

(٢) شرح البخارى للعينى جـ ١٦ ص ٢٤٥ .

(٣) وعند قبر خالد قبر عياض بن غنم جـ ٣ ص ٣٤٠ .

(٤) « النقع رفع الصوت ، وقيل أراد شق الجيوب ، واللقلقة الجلبة كأنه حكاية الأصوات إذا كثرت واللقلق اللسان » . من أسد الغابة جـ ٢ ص ١٠٤ — وقريب منه فى صفة الصفوة لابن الجوزى جـ ١ ص ٢٧٠ .

منظر خارجي لمسجد سيدنا خالد بن الوليد بحمص

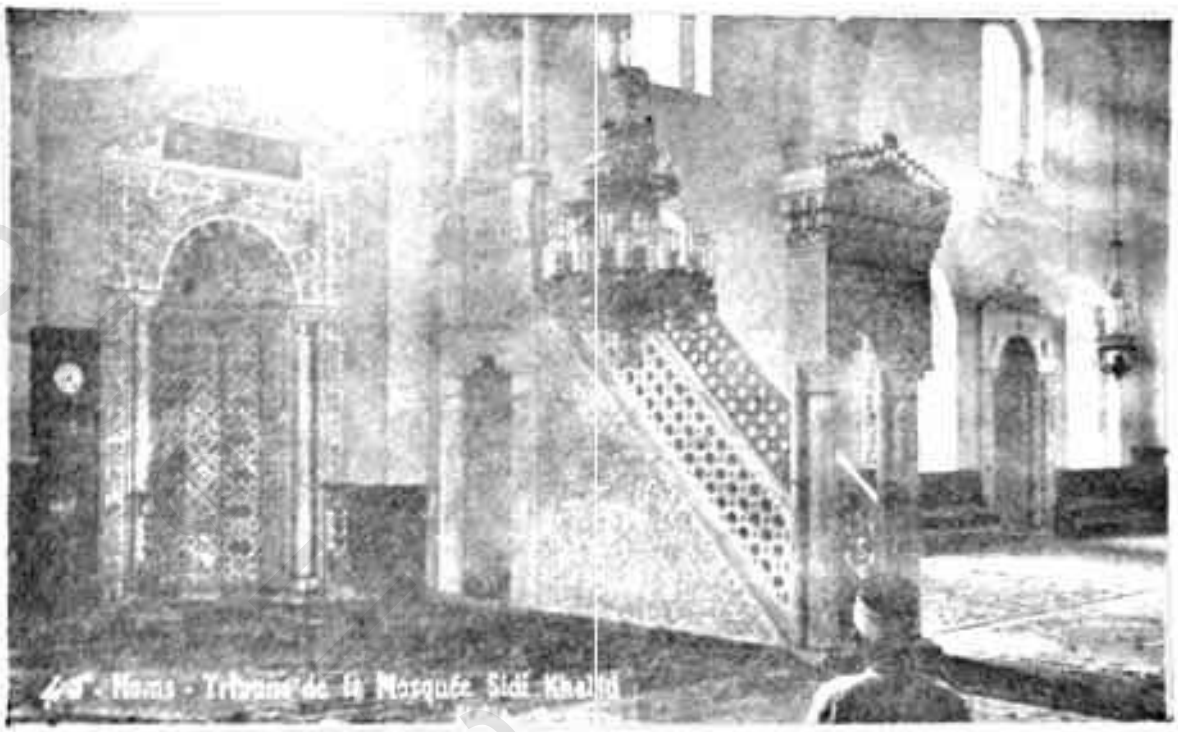

منظر داخلي لجامع سيدنا خالد ومنه يرى المنبر والمحراب

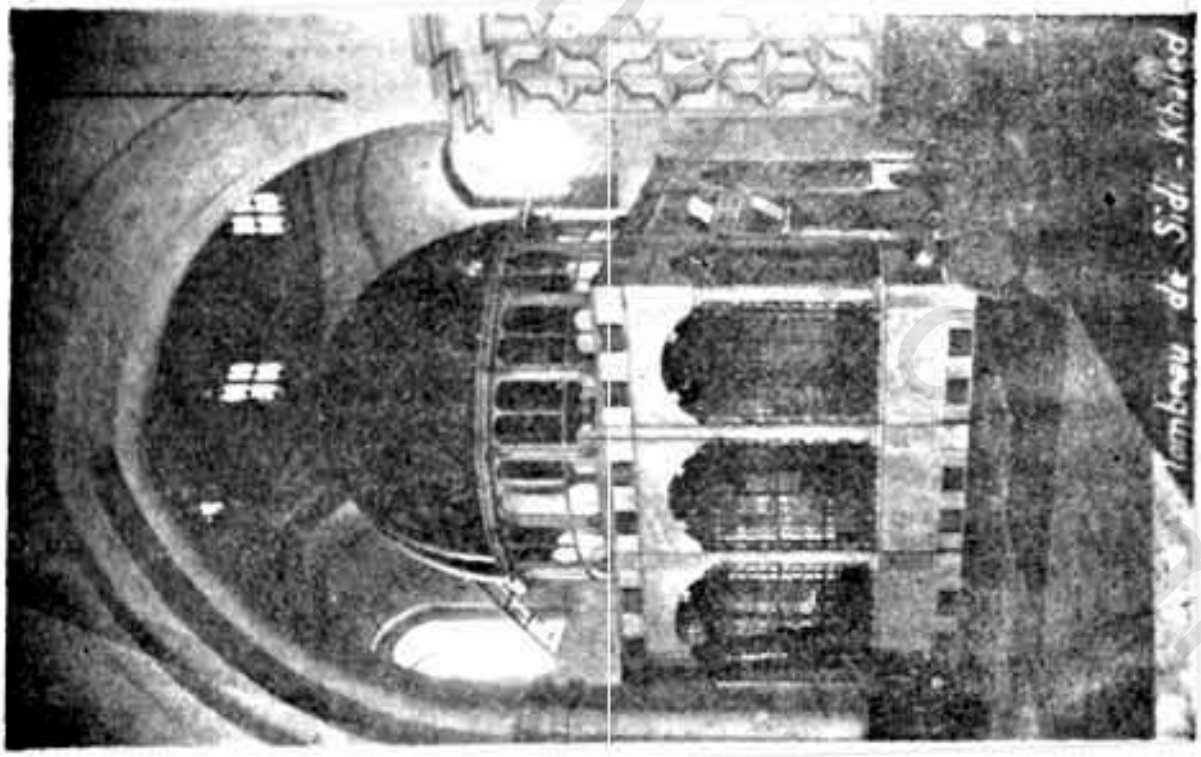

منظر داخلي لمقام سيدنا خالد ومنه يرى باب المقام

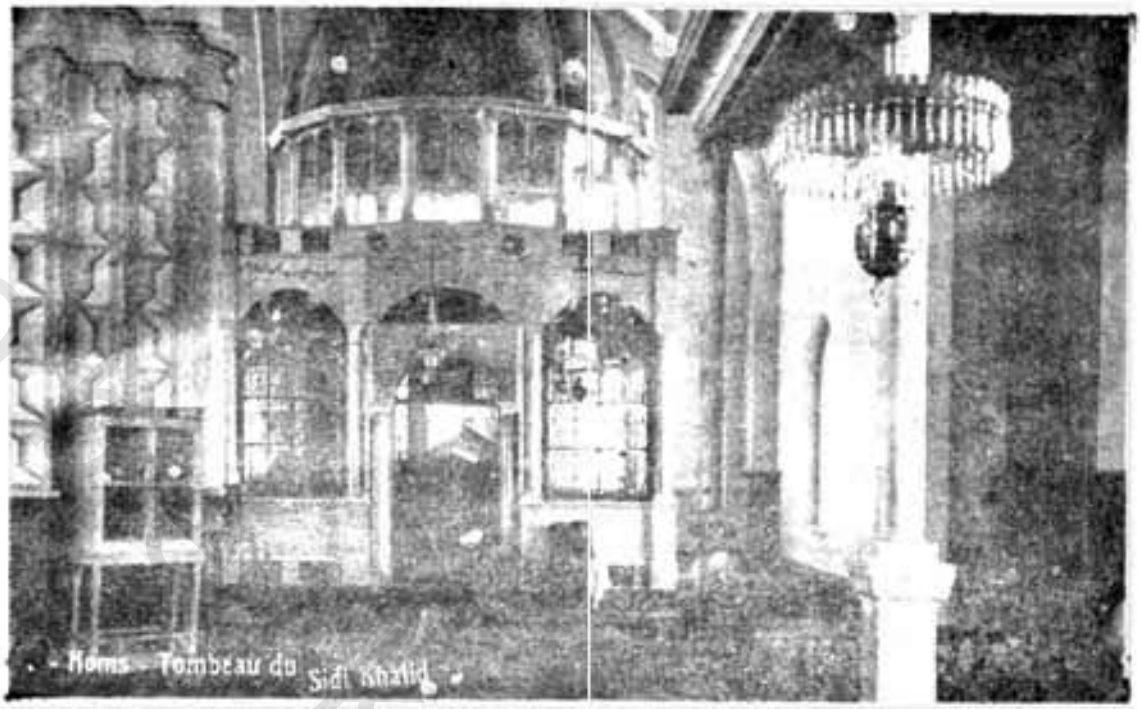

المنظر الخارجى لمقام سيدنا خالد

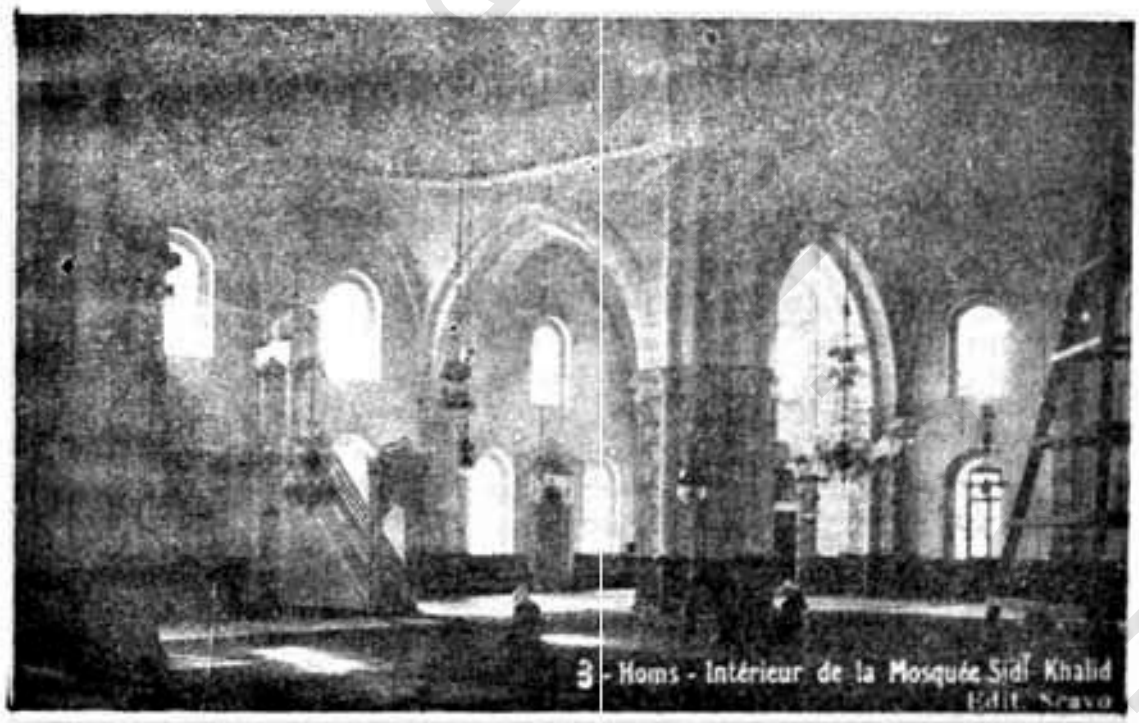

منظر داخلى لجامع سيدنا خالد

جميع المناظر الخاصة بجامع سيدى خالد أهداها إلينا حضرة الفاضل السيد عبد السلام السباعى الكتبى بحمص فجزاه الله عن سيف الله وعنا خير الجزاء

مصادر الكتاب

	اسم الكتاب	اسم المؤلف	تاريخ وفاة المؤلف
١	المغازى	للواقدى	٢٠٧
٢	فتوح الشام	»	»
٣	السيرة النبوية	لابن هشام	٢١٣
٤	الطبقات الكبرى	لابن سعد	٢٣٠
٥	المعارف	لابن قتيبة	٢٧٠
٦	فتوح البلدان	للبلاذرى	٢٧٩
٧	أنساب الأشراف	»	»
٨	تاريخ اليعقوبى	لأحمد بن يعقوب	٢٨٢
٩	تاريخ الأمم والملوك	للطبرى	٣١٠
١٠	جامع البيان فى تفسير القرآن	»	»
١١	العقد الفريد	للقرطبى	٣٢٨
١٢	الأغانى	للاصفهانى	٣٥٦
١٣	أنساب القرشيين	المقدسى	٣٨٧
١٤	الاستيعاب	لابن عبد البر	٤٦٣
١٥	تاريخ مدينة دمشق	لابن عساكر	٥٧١
١٦	معجم البلدان	لياقوت الحموى	٦٢٦
١٧	الكامل	لابن الأثير	٦٣٠
١٨	أسد الغابة	»	»
١٩	المختصر فى أخبار البشر	لأبى الفدا	٧٣٢
٢٠	البداية والنهاية	لعماد الدين اسماعيل بن كثير	٧٧٤
٢١	الأصابة	لابن حجر العسقلانى	٨٥٢
٢٢	تهذيب التهذيب	» » »	»
٢٣	شرح البخارى	للعينى	٨٥٥
٢٤	الخميس فى أحوال أنفس نفيس	للديار بكرى	٩٦٦
٢٥	السيرة الحلبية	لابن برهان الدين الحلبى	١٠٤٤

هذه هى أهم المصادر التى استقينا منها ، وهناك كثير من المراجع استفدنا منها ، ولكن دون استفادتنا من المصادر التى ذكرناها ، مثل : خزانة الأدب ، طبقات الشعراء ، صبح الأعشى ... على أنه لم يفتنا أن نطلع على بعض ما كتبه المستشرقون المنصفون ، وفى الحق إن كتاباتهم لجديرة بالعناية والتقدير ، وإن كان يشوبها هنات لا بد منها لعلماء غربيين مسيحيين يكتبون عن التاريخ الإسلامى .

obeikandi.com

فهرس الكتاب

الموضـوع	صفحة
تقديم الطبعة الثالثة بقلم الدكتور محمد يوسف موسى	٥
مقدمة الطبعة الثانية	١٠
مقدمة الطبعة الأولى	١١
تصـدير	١٣

الباب الأول

خالد بن الوليد قبل الإسلام ، نسبه « انظر شكل ١ ، ٢ بصفحة ١٨ و ١٩ »	١٧
ولادته	٢٠
بيئة خالد التي عاش فيها : بيئته الطبيعية	٢١
بيئته الاجتماعية ، مركز مكة الديني	٢٢
أثر البيئة التجارية ، مركز مكة الأدبي والأخلاق	٢٣
أثر البيئة الأدبية ، مركز مكة السياسي	٢٤
أثر البيئة السياسية	٢٥
قبيلة خالد « انظر شكل رقم ٣ صفحة ٣٠ »	٢٦
عمومة خالد « انظر شكل رقم ٤ صفحة ٣٣ »	٣١
إخوة خالد « انظر شكل رقم ٥ صفحة ٣٧ »	٣٤
والدة خالد « انظر شكل رقم ٦ صفحة ٤٠ »	٣٦
والد خالد	٣٩
خالد ومظاهر الشرف في قريش	٤٤
صناعة خالد	٤٧
أوصافه الخلقية	٤٨
السر في أنه كان حربياً مظفراً	٤٩
موقفه إزاء الإسلام ، موقفه في أحد	٥٠
موقفه في الخندق	٥١
موقفه بالحديبية	٥٢
موقفه في عمرة القضاء	٥٣

الباب الثاني

خالد منذ إسلامه إلى وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إسلامه	٥٤
لماذا أبطأ خالد في إسلامه	٦١
غزوة مؤتة	٦٢

الموضوع	صفحة
عود على بدء	٦٦
فتح مكة	٦٨
هدم العزى	٧٣
خالد فى بنى جذيمة	٧٤
الفصل فى أمر بنى جذيمة	٧٨
غزوة هوازن	٨٠
خالد فى غزوة الطائف	٨٢
إرسال خالد إلى بنى المصطلق	٨٤
هدم ود	٨٦
سرية خالد إلى دومة الجندل	٨٧
إرسال خالد إلى نجران	٨٨
بعث خالد إلى اليمن	٩٠

الباب الثالث

أعمال خالد وفتوحه فى زمن أبى بكر رضى الله عنه ، أثره فى حروب الردة :

تمهيد ، انظر مصور حروب الردة صفحة ١١٠	٩٣
طليحة الأسدى	٩٦
مالك بن نويرة	١٠٢
الفصل فى أمر مالك	١٠٤
مسيلمة الكذاب	١١١
فتوح خالد فى العراق : الأبلة « انظر مصور فتوح العراق صفحه ١١٩ » ...	١٢٠
موقعة المذار	١٢٣
« الولجة	١٢٤
« أليس	١٢٥
« أمغيشيا	١٢٦
« الحيرة	١٢٧
عمال خالد وأمراؤه ، خطة حكيمة	١٣٢
موقعة الأنبار	١٣٤
« عين التمر	١٣٥
« دومة الجندل	١٣٧
« الحصيد	١٣٩
« الخنافس ، المصيخ	١٤٠
« الثنى والزميل	١٤١
« الفراض	١٤٢
حج خالد	١٤٣

obeikandi.com

الموضوع	صفحة
أثر خالد فى فتوح العراق ، وفائدة ذلك للمسلمين	١٤٥
فتوحه فى الشام « انظر مصور فتوح الشام صفحة ١٥٦ »	١٤٩
هل ولى خالد القيادة العامة لجنود الشام	١٥٥
موقعة اليرموك « أنظر مصور منطقة اليرموك صفحة ١٦٢ »	١٥٧

الباب الرابع

أعمال خالد وفتوحه زمن عمر رضى الله تعالى عنه ، دمشق « انظر مصور حصار المسلمين لدمشق صفحة ١٦٧ »	١٦٦
غزوة فحل ، وقعة مرج الروم	١٦٩
فتح حمص	١٧٠
وقعة الحاضر ، فتح قنسرين	١٧١
وقعة مرعش ، مهارته فى تعبئة الجيوش وتزجيتها	١٧٢
شبهة مفرض	١٨٢
ترتيب الوقائع وأزمنة حدوثها وما آل إليه ، أسبابه	١٨٣
النفور بين عمر وخالد ، أخص أوصاف عمر رضى الله عنه	١٨٨
أخص أوصاف خالد رضى الله عنه	١٨٩
أصل العداوة بين عمر وخالد	١٩٠
متى كان عزل خالد	١٩٢
أثر العزل فى نفس عمر وخالد رضى الله عنهما	١٩٦
أثر العزل فى نفوس الأمراء والجند وكبار الصحابة رضى الله عنهم	١٩٧
أثر العزل فى نفوس بنى مخزوم وما آل إليه البغض بين عمر وخالد رضى الله عنهما	١٩٨
ناحية خالد الدينية	٢٠١
صفته وخلاقه	٢٠٣
سياسته فى الحرب وخبرته فى فنون القتال ، سياسته لجنده	٢٠٥
حبه للغزو والجهاد	٢٠٦
بيت خالد	٢٠٧
وفاة خالد رضى الله عنه « انظر الأشكال الخاصة بمسجده صفحة ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤	٢١٠
سجل المصادر	٢١٥

obeikandl.com

فهرس المصورات والأشكال

صفحة

١ — شكل رقم ١ يبين نسب خالد واتصاله بالعمود النبوى وبأبى بكر ... ١٨

٢ — شكل رقم ٢ يبين نسب خالد من جهة أبيه وأمه ١٩

٣ — شكل رقم ٣ لبيان بعض رجال بنى مخزوم ٣٠

٤ — شكل رقم ٤ لبيان أعمام خالد وبعض أبناء عمومته ٣٣

٥ — شكل رقم ٥ لبيان إخوة خالد ٣٧

٦ — شكل رقم ٦ يبين خال خالد وخالاته الأشقاء وخالاته لأمه ٤٠

٧ — مصور لجزيرة العرب يبين بعض المواضع التاريخية وأماكن القبائل التى ترد فى حروب الردة ١١٠

٨ — مصور لأرض العراقين يبين الأماكن التى ترد فى الفتح الإسلامى ... ١١٩

٩ — مصور لبلاد الشام يبين بعض الأماكن التى ترد فى الفتح الإسلامى ... ١٥٦

١٠ — مصور لموقعة اليرموك تبين تعبئة الجيشين المتحاربين قبل المعركة ... ١٦٢

١١ — مصور لبيان حصار المسلمين لدمشق ومواقف القواد على أبوابها ... ١٦٧

١٢ — منظر خارجى لمسجد سيدنا خالد ٢١٢

١٣ — منظر داخلى لمسجد سيدى خالد ومنه يرى المنبر والمحراب ٢١٣

١٤ — منظر داخلى لمقام سيدى خالد ومنه يرى باب المقام ٢١٣

١٥ — منظر داخلى لمسجد سيدنا خالد ٢١٤

١٦ - المنظر الخارجى لمقام سيدنا خالد ٢١٤

ملتزم الطبع والنشر لهذه الطبعة

مكتبة الخانجى بمصر

obeikandl.com

بعض مطبوعات

جماعة الأزهر للنشر والتأليف

٣٢ شارع المنيل بالروضة — القاهرة

			ص
١	— صفوة صحيح البخاري — الجزء الأول	شرح فضيلة الشيخ	٣٠
٢	— صفوة صحيح البخاري — الجزء الثاني	عبد الجليل عيسى	٤٠
٣	— صفوة صحيح البخاري — الجزء الثالث	عميد كلية اللغة العربية سابقا	٤٠
٤	— صفوة صحيح البخاري — الجزء الرابع	وتحقيق جماعة الأزهر	٤٥
٥	— توضيح تفسير النسفي — لفضيلة الشيخ مصطفى الطير المدرس بالأزهر		٢٥
٦	— المفتاح شرح نور الإيضاح — لفضيلة الشيخ أبو زيد شلبي الأستاذ بكلية أصول الدين		٨
٧	— عثمان بن عفان — لفضيلة الشيخ صادق عرجون شيخ معهد دسوق		٢٥
٨	— معيد النعم ومبيد النقم — للامام ابن السبكي — تعليق الأساتذة المشايخ محمد على النجار وأبو زيد شلبي ومحمد أبو العيون الأساتذة بكليات الأزهر		٢٠
٩	— الإرشاد للامام الجويني : تحقيق الأستاذين الدكتور محمد يوسف موسى أستاذ الشريعة بجامعة فؤاد والشيخ على عبد المنعم عبد الحميد المدرس بالأزهر		٥٠
١٠	— المنهاج الواضح — الجزء الأول		١٥
١١	— المنهاج الواضح — الجزء الثاني	تأليف فضيلة الشيخ	١٥
١٢	— المنهاج الواضح — الجزء الثالث	حامد عوني	٢٥
١٣	— المنهاج الواضح — الجزء الرابع	المدرس بكلية اللغة العربية	٢٥
١٤	— المنهاج الواضح — الجزء الخامس		٢٥
١٥	— ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين : للسيد أبي الحسن على الندوي وكيل ندوة العلماء بالهند		٢٥
١٦	— العربية : — ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار المدرس بكلية الآداب		٤٠
١٧	— تفسير سورة يس : — المرحوم فضيلة الشيخ عبد الفتاح خليفة		٤

وتطلب هذه الكتب من مقر الجماعة ٣٢ شارع المنيل بالروضة بالقاهرة .
ومن مكتبة الخانجي بشارع عبد العزيز ، ومكتبة صبيح بالأزهر ، والمكتبات الشهيرة .

obeikandl.com